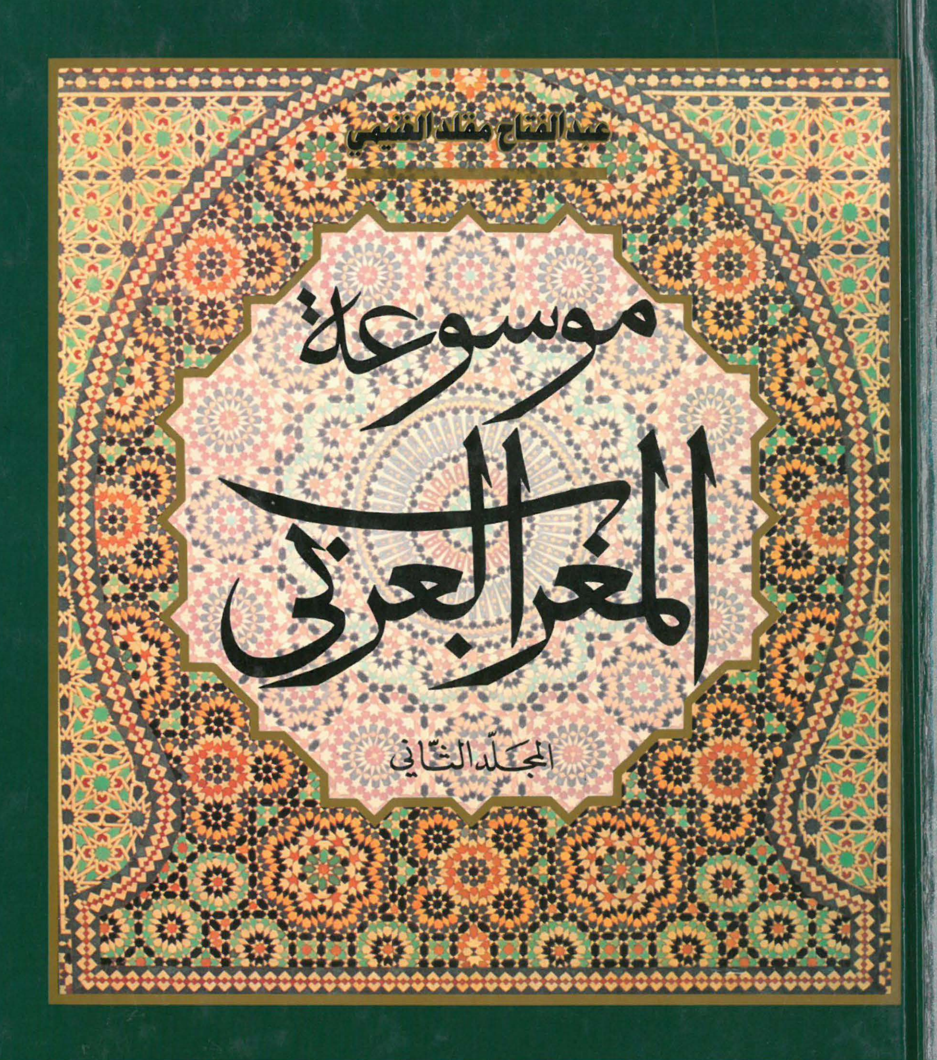
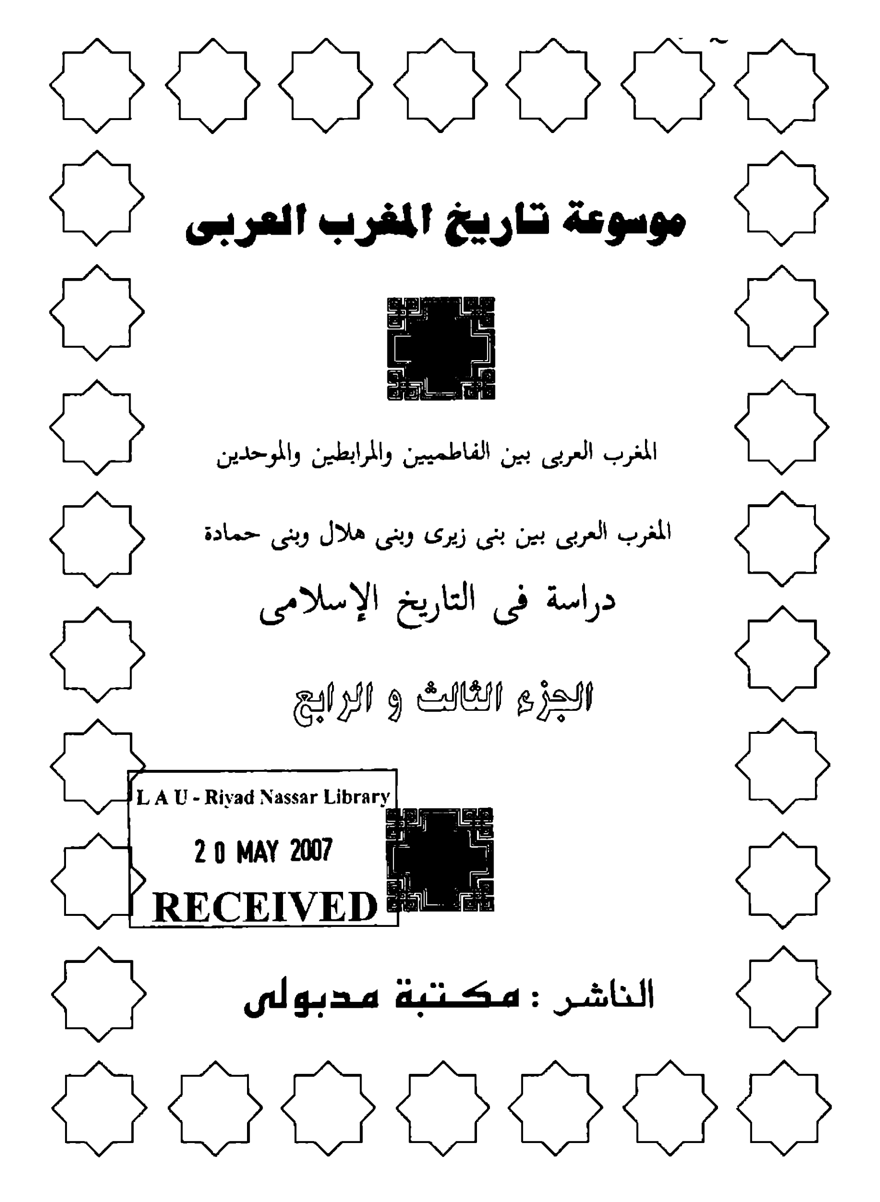


مكتبة مدبولي
القاهرة



موسوعة تاريخ المغرب العربى

المغرب العربى بين الفاطميين والمرابطين والموحدين

المغرب العربى بين بنى زيرى وبنى هلال وبنى حمادة

دراسة فى التاريخ الإسلامى

الجزء الثالث و الرابع

الناشر : مكتبة مدبولى

الطبعة الأولى

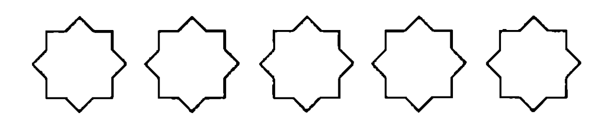
١٤١٤هـ - ١٩٩٤م

الناشـــر

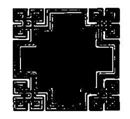
مكتبة مدبولى

ميدان طلعت حرب بالقاهرة - ج م ع

تليفون ٧٥٦٤٢١



موسوعة تاريخ المغرب العربى

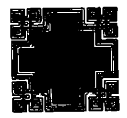


المغرب العربى بين

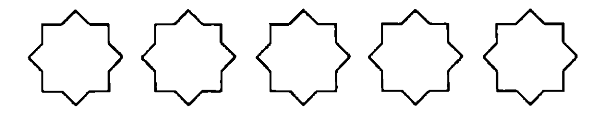
الفاطميين والمرابطين والموحدين

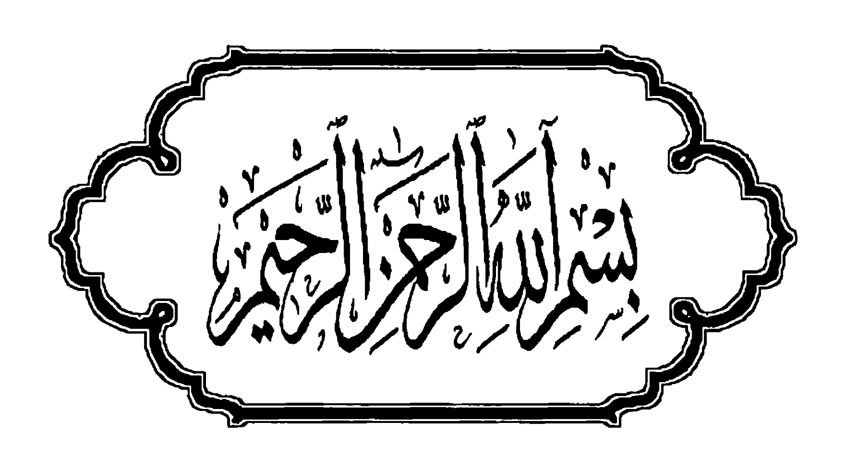
٢٩٦ - ٦٦٨ هـ / ٩١٠ -١٢٧٠ م

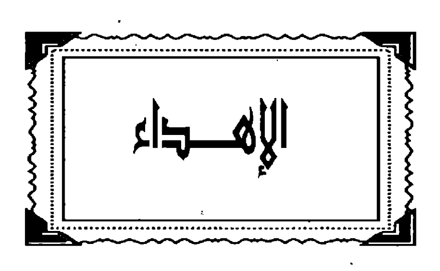
دراسة فى التاريخ الإسلامى



الجزء الثالث




بسم الله الرحمن الرحيم



إلى إبنى احمد

وهو يستقبل عامه الثالث عشر راجيا من المولى العلى القدير أن يجعله إبناً بارا مباركاً تحرسه عناية الله.

هذا الجزء الثالث من الموسوعة السداسية الأجزاء

دكتور

عبد الفتاح مقلد الغنيمى

المقدمة

والحمد للّه حمد العالمين والصلاه والسلام على أشرف الخلق سيدنا محمد بن عبد الله النبى الامى وعلى آله وصحبه الكرام أما بعد .

أما بعد .

فان تاريخ المغرب الاسلامى صفحة مشرقة ومضيئة فى تاريخ العالم الاسلامى منذ أن وطأت أنوار الدعوة الاسلامية تلك الديار وجهاد أهله الكرمة الابرار فى بناء دار الاسلام على أرضه وعلى أرض الاندلس وحماية ترابه ومقدساته ومعالمه من الضياع. فقد أصبحت المغرب بعد أن غمرتها أنوار الاسلام أغلى درة فقد وقع على عاتقها حماية الاسلام وثقافته وحضارته فى ذلك الركن العربى من الديار الاسلامية .

وفى هذه الدراسة التى هى الجزء الثالث من موسوعة تاريخ المغرب العربى والتى تركزت على المغرب بين الفاطميين والمرابطين والموحدين والتى قسمتها إلى ثلاثة أجزاء فكان الجزء الاول عن الدولة الفاطمية الشيعية فى المغرب والذى قسم إلى عدة أبواب فكان الباب الاول عن ظهور التشيع فى العالم الاسلامى منذ انتقال الرسول ﷺ وخلافة عثمان بن عفان وظهور التشيع بصورة واضحة ، ثم خلافة على بن أبى طالب وما تم فيها من أحداث ونشاط الشيعة فى العصر الاموى. والانتقال إلى بيعة يزيد بن معاوية بن أبى سفيان بالخلافة ودور الشيعة والحسين بن على ومذبحة كربلاء وتحدثت فى هذا الباب عن المذهب الشيعى بعد كربلاء وقيام الدولة العباسية وموقف الشيعة من خلافة أبناء عمومتهم .

وفى الباب الثانى عالجت موضوع الفرقة الاسماعيلية والدعوة الشيعية فى المغرب، واليمن كمركز للدعوة الشيعية وتحرك رجال الدعوة إلى المغرب ودور أبو عبد

الله الشيعى فى المغرب ثم بداية الكيان السياسى للدولة الشيعية وتناولت فى الباب الثالث الدولة الفاطمية ككيان سياسى فى العالم الاسلامى والخليفة الفاطمى الاول عبيد المهدى وبناء عاصمته المهدية ومحاولاته الاستيلاء على مصر والخليفة الفاطمى الثانى القائم بأمر الله أبو القاسم نزار الشيعى، ثم الخليفة الثالث المنصور اسماعيل ونهاية بالخليفة الرابع المعز لدين الله أبو تميم سعد الذى انتقل إلى القاهرة ٣٦٢هـ وانتهى تاريخ الدولة الفاطمية فى المغرب وتلك نهاية بحثنا هنا. وفى الباب الرابع تناولت الانجازات الفاطمية فى المغرب فى خلافة هؤلاء الخلفاء الاربعه وتحدثت عن الفاطميين والبحرية وحكم صقلية ثم الفتح الشيعى الفاطمى لمصر ونهاية الدراسة شجرة الدولة الفاطمية .

وكان الجزء الثانى فى هذه الدراسة عن خلافة المرابطين فى المغرب والاندلس والذى قسم إلى عدة أبواب فكان الباب الخامس عن ظهور المرابطين وما هو الدور الذى لعبته قبائل صنهاجة الصحراء وكيف توحدت صنهاجة لاول مرة .

وكان الباب السادس عن صنهاجة ودور عبد الله بن ياسين فى بناء دولة المرابطين، ثم الصدع بالدعوة والخروج من الرباط والباب السابع عن المرابطين بعد عبد الله بن ياسين ودورهم فى المغرب تحت قيادة أبى بكر بن عمر ثم الباب الثامن عن يوسف بن ناشين ودوره فى المغرب وجهاد المرابطين فى الاندلس كان الباب التاسع والذى ينطوى تحته القوة الاسلامية تقهر قوات أوربا الصليبية فى معركة الزلاقة ودور المرابطين بها وتوحيد الاندلس وعزل ملوك الطوائف ثم دور يوسف بن ناشين وبناء الدولة الجديدة فى المغرب والاندلس والبحرية الاسلامية فى عهد المرابطين والدولة بعد يوسف بن ناشين وكان الباب العاشر عن مآثر المرابطين فى المغرب والاندلس .

وفى الجزء الثالث من هذه الدراسة تحدثت عن ظهور دولة الموحدين على مسرح

الاحداث السياسية فى المغرب والاندلس حيث كان الباب الحادى عشر عن دور الفقيه محمد بن تومرت فى توحيد قبائل المصامدة والصدام مع المرابطين وانتقلت إلى الباب الثانى عشر وهو عن الكيان السياسى للموحدين ودور عبد المؤمن بن على فى بناء هذا الكيان الذى أصبح القوة الوحيدة فى المغرب وكيف استغرق عبد المؤمن أعواما عديدة فى بناء الدولة ثم الموحدين بعد عبد المؤمن بن على أبنائه وأحفاده بدءا من أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن وسنوات حكمه وأهم الانجازات التى تمت، والباب الثالث عشر عن الدولة الموحدية فى عصر ازدهارها وكيف قام المنصور بتوطيد دعائم الدولة مع بنى غانية وجهاد المنصور فى الاندلس وانتصاره فى معركة الارك الباهر. وفى الباب الرابع عشر تحدثت عن بداية انهيار الدولة الموحدية ودور الناصر لدين الله وموقعة العقاب وتساقط المدن الاندلسية وضعف السيادة الاسلامية فى الاندلس وفى الباب الخامس عشر كان الحديث عن الدولة الموحدية بعد الناصر لدين الله ومن هم الخلفاء الذين تولوا ادارة دفة الامور بعد هذا الانهيار وكيف تم لبنى مرين القضاء على الدولة فى خلافة الواثق بالله عام ٦٦٨هـ/ ١٢٧٠م وتكملة لهذا الباب تحدثت عن البحرية فى عهد الموحدين ودورهم فى بنائها، والباب السادس عشر عن مآثر الموحدين الحضارية فى المغرب والاندلس .

ثم جاءت الخاتمة فى نهاية هذه الدراسة وهى خلاصة ما انتهى اليه البحث عن الفاطميين والمرابطين ثم الموحدين وما أنجزوا من انجازات على الساحة المغربية والاندلسية ثم المصادر والمراجع العربية والاجنبية التى عولت عليها فى هذه الدراسة .

وهكذا تم فى هذه الدراسة القاء الضوء على الادوار الاسلامية لهذه الدول الثلاث وكيف تبلورت مقومات المغرب العربى الاسلامى بصورة فعالة وتم بناء الجيل العربى المغربى فى المغرب والاندلس وكيف اضطلعت المغرب بدور من أدوار تاريخها المجيد فى

ظل الاسلام قوامه التصدى للخطر الخارجي الذى بدأ يحدق بالديار المغربية الاندلسية وكيف أن دولة الموحدين والمرابطين كان لظهورهما الفعل المؤثر فى اعاقة الحركة الصليبية فى المشرق وانشغال دول أوربا وعلى وجه التحديد الممالك النصرانية فى الاندلس وغيرهما من الدول الاوربية فى الالقاء بثقلها فى الصراع الدائر فى المشرق من أجل السيطرة على بيت المقدس دون التكتل لحرب المسلمين فى الاندلس .

وهكذا لعبت هذه الدول دورها فى اثراء الحركة الاسلامية ودفع التقدم الحضارى والثقافى فى مختلف الميادين .

والله العلى القدير أرجو أن أكون قد استطعت أن ألقى بعض الاضواء على تاريخ هذه الدول بصورة موجزة يتضح فيها للقارئ الكريم نضال شعوب المغرب من أجل الاسلام وعقيدته الغراء .

والله ولى التوفيق

الملك فيصل – الهرم

الجمعة ٢ مارس ١٩٩٠م

٥ شعبان ١٤١٠هـ

دكتور

عبد الفتاح مقلد الغنيمى

الباب الأول

كيف ظهر التشيع فى العالم الإسلامى

قبل الخوض فى دراسة تفصيلية عن ظهور الدولة الفاطمية فى بلاد المغرب فان الأمر يقتضى أن نغوص فى أعماق التاريخ الإسلامى لكى نوضح كيف ظهر التشيع فى العالم الإسلامى وماهى الفرق الشيعية الهامة والتى مارست دورها فى فى التشيع لآل البيت وماهى الثورات التى قام بها أبناء البيت العلوى بعد خلافة الخليفة الراشد الرابع على بن أبى طالب وكيف ثار العلويون فى وجه الخلافة الأموية والعباسية حتى إستطاع فرع من الفرق الشيعية إقامة دولته فى بلاد المغرب وكيف كان يهدف خلفاء هذه الدول إلى فرض سيطرتهم على العالم الإسلامى والقضاء على الخلافة الأولى والوحيدة فى العالم الإسلامى فى ذلك الوقت والتى كانت ترى أن لها الحق فى حكم الأمة الإسلامية فى ذلك الحين.

ولقد كانت البذرة الأولى للشيعة، تلك الجماعة الذين رأو بعد إنتقال الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى أن أهل بيته أولى الناس أن يخلفوه فى قيادة المسلمين وأولى أهل البيت العباس بن عبد المطلب عم النبى ﷺ وعلى بن أبى طالب ابن عمه وعلى أولى من العباس، ولقد كانت الخلافة أول المشاكل التى تعقد فيها الخلاف بين المسلمين ذلك لأن رسول ﷺ انتقل الى الرفيق الأعلى ولم يعين من يخلفه من بعده فواجه المسلمون أخطر مشكلة فى طريق سيرهم على درب الرسول ﷺ .

ولذا شعر المسلمون من لحظة وفاة الرسول ﷺ إلى ضرورة التفكير العلمى واتخاذ الخطوات الفعلية بمن يخلفه ﷺ فى قيادة المسيرة، وكان الانصار فى المدينة قد أسرعوا قبل دفنه ﷺ إلى عقد اجتماع عاجل وفورا فى سقيفة بنى ساعدة ليتدارسوا الامر

بينهم، لكن بعضا من المهاجرين بقيادة أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب وأبو عبيدة الجراح وغيرهم من كبار المهاجرين خشيوا أن يتخذ الانصار قرارهم فى الامر من جانب واحد فى هذه السقيفة دون دعوة المهاجرين .

وفى سقيفة بنى ساعده انقسم المسلمون إلى قسمين بل رأيين متعارضين فهناك رأى يقول بأن الخليفة يجب أن يكون من الانصار الذين نصروا الرسول ﷺ وأوه فى المدينة المنورة وحجتهم فى ذلك أن محمدا ﷺ لبث فى قومه فى مكة المكرمة نحو ثلاث عشر سنة يدعو قريش إلى الاسلام فما آمن منهم الا نفر قليل وما تعرض له الرسول ﷺ من الاذى يعرفه كل المهاجرين فلما هاجر من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة نصره الانصار وآمنوا بدعوته وأعز الله دينه بهم وكانوا معه على عدوه حتى دانت له كل جزيرة العرب وصعدت روحه الطاهرة إلى بارئها وهو ﷺ راضى عنهم .

فلهذه الاسباب فان الانصار أولى الناس أن يخلفوه ﷺ فى قيادة المسيرة الاسلامية وكان للمهاجرين حجتهم فى أن تكون الخلافة الاسلامية من حقهم وحجتهم فى ذلك أنهم أول من آمن به وصبروا وصابروا معه ﷺ على الاذى والشدائد وهم قومه وعشيرته وهم من قريش وكل العرب لاندين الا لهم. ولا تقر بعزة ومنعه غير عزتهم ومنعتهم فهم أولى بالخلافة من غيرهم وبعد طول نقاش تمت البيعة فى هذا المجلس لعبد الله بن أبى قحافة (أبو بكر الصديق التميمى القرشى) .

ولم يكن على بن أبى طالب حاضرا هذا الاجتماع لانشغاله هو وأهل بيته فى جهاز وتجهيز الرسول ﷺ واعداد العدة لدفنه صلى الله عليه وسلم، فلما بلغه خبر البيعة لابى بكر لم يرضى عنها. ذلك لان الامام على بن أبى طالب عرف أن هزيمة الانصار جاءت بسبب حديث الرسول ﷺ– الائمة من قريش، قال على «احتجوا بالشجرة ونسوا (تجاهلوا) الثمرة» وقد فهم على من احتجاج أبى بكر وعمر بهذا الحديث أن المقصود

القرابة فاذا كانت القرابة من الرسول ﷺ مرجحا لنيل الخلافة فعلى بن أبى طالب أقرب إلى الرسول ﷺ من أبى بكر وعمر ولكن يبدو أن أبا بكر وعمر كانا يقصدان مكانة قريش وقوتها لا القرابة وحدها فقريش أولى بالخلافة لقوتها ولانها المطاعة بين العرب وقد وضح أبو بكر قصده ذلك فى نفس الخطاب الذى ألقاه فى سقيفة بنى ساعدة بقوله نحن مع ذلك أوسط العرب «أنسابا» ووضح عمر بن الخطاب هذا الاتجاه ايضا بقوله «لو دخلت قريش جحر ضب ليتبعها العرب» .

ولقد كان إلى جانب الانصار والمهاجرين الذين تم على أيديهم اختيار أبى بكر الصديق ليخلف الرسول ﷺ رأى ثالث فى المدينة يرى أن تكون الخلافة فى بيت النبى وأقرب الناس اليه ﷺ عمه العباس بن عبد المطلب أو ابن عمه على بن أبى طالب ولكن العباس لم يكن من السابقين إلى الاسلام ولم يدخل الاسلام الا متأخرا فأولى الناس من قرابة النبى ﷺ على بن أبى طالب وهو أول الناس اسلاما وزوج فاطمة الزهراء بنت النبى ﷺ وجهاده وعلمه لا ينكر . وحجة هذا الفريق الثالث أن أقرب الناس إلى النبى أن يخلفوه وأن بيت بنى هاشم خير من بيت بنى تميم فالعرب للاولين أطوع وان المهاجرين احتجوا على الانصار بأنهم قوم النبى وعشيرته فعلى هذا يكون آل النبى وأقربهم اليه أولى بالخلافة من أبى بكر الصديق .

وقد سؤل على بن أبى طالب عما حدث فى سقيفة بنى ساعدة فقال فماذا قالت قريش قالوا احتجت بأنها شجرة الرسول ﷺ فقال على احتجوا بالشجرة وأضاعوا الثمرة، يريد القول بأن المهاجرين احتجوا بأنهم من شجرة النبى فالاولى بالاحتجاج من يجمعهم والرسول ﷺ ثمرة واحد من ثمار واحد من ثمار قريش وهم قرابته، وقد أيد هذا الرأى بعضا من بنى هاشم وعطف عليه بعض الانصار والمهاجرين على السواء .

ولكن الرسول ﷺ لم يو صى بالخلافة من بعده وترك الامر شورى بين المسلمين

وعن طريق هذه الشورى أختير الخلفاء الاربعه الراشدين وان اختلفت أساليب الشورى عند اختيار كل واحد منهم وكان على بن أبى طالب يطمع فى أن يلى هذا المنصب منذ اللحظة الاولى .

لكن الرأى الذى أيد عليا فى الخلافة واعطائه حقه فى الخلافة لم ينتهى ويسكت فى عهد أبى بكر الصديق وعمر بن الخطاب لكن سلوك أبى بكر وعمركان مثاليا فلم يدعا بأخلاقهما فرصة لاية أفكار معادية أن تظهر أو تنتشر لانهما لم يعيرا العصبية القبلية أى التفات وزاد فى سكونها اشتغال الناس بالدعوة والفتوح ونجاحهم فى تحقيق أهداف الفتح فلم يجد أصحاب الرأى المخالف مجالا يدخلون منه لاثارة الفتن بين المسلمين وعلى هذا فان الامر ظل يسير عاديا فى خلافة هذين الخليفتين اللذين بذلا الكثير لصالح المسلمين عامة وكان عليا فى ظل هذه الظروف لم يبدى تذمرا أو احساسا بالضيق نظرا لان حديثا دار بينه وبين عمه العباس بن عبد المطلب رواه البخارى عن ابن عباس أن عليا رضى الله عنه خرج من عند رسول الله ﷺ فى وجعه الاخير الذى نقل منه إلى الرفيق الاعلى فقال الناس يا أبا الحسن كيف أصبح رسول الله فقال أصبح يحمد الله بارئا فأخذ بيده العباس رضى الله عنه وقال أنت والله بعد ثلاث عن اليصا، واني والله لارى رسول الله ﷺ سيتوفى من وجهه هذا لانى لا أعرف وجوه بني عبد المطلب عند الموت، فاذهب بنا اليه نسأله فيمن هذا الامر، فان كان فينا علمناه، وان كان فى غيرنا كلمناه فأوصى بنا فقال على رضى الله عنه، أما والله لئن سالناه فمنعناها لا يعطيناها الناس بعده وأى والله لا أسألها .

وكان جمع من الصحابة يرى أن عليا أفضل من أبى بكر وعمر وغيرهما. وذكروا أن ممن كان يرى هذا الرأى عمار بن ياسر وأباذر الغفارى وسليمان الفارسى وجابر بن عبد الله، والعباس وبنيه، وأبى بن كعب وحذيفة وغيرهم الكثيرين من

صحابة رسول الله ﷺ .

والشيعة يرون أن عليا رضى الله عنه هو الذى عينه صلوات الله وسلامه عليه بنصوص ينقلونها ويؤولونها على مقتضى مذهبهم لا يعرفها جهابذة السنة وتنقسم هذه النصوص إلى جلى وخفى فالجلى مثل قوله ﷺ من كنت مولاه فعلى مولاه قالوا ولم تطرد هذه الولاية الا فى على ولهذا قال له عمر أصبحت مولى كل مؤمن ومؤمنه ومنها قوله ﷺ أقضاكم على. ولا معنى للامامة الا القضاء بأحكام الله وهو المراد بأولى الامر الواجبة طاعتهم بقوله أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الامر منكم والمراد الحكم والقضاء ولهذا كان حكمه فى قضية الامامة يوم السقيفة دون غيره ومنها قوله من يبايعنى على روحه وهو حى وولى هذا الامر من بعدى فلم يبايعه الا على ومن الخفى عندهم بعث النبى ﷺ عليا لقراءة سورة براءة فى الموسم فانه ﷺ بعث بها أولا أبا بكر ثم أوحى اليه ليبلغه رجل منك أو من قومك فبعث عليا ليكون القارئ المبلغ وقالوا أن هذا يدل على تقدم على بن أبى طالب ولم يعرف عنه ﷺ انه قدم أحدا على على أما أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب فقدم عليهما أسامة بن زيد فى غزوة وعمرو بن العاص فى غزوة أخرى .

وهذه كلها أدلة حية وشاهدة على تعيين على بن أبى طالب للخلافة دون غيره من صحابته ﷺ، بل إن هذه النصوص تدل على تعيين على وتشخيصه وكذلك تنقل منه إلى من بعده . وعلى كل الاحوال فان خبر أبى ذر الغفارى بأنه كان من شيعة على خبر شائع بين كافة الناس ولقد عمل مؤيدو على بن أبى طالب منذ الوهلة الاولى على نشر الاحساس بين المسلمين بأن عليا مضطهد ومبعد عن مكانة الخلافة التى هو بها جدير دون غيره وان كان هذا الاحساس لم يكن قويا وظاهرا بصورة واضحة وجلية أمام كافة صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وان كان يشعر به من رأوا أحقية على

وذلك فى عصر أبى بكر وعمر نظر لكبر سنهما وكفاءتهما النادرة .

خلافة عثمان بن عفان وظهور التشيع بصورة واضحة

لما ولى عثمان بن عفان الخلافة الراشدة الثالثة للمسلمين تبرم على ابن أبى طالب وأنصاره من صحابه رسول الله ﷺ وزادهم تبرما أن عثمان وهو أموى استعان بعشيرته من الامويين فكان أكثر عماله منهم وكان كاتبه وأمين سره «مروان بن الحكم» ومروان هذا وشيعته هدموا كل ما بناه الاسلام من قبل ودعمه أبو بكر وعمر من محاربة العصبية القبلية وبث الشعور العام بأن العرب أمة واحدة، ولكن الامويين حكموا البلاد كأمويين ولم يحكموها كعرب ولقد كانت هذه الافعال من جانب الامويين محركا للشعور القديم بين بنى هاشم وبنى أمية .

وكان اختيار عثمان وتفضيله على على سببا فى ظهور التشيع لآل البيت بصورة جلية وقوية لاسيما أن الشعور العام كان بجانب على وأن الخلافة بعد عمر سينالها على بن أبى طالب، ولقد عبر على بن أبى طالب عن ذلك بنفسه عما يحس به من شعور وضيق وابعاد بقوله لعبد الرحمن ابن عوف، عقب اعلان اختيار عثمان بن عفان خليفة راشد ثالث للمسلمين «ليس هذا أول يوم تظاهرتم فيه علينا فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون» .

وجاء فى رواية ابن عبد ربه فى كتابه العقد الفريد قول على فى حديث الشورى عقب وفاة عمر : فأخذ عبد الرحمن بن عوف مواثيقنا وعهودنا على أن يخلع نفسه وينظر لعامة المسلمين فبسط يده إلى عثمان فبايعهم اللهم أن قلت انى لم أخن فقد كذبت .

وكان الخليفة عثمان قد اتى أعمالا لم يسبق لابى بكر وعمر قبله أن عملاها،

ومن ثم انتشرت الجمعيات السرية فى أواخر عهده تدعو إلى خلعه وتولية غيره ومن ثم بدأت حركات الشيعة تظهر وتقوى. ومن هذه الجمعيات من كانت تدعو إلى على ومن أشهر الدعاة له عبد الله بن سبأ وكان من يهود اليمن وادعى دخول الاسلام لاحبا فيه ولكن ليطعنه من الداخل فذلك أيسر عليه من محاربة الاسلام دون أن أن يتظاهر بالانتساب اليه .

وقد تنقل فى البصرة والكوفة والشام ومصر يدعو إلى آل البيت بعد أن حدث من تولى عثمان لشئون المسلمين فان التطور الذى شهده عهد هذا الخليفة قد هيأ للامويين الانفراد بالخلافة وجعلها وراثية فى بيتهم دون غيرهم وكانت الدولة الاسلامية قد سارت وفق النظام الاسلامى الكامل طيلة ثلاثين عاما من حياتها أى من السنة الاولى للهجرة حتى أواسط خلافة عثمان بن عفان وطوال عهد هذا الخليفة فقد بدأ نفر من القادة يميل إلى تعديل السياسة التى وضعها عمر بن الخطاب للحكم وهو الرأى الذى عبر عنه عثمان بن عفان نفسه فى مجلس الشورى قبل انتخابه قائلا لاعضاء هذا المجلس «لان تعينوا حجرا خيرا من أن تولوا مرة أخرى رجلا مثل عمر» وقطع هذا الخليفة على نفسه عهدا بالسير على سياسة أبى بكر وعمر ولكن حين ولى الخلافة اتخذ خطوات اختلفت تماما عن سياسة عمر وأتاحت للامويين خاصة دعم نفوذهم فى الدولة الاسلامية متخليا بذلك عن أسس مجلس الشورى ونظمه على عهد عمر بن الخطاب ولكن تصدى لهذا التيار الجديد الجماعة التى رأت ضرورة التمسك بحكم السابقين وعبر عن هذه الجماعة على بن أبى طالب حين دار بينه وبين الخليفة عثمان نقاش ونقد لأعمال بنى أمية وتوليتهم فى مناصب الدولة الاسلامية .

وانطلقت بذلك الازمة التى اشتهرت فى عهد عثمان باسم الفتنة وهى انفصام وحدة المسلمين السياسية واختلاف آرائهم وهى الوحدة التى بناها أبو بكر حين قضى

على الرد ثم دعمها الخليفة عمر بحزمه وعدله وأخذ الناس ينتقدون الخليفة عثمان وظهرت الحركات المعادية لعثمان بن عفان ومحاباته لأبناء البيت الأموى دون سائر قريش والعرب والمسلمين .

وكان عبد الله بن سبأ قد انتهز السخط الذى ساد الولايات ضد سياسة عثمان فى محاباة أبناء البيت الاموى وأخذ يتنقل بين الولايات الاسلامية ويثير أهلها على الخليفة. وقد اتخذ عبد الله بن سبأ من الدعوة لعلى بن أبى طالب ومناداته بأحقية بيت النبى فى الخلافة سندا يخفى وراءه أغراضه الخبيثة. وكون عبد الله من النفوس الثائرة على الخليفة جماعة بعد أن كانوا أفرادا وربط هذه الجماعة بحب آل البيت والتشيع لهم رغبة فى كسب عطف المسلمين ومن هنا كان الشيعة هم الذين شايعوا عليا رضى الله عنه وبذلك بدأ عبد الله بن سبأ يدخل على تفكير جماعته من الشيعة ألوانا من الآراء والفلسفات وخلق الروايات ووضع الاحاديث التى نسبت للشيعة وتبعه فى ذلك كثيرون ممن عاصروه وممن جاءوا بعده وساروا على شاكلته ومن هذه الآراء قوله بمذهب الوصاية بمعنى أن لكل نبى وصياً وأن على بن أبى طالب وصى النبى محمد ﷺ وبما أن محمد خاتم الانبياء فان عليا خاتم الاوصياء أى أن عثمان قد اغتصب الخلافة من وصى رسول الله فمن أظلم ممن لم يجز وصية رسوله الله ووثب على وصيه.

وقد وصل عبد الله بن سبأ إلى مصر بعد ست سنوات فقط من تولى عثمان الخلافة وأخذ يتراسل مع نفر من الرجال الذين مالوا إلى دعوته فى كل من البصرة والكوفة والشام وكان ممن استجاب لدعوة ابن سبأ فى مصر نفر من كبار أبناء الصحابة ومعهم محمد بن أبى بكر الصديق وغيره الكثيرين من الصحابة الذين كانوا يرون أن عليا أحق بالخلافة بعد وفاة الرسول ﷺ ولم يدرك الخليفة عثمان بن عفان خطورة دعوة ابن سبأ فى مصر لانها اتخذت طابع السرية الشديدة وظهرت دعوة ابن سبأ جهارا

فى عام ٣٥هـ وذلك بسبب أعمال عثمان وموقفه من أقاربه بالاضافة إلى الميل الطبيعى المبعث من العاطفة لتأييد أقارب الرسول ﷺ وحبهم والولاء لهم وكذلك لما عرف عن على بن أبى طالب من بطولة نادرة فى نشر الاسلام ومن سبق فى الاسلام وعلم زاخر وخلق قويم .

وأدرك الخليفة عثمان خطورة الدعوة لآل البيت ولعلى فأمر بعقد مؤتمر بالحجاز استدعى اليه سائر عماله بالولايات الاسلامية وقد أدرك الخليفة خطورة الموقف وما هى المخاطر التى أخذت تطبق عليه ولكن معاوية ابن أبى سفيان وسط هذه الفتنة استطاع أن يبلور مسؤليته فى الدفاع عن الخليفة فقد وفد عليه معاوية عام ٣٤هـ مع سائر ولاة بنى أمية للتشاور فى القلاقل والفتن التى انتشرت فى بلاد الدولة، اذ قال معاوية للخليفة بعد انتهاء المؤتمر واتضاح الاسباب الحقيقية للسخط «يا أمير المؤمنين انطلق معى إلى يزالوا» ورفض عثمان طلب معاوية وأبى مفارقة الحجاز وعندئذ أعلن معاوية عن مسئولية بنى أمية فى الدفاع عن عثمان فى خطاب ألقاه فى جمع من المهاجرين بالمدينة قبل عودته إلى الشام فقال لهم قد علمتم انه ليس منكم رجلا الا وكان قبل الاسلام مغمورا فى قومه.. حتى بعث الله رسوله فسبقتم اليه فسدتم بالايمان والاسلام لا بغيره وسيدوم هذا الأمر ما استقمتم فان تركتم شيخنا هذا (يقصد عثمان بن عفان) يموت على فراشه والا خرج منكم ولا ينفعكم سيفكم وهجرتكم» وكشف معاوية بذلك عن مفهوم جديد للحكم فى الدولة الاسلامية هو أن بقاء الخلافة فى عثمان ابن عفان حق من حقوق البيت الاموى وان الالتجاء إلى القوة سوف يؤدى إلى رجحان كفة الامويين لاعتمادهم على أهل الشام .

وكان تلويح معاوية لعثمان بالانتقال إلى الشام يمثل ظاهرة جديدة من أجل العمل الشيعى المكثف للدعوة لآل البيت وضرورة تولية على بن أبى طالب للخلافة

وخلع عثمان قبل أن تسير الامور فى صالح بنى أمية إذ إن انتقال عثمان إلى الشام معناه أن الحكم سيؤول من بعده إلى معاوية نظرا لاعتماد البيت الاموى على بلاد الشام وأن ذلك يمثل مفهوما جديدا فى التطور السياسى الذى شهدته الدولة الاسلامية فقد اثبتت الاحداث والحوادث أن بلاد الحجاز لم تعد المركز الذى تدار منه شئون الدولة الاسلامية بعد أن اتسعت رقعتها. وقد ظهرت صحة احساس معاوية وأبناء البيت الاموى بالخطورة على عثمان حين وفد الثوار من الامصار الاسلامية إلى المدينة عام ٣٥هـ/ ٦٥٥م لشد أزر الناقمين فيها على الخليفة. اذ حين حاصر الثوار بيت الخليفة قال مروان بن الحكم الاموى مستشار عثمان ابن عفان. ما شأنكم قد اجتمعتم كأنكم قد جئتم للنهب شاهت الوجوه؟ أجئتم تريدون أن تنزعوا ملكنا من أيدينا. ارجعوا إلى منازلكم فإنا والله ما نحن بمغلوبين على ما فى أيدينا». وقال لهم عثمان مجيبا لهم «لا أخلع قميصا البسنيه الله» ولم يلبث أن تطور الأمر إلى اقتحام الثوار لمنزل الخليفة وقتله وهو يقرأ القرآن كما قطعت أصابع زوجته نائلة وهى تدافع عنه .

وقد اندس بين الساخطين الثائرين الذين قتلوا عثمان بن عفان كثيرون ممن غلبهم الاسلام على أمرهم فأرادوا هدمه أو النيل منه وتلك سمة ظاهرة منذ عصر الفتوحات حتى وقتنا الحاضر فتظاهروا بالدخول فيه ليمكنهم ذلك من الثورة على رلى أمر المسلمين باسم الاسلام وهذه قواعد الاسلام باسم الأحاديث الكاذبة التى وضعوها أو كما يقول الاستاذ أحمد أمين فى كتابه «فجر الاسلام» والحق أن التشيع كان مأوى يلجأ اليه من أراد هدم الاسلام لعدواة أو حقد ومن كان يريد ادخال تعاليم أبائه من يهودية ونصرانية وزردشتية أو هندية وكل من كان يريد استقلال بلاده والخروج على مملكة الاسلام. وكل هؤلاء كانوا يتخذون حب أهل البيت ستارا يخفون وراءه كل أهدافهم فى محاولة الكيد للاسلام وأهله وقالوا بأقوال كانت عند اليهود والنصرانية

والبرهمة والفلاسفة والمجوس من قبل الاسلام وسوف نشير إلى ذلك عند الحديث عن التغيرات التى تحرك فيها هؤلاء الذين دخلوا الاسلام واتخذوا التشيع لآل البيت عاملا من عوامل نقل الاسلام من البساطة إلى التعقيد وحقيقتهم أنهم كانوا أكثر بعدا عن الاسلام وعن التفكير السليم وانهم أخذوا اسم الشيعة فوضعوه ستارا ونسجوا خلفه ألوانا من الاكاذيب والاباطيل يقصدون بذلك الكيد للاسلام والمسلمين .

خلافة على بن أبى طالب وما تم من أحداث

لما قتل عثمان بن عفان بايع عليا بن أبى طالب كثير من المسلمين فتحققت بذلك نظرية القائلين بحق على فى الخلافة من يوم وفاة الرسول وأيده كثيرا من كبار المهاجرين لانطباق آرائهم فى حق على بالخلافة وخرج على على طلحة والزبير ومعاوية وكلهم يلصق بعلى تهمة أن له ضلعا فى قتل عثمان أو على أقل تقدير قعد عن نصرته وكان فى استطاعته رد الناس عنه. وأنه يجب عليه أن يقتص من قتلة عثمان وحمل لواء البيت الاموى هذا الصراع معاوية بن أبى سفيان والى الشام الذى رفض الاعتراف بعلى بن أبى طالب الذى بايعه الثوار خليفة بعد مقتل عثمان بن عفان وكان معاوية يقول انه أولى الناس رحما بعثمان وأقوى أهل بيته على المطالبة بدمه وانه زعيم البيت الاموى والرأس المفكرة المدبر لابناء هذا البيت وتطلعهم إلى السيادة العليا فى الدولة الاسلامية وحين انتهت الفتنة بمقتل عثمان بن عفان تولى معاوية بن أبى سفيان الزعامة السافرة للبيت الأموى فى المطالبة بدم الخليفة المقتول باعتباره من أبناء البيت الاموى .

واتخذ على بن أبى طالب الكوفة عاصمة له ابان خلافته وأصبحت الكوفة منذ ذلك التاريخ مركز التشيع وحدث الانقسام الاول الذى فتت الوحدة الاسلامية وجر الويلات على المسلمين والعالم الاسلامى منذ تلك اللحظة إلى يومنا هذا (ظهور شيعة

وسنة وخوارج) وكانت حجة معاوية انه قام للمطالبة بثأر عثمان والانتقام من قتلته ومن حماة هؤلاء القتلة وكانت هذه حجة عاطفية اتخذها معاوية ستارا ليثير شعور المسلمين على على أما الصراع الحقيقى فهو صراع سياسى تمتد جذوره إلى الماضى البعيد إلى عصر ما قبل الاسلام عندما كان التنافس على أشده بين بنى أمية وبنى هاشم فى سبيل السيادة .

ورفض معاوية بن أبى سفيان الامتثال للخليفة الجديد على بن أبى طالب الذى عزل ولاة عثمان جميعا ومن بينهم معاوية نفسه اذ نادى معاوية بأنه يجب أولا المطالبة بدم عثمان ثم الاتفاق على خليفة المسلمين وان الواجب يقتضى من الخليفة الجديد (على بن أبى طالب) أن يقوم بتسليم قتلة عثمان إلى معاوية الممثل الشرعى للبيت الاموى وصاحب الولاية للخليفة القتيل وكانت نائلة زوجة عثمان بن عفان قد بعثت بقميص زوجها المقتول وأصابعها التى قطعها الثوار قتلة الخليفة عثمان إلى معاوية بن أبى سفيان بالشام لتحرضه على الأخذ بثأر الخليفة وقد علق معاوية قميص الخليفة وأصابع نائلة على المنبر فى دمشق لتحريض أهل الشام على الأخذ بثأر الخليفة القتيل .

ووجدت فى هذا الموقف طائفة من كبار الصحابة لم تبايع عليا ولم تبايع غيره ولم تشترك فى الخلاف القائم وفضلت العزلة واستطاع الامام على أن ينتصر فى وقعة الجمل وأما معاوية فقد كان أصعب منالا اذ كان لديه جند الشام المنظم الطائع وكان بين على ومعاوية من وقعة صفين ما كان فلما أحس معاوية بأن الدائرة كادت تدور عليه أوعز إلى جنوده برفع المصاحف على رؤوس الرماح وطلب التحكيم إلى كتاب الله.

وكانت اجراءات التحكيم بين على بن أبى طالب ومعاوية قد دخلت فى دور

التنفيذ وقام عمرو بن العاص ممثلا لمعاوية بن أبى سفيان على حين كان على بن أبى طالب قد اختار أبا موسى الاشعرى ممثلا له وقد انتهت اجراءات التحكيم بالخدعة التى أقر فيها أبو موسى خلع على بن أبى طالب من الخلافة على حين ثبت عمرو بن العاص شخص معاوية فى الخلافة. ودبر الخوارج مؤامرة للفتك بعلى بن أبى طالب ومعاوية وعمرو بن العاص ولكن هذه المؤامرة لم تنجح الا بالقضاء على على وكان اغتياله عام ٤٠هـ على يد عبد الرحمن بن ملجم .

ولقد كان بن أبى طالب يعانى عناد خصمه وقوته ويعانى عناد الخوارج وقوتهم ويعانى تمرد أتباعه ونفاقهم وقعودهم عن نصرته وفى نفس الوقت كان معاوية مسموع الكلمة فى بلاد الشام وكذلك فى مصر التى استطاع أن ينتزعها من أيدى أنصار على بن أبى طالب فى شهر صفر عام ٣٨هـ. حيث غدت مصر منذ ذلك التاريخ قوة تشد أزر البيت الاموى وتساند قضاياه وهكذا أخذ شأن معاوية بن أبى سفيان السياسى يعلو يوما بعد يوم وباغتيال الخليفة الراشد الرابع على بن أبى طالب خلا الامر لمعاوية بن أبى سفيان. حيث كان معاوية قد قاد النضال فى عنف واصرار شديدين مستعملا كل ماأوتى من مكر ودهاء. فلم يكن الصراع بين على ومعاوية اذن صراعا للاخذ بثأر عثمان أو للانتقام من قتلته وانما كان حلقة جديدة فى سلسلة النزاع القديم فى سبيل السيادة بين بيتين كبيرين فى قريش هما بنو أمية وبنو هاشم .

وكان قد اتفق ثلاثة من الخوارج على قتل على بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان وعمرو بن العاص وذلك فى يوم واحد هو السابع عشر من رمضان عام ٤٠هـ بينما نجح احد الخوارج وهو عبد الرحمن بن ملجم فى اغتيال على بن أبى طالب بينما فشل الخارجان الآخران فى اغتيال معاوية وعمرو بن العاص .

وبعد مقتل على قامت محاولة ضئيلة ترمى إلى البيعة للحسن بن على أو قل انه

قد بويع فعلا من بعض الشيعة ولكن هذا الأمل سرعان ما انطفأ فى نفس الحسن حينما أشيع أن قائده قيس بن سعد بن عبادة قد قتل فإذا ببعض أهل العراق ينهالون على بيت الحسن يهتكون حرماته وينهبون متاعه حتى نازعوه بساطا كان يجلس عليه ولم يسلم الحسن نفسه من بعض الاقوال منهم .

ولقد صارت الكوفة بالعراق مقر أنصار آل على بن أبى طالب والساخطين على الأمويين منذ أن اغتصب معاوية الخلافة لنفسه وهكذا انتشر التشيع فى المرحلة الاولى من مراحل تطور الدولة الاسلامية فى بلاد العراق التى ارتبط بها بيت على بن أبى طالب منذ أن خرج اليها لمحاربة طلحة والزبير واتخاذ الكوفة بتلك البلاد عاصمة له. ولقد كان أهل الكوفة يستجيبون لكل نداء للثورة، كأن الثورات أصبحت هدفا لذاتها واضطراب الامن أصبح هدفا مقصودا لذاته ومن أجل ذلك كانوا ينهزمون أو يصطنعون الهزيمة وهم من أجل ذلك أحيانا يقتلون زعيمهم الشيعى بأنفسهم يكونون معه ويدفعونه للثورة فإذا استجاب انقلبوا عليه وقتلوه. ولقد قال أحد الشعراء عن أهل الكوفة قلوبهم معك وسيوفهم عليك بل أكثر من ذلك فان قلوبهم كسيوفهم ليست مع الشيعة ولا مع المسلمين وبتلك السيوف قتل قادة الشيعة وكبارهم .

وكان مقتل على بن أبى طالب سببا فى بلورت فكرة الحزب الشيعى وهو الحزب الذى يضم من ينتصرون لعلى أو يتشيعون له وقد انضم إلى هذا الحزب كل المتذمرين من معاوية وآل أموية من العرب وغيرهم ومن الموالى بوجه خاص وصنع رجال هذا الحزب لانفسهم مبدأ خاصا وفلسفوا هذا المبدأ فلسفة تأثروا فيها إلى حد بعيد بنظريات الحكم عند الفرس التى كانت تؤمن بحق الملك المقدس وحجر الزاوية فى هذا المبدأ عقيدتهم فى الامامة .

نشاط الشيعة فى العصر الاموى

بنى الشيعة عقيدتهم فى الامامة على حديث نبوى يقول إن الرسول ﷺ مر عند أوبته (عودته) من حجة الوداع بغدير (ضم) وهو مكان بين مكة والمدينة وعند هذا الغدير أخى بينه وبين ابن عمه على وقال ﷺ «على مولاى اللهم وآل من والاه وعاد من عاداه» .

وقالوا استنتاجا من هذا أن هذا الحديث يتضمن مبايعة ضمنية من الرسول «ﷺ» لعلى وأن عليا وصى الرسول «أوصى له بالامامة من بعد لشروط خاصة ينفرد بها ولعلوم لدينه تلقاها عنه ﷺ وأن الامامة يجب أن تنقل من على إلى أولاده الواحد بعد الآخر لان هذه الشروط والعلوم تتصل من نسل على بطريق الوراثة من الابن إلى الابن .

ولقد وقف أتباع هذا الحرب فيما بعد إلى جانب أولاد على يحرضونهم على المناداة بحقهم فى الخلافة فرشحوا أولا الحسن بن على ليعلى أمر المسلمين بعد مقتل أبيه ولكن الحسن كان رجلا بعيد النظر فرأى أن أهل الشام ومصر والحجاز واليمن قلوبهم مع معاوية ورأى أن أهل العراق الذين تقاعسوا عن نصرة أبيه لا يمكن مع تحمسهم لعلى وأولاده أن يتقدموا لنصرته ضد معاوية فآثر أن يسالم معاوية وقنع معه بمعاهدة عقدها معه فيها شروط خاصة له ولاتباعه واستقر بعد ذلك فى مدينة الرسول ﷺ .

ولبث معاوية يستميل الناس ويصطنعهم لنفسه ولاسرته بالسياسة واللين والكرم والعطاء تارة أخرى حتى استطاع أن يخمد دعوة الشيعة ويسكتها مؤقتا وحتى استطاع أن يرسى أسس الحكم والسيادة لبنى أمية على قواعد متينة بأن أخذ البيعة لابنه يزيد قبل موته وبهذا ابتنى للخلافة نظاما جديدا وقلبها من نظام شورى هو أقرب شئ إلى

النظام الجمهورى إلى نظام ملك وراثى. وكان إعلان تنازل الحسن بن على عن الخلافة لمعاوية اعلان بأنه خليفة المسلمين وصار هذا العام «عام الجماعة» حيث اجتمعت فيه كلمة المسلمين وبذاك بدأ عهد الخلافة الاموية فى الدولة الاسلامية .

ولقد كان نشاط الشيعة وثوراتهم خلال العهد الاموى ثورات متصلة متشابهة البواعث متشابهة الاهداف فبواعثها كراهية الامويين وأهدافهم اسقاط دولتهم بعد أن تنازل الحسن بن على لأنه كان قد عاصر المشكلات التى عاناها أبوه وعرف الحسن أن أباه لم يستطع أن يتغلب عليها وأن كان الامام على بما ملك من قدرات وصفات فلما تتوافر لغيره عجز عن حل هذه المشكلات فما أحرى بالحسن أن يطلب السلامة ايمانا منه بأن الاحداث كانت أقوى منه .

وكان معاوية قد دخل الكوفة بعد ذلك فى ربيع الثانى عام ٤١هـ. حيث التقى الحسن ومعاوية وبايع الناس معاوية وبايع معهم الحسن والحسين وعاد معاوية بعد ذلك إلى دمشق حيث اتخذها عاصمة للخلافة بعد أن كانت عاصمة امارته وعاد الحسن وأسرته إلى المدينة وبقى بها حتى توفى عام خمسين هجرية أو احدى ويقال إن زوجته قد وضعت له السم بايعاز من يزيد بن معاوية حتى يخلو له الجو بعد معاوية .

ولقد أراد معاوية أن يأخذ البيعة لابنه يزيد فبايعته الامصار ولم يبق أمامه الا الحجاز يقوده الحسين بن على وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر وعبد الرحمن بن أبى بكر وعبد الله بن العباسى .

بيعة يزيد بن معاوية بالخلافة ودور الشيعة

لقد ظل أهل الكوفة يعانون سخطهم للامويين لاغتصاب معاوية الخلافة لنفسه ومن ثم جاء بعده ابنه يزيد وقبل وفاة زياد بن أبيه عامل الخليفة معاوية بالعراق وقبضته الحديدية على مقاليد الامور لم تحل دون اعلان السخط ولكن اعلان رفض أبناء الصحابة لتعيين يزيد وهاجموا هذه الفكرة فاضطر معاوية أن يذهب بنفسه إلى المدينة وانتقل أبناء الصحابة الذين لم يبايعوا يزيد إلى مكة فلحق بهم معاوية ودعاهم لمبايعة ابن عمهم يزيد فنفروا وثاروا فتوعدهم معاوية. ولما مات معاوية تجددت البيعة ليزيد وامتنع عن البيعة الزعماء السابقون (الحسين بن على وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر وعبد الرحمن بن أبى بكر وعبد الله بن العباس) لكن فيما بعد بايع ابن عمر وابن عباس وابن أبى بكر وامتنع الحسن وعبد الله بن الزبير وظلا على عنادهما وبذلك تغير الموقف وبات الامر يتطلب ثورة عاجلة نتيجة التطورات التى صاحبت بيت على بن أبى طالب فى جهاده من أجل الخلافة واقرار نظامها المثالى وكان أهم معالم تلك التطورات اشتراك الحسين بن على ابن أبى طالب فى الثورة على مبدأ الوراثة بالبيعة ليزيد ونقم زعماء المدينة وصاح عبد الرحمن بن أبى بكر قائلا ما الخيار ماذا أردتم لأمة محمد ولكنكم تريدون أن تجعلوها هرقلية كلما مات هرقل قام هرقل ووافقه على ذلك غيره من زعماء المدينة، لان يزيد لم يكن كفئا لهذا المنصب الهام لخلافة المسلمين وأما الحسين بن على فانه من الأرومة الطيبة وأنه قريب النسب بالمصفى صلوات الله عليه وابن فاطمة الزهراء وأنه الوحيد الذى لم يبايع ليزيد فى حياة معاوية ولذا وجد الحسين نفسه فى حل من الخروج على يزيد بعد وفاة معاوية فلم يكد يزيد يلى الخلافة حتى تجددت الفتنة وثارت أهم المدن الاسلامية وخاصة الكوفة ومكة المكرمة .

ففى الكوفة ثار الشيعة وأرسلوا للحسين بن على يطلبونه اليهم ويحرضونه على المطالبة بالخلافة فهو أحق بها من يزيد بن معاوية بل أنهم ألحوا عليه فى ترك الحجاز والقدوم اليهم ومبايعته بالخلافة .

ولما علم يزيد بن معاوية بذلك وكان الحسين بالمدينة لم يبارحها. وكان أهم مايطالب به يزيد أن تتم مبايعة الحسين له. ولذا أرسل إلى والى المدينة يطلب منه أخذ البيعة من الحسين وصحبه .

وكان الوالى ابن عم يزيد وهو الوليد بن عتبة بن أبى سفيان فاستدعى الوليد الحسين وطلب منه البيعة لكن الحسين خرج إلى مكة ليلا ومعه نساؤه وأهل بيته. وفى مكة وصلت رسائل أهل الكوفة يعدونه بالبيعة وتلقى الحسين خطابات أخرى كثيرة من جماعات الكوفة .

الحسين بن على ومذبحة كربلاء وازدياد الدور الشيعى :

أرسل جماعات الكوفة إلى الحسين خطابات تقول له فيها إن معك مائة ألف رجل كاملى العدة والسلاح لذا فاستجاب الحسين لهم وأرسل ابن عمه مسلم بن عقيل بن أبى طالب إلى الكوفة للتحقق من الامر فالتف حوله الناس حين قدم اليهم وبايعوه للحسين واغتر مسلم بلقاء الشيعة الحماسى وبعث إلى الحسين يستعجل قدومه إلى الكوفة وأحست السلطات الاموية بما وقع فى الكوفة وأدرك يزيد بن معاوية أن الكوفة لابد أن تؤخذ بالشدة فبادر بعزل والى الكوفة وتعيين عبد الله بن زياد واليا عليها لقدرته على ضبط الامور على نحو ما سار عليه والده .

واستطاع الوالى الجديد تبديد شمل الشيعة وقتل زعماءهم ومن بينهم مسلم بن عقيل بن أبى طالب بعد أن انفض من حوله اثنى عشر ألف كانت قد بايعت للحسين

منذ أيام وكان مسلم قد قبض عليه وأرسل إلى عبد الله فى قصره وفى القصر قتل مسلم والقى جثمانه إلى الناس .

وفى تلك الاثناء كان الحسين يفكر فى اللحاق بابن عمه مسلم وكان قد غادر الحجاز فى طريقه إلى الكوفة دون أن يدرى بما حدث هناك. ولقد أهمل الحسين النصائح التى قدمت اليه لاسيما من عبد الله بن العباس الذى قال أن أهل العراق قوم غدر فلا تقربهم أقم بهذا البلد فأنت سيد أهل الحجاز واذا أردت الخروج فسر إلى اليمن فإن بها حصوناً وشعابا وهى أرض عريضة طويلة ولأبيك بها شيعة وأنت عن بنى أمية فى عزلة. ورغم ذلك قرر الحسين أن يذهب إلى الكوفة بل إن القرشيين والانصار لم يخرج واحد من المدينة فهم معه ولم يكن من شيعة الكوفة الا أفراد قلائل جدا .

وقد حذره العديد من الذين التقى بهم فى طريقه إلى الكوفة من الذهاب إلى تلك المدينة وعدم منازعة بنى أمية لانه لو طلب ما فى أيديهم لقتلوه وان قتلوه لا يهابون فى العرب أحدا بعده ولكن الحسين أبى أن يسمع ومضى إلى سبيله .

وقد لقى الحسين مصرعه على يد قوات الامويين عند كربلاء بالقرب من الكوفة فى ١٠ محرم ١٦١هـ ١٠ أكتوبر ٦٨٠م وذلك بعد أن سدت عليه قوات الامويين الطريق ودارت معركة غير متكافئة سقط الحسين فيها قتيلا وصارت هذه الحادثة تمثل نقطة تحول مهمة فى ظهور فرقة الشيعة وغذت هذه الحادثة بذور التشيع لآل على بن أبى طالب وتكون فرق الشيعة نفسها التى عملت على تنظيم قوتها المادية والمعنوية لمحاربة نظام الخلافة الوراثى للأمويين والعمل على مناهضة هذا النظام .

وكان لموقعة كربلاء أثر خطير جدا فى تطور الحوادث بعد ذلك فقد أصبح الحسين أبا للشهداء وأصبحت كربلاء رمزا للاستشهاد وهب الشيعة فى كل مكان يطالبون بثأر الحسين ولهذا نرى أن النزاع بين الامويين والعلويين قد اشتد واحتدم بعد

مقتل الحسين .

وظل الشيعة طوال العصر الاموى يطالبون بأحقية أولاد على فى الخلافة .

المذهب الشيعى بعد كربلاء

لم ينج من هذه الفاجعة الأليمة فى تاريخ الاسلام والتى أطلق عليها المؤرخون مذبحة كربلاء التى أشعلت حمية الثورة وزادت فى حماس الفرس والتى أشاعت الذعر فى البلاد الاسلامية. الا خمسة أفراد من البيت العلوى هم زين العابدين وكان مريضا ولم يحضر المعركة وأخوه الاصغر عمر وعمتهما زينب بنت على بن أبى طالب وفاطمة وسكينة بنتا الحسين وحمل هؤلاء مع رأس الحسين إلى الطاغية ابن زياد فأرسل الجميع إلى يزيد وتروى كتب التاريخ أن يزيد بن معاوية بكى وبكت معه نساء بنى أمية وأكرم يزيد مثوى هؤلاء وجزاهم عما سلب منهم وردهم إلى المدينة .

ومهما يكن من أمر هذه المذبحة البشعة فقد كانت فتنة فتحت الباب واسعا للفرقة التى لازالت سائدة حتى اليوم فى العالم الاسلامى والتى أدت إلى التهام الآلاف من المسلمين فى صراعات مذهبية. وقد أخذ مدعو التشيع هذه الحادثة ليصنعوا حولها ألوانا من الخرافات .

وكان من أثر هذه المذبحة ظهور فرقة التوابون الشيعية فى الكوفة والذين اعترفوا بأنهم دعوا الحسين إلى بلادهم ثم انفضوا عنه ثم قتلوه وأرادوا أن يكفروا عن ذنبهم وأن يزيلوا خطيئتهم وكان سبيلهم إلى ذلك التوبة والثأر للحسين وبذلك سموا التوابين وذلك لادعائهم التوبة .

بل أن الفكرة تطورت فقال شيعة على أن الامامة ليست من المصالح العامة التى تفوض إلى نظر الامة بل هى ركن الدين ولا يجوز لنبى اغفالها ولا تفويضها إلى الامة

بل يجب عليه تعيين الامام لهم وان عليا رضى الله عنه هو الذى عينه صلوات الله وسلامه عليه بنصوص. ومن هنا نشأت فكرة الوصية ولقب على بالوصى وأن النبى أوصى لعلى فكان على ليس اماما بالانتخاب بل بطريق النص من رسول الله وعلى أوصى لمن بعده وهكذا كل امام وصى من قبله وانتشرت كلمة الوصى بين الشيعة واستعملوها .

وأضاف الشيعة قولهم بعصمة الأئمة بدءا من على ومن يأتى بعده لايصدر عنهم خطأ. ويؤكدون ذلك بأن رسول الله ﷺ قال لعلى «حربك حربى وسلمك سلمى» وانه قال اللهم وآل من والاه وعاد من عاداه وقال له لا يحبك الا مؤمن ولاينغصك الا منافق .

بل إن بعض الشيعة قالوا بأفضلية على وعصمته وأحقيته من أبى بكر وعمر وعثمان ومن شايعهم أخطأوا اذا رضوا أن يكونوا خلفاء مع علمهم بفضل على وانه خير منهم وانهم جحدوا وصية رسول الله ومنعوا الخلافة مستحقها وتزعم الشيعة أن رسول الله ﷺ كان يعلم موته وانه سير أبا بكر وعمر فى حملة أسامة بن زيد لتخل المدينة منهما ويصفوا الامر لعلى عليه السلام ويبايعه من تخلف فى المدينة من المسلمين وتثاقل جيش أسامه مع شدة رسول الله ﷺ فى حثه على السير .

وأساس نظرية الشيعة فى الحكم هى الامامة فعلى هو الامام بعد محمد ﷺ ثم بتسلسل الائمة بترتيب من عند الله والاعتراف بالإمام والطاعة له جزء من الايمان والامام الاول قد ورث علوم النبى ﷺ وهو ليس شخصا عاديا بل هو فوق الناس لانه معصوم من الخطأ .

أما النتائج العقائدية لمقتل الحسين بن على فى كربلاء فانها تتمثل فى تبلور حزب الشيعة عن عقيدة تقرر أحقية الخلافة فى الائمة من آل البيت فى على بن أبى

طالب وأولاده من بعده دون غيرهم من سائر قريش والناس جميعا على أن هذا الحزب صادف فى البداية الانقسام المتوالى لمن تكون الامامة من العلويين .

يقول الشيعة فى الخلافة (الامامة) بعد على باختلاف آرائهم فمنهم من جعلها فى ولد فاطمة بالنص عليهم واحدا بعد واحد على ما يذكر وهؤلاء يسمون الامامية نسبة إلى قولهم باشتراط معرفة الامام وتعيينه فى الايمان وهى أصل عندهم ومنهم من جعلها فى ولد فاطمة لكن بالاختيار مع الشيوخ ويشترط أن يكون الامام عندهم عالما زاهدا جوادا شجاعا ويخرج داعيا إلى امامته وهؤلاء الزيدية نسبة إلى صاحب المذهب وهو زيد بن على بن الحسين وابنه يحيى بن زيد وقد قتل زيد فى الكوفة عام ١٢٢هـ وقتل ابنه يحيى فى خراسان عام ١٢٥هـ .

والزيدية ينتسبون إلى زيد بن على بن زين العابدين بن الحسين ابن على بن أبى طالب رضى الله عنهم وكان زيد يضع شروطا للامامة هى أن يكون الامام فاطميا عالما زاهدا شجاعا شيخا وأن يخرج مطالبا للامامة فإن لم يخرج مطالبا للامامة فليس اماما وجاز تعيين غيره وقد أجاز المذهب الزيدى الذى ينتشر حاليا فى اليمن خلافة أبى بكر وعمر مع وجود على لأن عليا لم يخرج مدافعا عن حقه. وقد تتلمذ زيد على واصل بن عطاء فأخذ عنه الكثير من مبادئ المعتزلة .

وبدأ زيد يجمع حوله الانصار ويبث الدعاة واخطأ زيد كما أخطأ أجداده من قبل فاتخذ أهل الكوفة أنصارا له وأعلن الثورة لكن بعد فترة انفض من حوله أهل الكوفة وقتل زيد فى معركة ضد يوسف بن عمر والى هشام بن عبد الملك على العراق عام ١٢٢هـ. وهرب يحيى بن زيد بعد هذه المعركة واتجه إلى خراسان وأعلن الثورة ولكنه قتل وحرق عام ١٢٥هـ فى خلافة الوليد بن زيد .

والزيدية أقرب المذاهب إلى أهل السنة وأقربهم إلى الشيعة الحقيقيين لانهم لم

يطعنوا فى خلافة أبى بكر وعمر وأجازوا أن تكون الامامة فى غير أولاد على من فاطمة، إذ لم يقم هؤلاء بطلبها وانهم اشترطوا فى الامامة شروطا يوافقهم أهل السنة عليها. وكان من نتيجة هذا الموقف أن حقق فريقهم العديد من المكاسب على الساحة الاسلامية لان مذهبهم سلم من الغلو ولا يزال هذا المذهب له أتباع كثيرون حتى الآن فى اليمن .

ولقد كان من أولى ثمرات المذهب الشيعى الزيدى أن فرار يحيى بن زيد إلى اليمن قد حقق أهدافه وأن الثورات الزيدية لم تنتهى بل كان لانتقال ميدان الثورات الشيعية من الكوفة إلى خراسان أثر كبير اذ لم تهدأ خراسان وظلت تكافح الأمويين حتى أسقطتهم بقيام الدولة العباسية .

ونظرة الزيدية إلى الامامة نظرة عدل فليست هناك امامة بالنص ولم ينزل نص يعين الائمة بل كل فاطمى عالم قادر على القتال فى سبيل الحق وزاهد وشجاع يخرج للمطالبة بالامامة يصح أن يكون اماما ولهذا كانت الامامة عملية لا سلبية وهم لا يؤمنون بالخرافات التى ألصقت بالامام فجعلت له جزءا الهيا .

وصار الامام عند الشيعة يختلف عن الخليفة ويتفوق عليه أيضا فأوضح فقهاء الشيعة أن الشريعة التى جاء بها النبى ﷺ لابد من وصولها إلى الناس صحيحة بعد انتهاء عهده حتى يتم محاسبة الناس عليها وهذا يتطلب فى القائم على الشريعة وأئمتهم أن يكونوا معصومين كالانبياء فى كل حياتهم ولا تصدر عنهم معصية والامامة ليست كالخلافة واجبة على الامة ولكنها واجبة على الله .

وكان من أثر ذلك أن الفكر الشيعى ولد أكثره فى العصر الاموى وأن الحركات التى قام بها الشيعة للاستيلاء على الحكم فى العهد الاموى كانت أقوى وكانت الشيعة وأكثرها وتلك التى قامت باسم الشيعة لاقامة دولة علوية ولكن نتيجة الكفاح

نالها العباسيون لا العلويون .

ولما لم يكن بحثنا هذا عن دراسة المذهب الشيعى ونظرته إلى المسائل الدينية والفكر الشيعى والآراء التى يقولها الشيعة والفرق الشيعية حيث إن ذلك يخرجنا عن نطاق بحثنا التاريخى، لكن الامر يقتضى أن نعطى القارئ فكرة عميقة عن التشيع ومذاهبه والفرق التى عاشت حتى اليوم دون الدخول فى تفاصيل الفرق الأخرى التى لعبت أدواراً مختلفة على الساحة الاسلامية فى العصرين الاموى والعباسى ولكنها انقرضت فى الوقت الحاضر .

وسوف نتحدث عن الفرق التى لازالت تعيش حتى وقتنا الحاضر والتى كانت الدولة الفاطمية التى قامت فى المغرب العربى ثم انتقل إلى مصر أثر من آثار نشاط بعض هذه الفرق وهى الفرقة الاسماعيلية .

والفرق الشيعية التى استطاعت أن تعيش حتى زماننا هى الزيدية (اليمن) والاثنا عشرية (ايران) والاسماعيلية (الهند) وقد تطورت معتقدات هذه الفرق بسبب تأثرها بمدعى التشيع فالزيدية أقلها تأثرا والاثنا عشرية هى بعدها فى التأثر أما الاسماعيلية فأكثرها تأثرا والاثنا عشرية والاسماعيلية فرعان لفرقة الامامة. ومع اختلاف فرق الشيعة فى المعتقدات فانهم جميعا يتفقون فى أفضلية على على جميع الخلق ولايوافق الزيدية على هذا المعتقد .

والزيدية والاثنا عشرية والاسماعيلية ينكرون امامة محمد بن الحنفية لأن محمداً ليس من أبناء فاطمة إنما أمه امرأة من بنى حنيفة والزيدية ينكرونه فقط لانه لم يخرج على خلفاء العصر مطالبا بامامته .

الاثنا عشرية :

الاثنا عشرية أشهر فرق الامامية وتنتشر فى ايران ولها بعض الشيعة فى العراق والاثنا عشرية أقوى فرق الشيعة وهذه الفرقة تكونت بعد منتصف القرن الثالث الهجرى أى بعد أن أصبح الائمة اثنى عشر. وكان الامامية قد ساقوا الامامة من على إلى ابنه الحسن ثم إلى أخيه الحسين ثم إلى ابنه على زين العابدين ثم إلى ابنه محمد البافر ثم إلى ابنه جعفر الصادق وثم بعد ذلك افترقوا فرقتين فرقة ساقوها إلى ولده اسماعيل ويعرفونه بهم بالامام وهم الاسماعيلية (سوف نتحدث عنهم عند الحديث عن قيام الدولة الفاطمية بالمغرب) وفرقة ساقوها إلى ابنه موسى الكاظم وهم الاثنى عشرية لوقوفهم عند الثانى عشر من الائمة وقولهم بغيبته إلى آخر الزمان والاثنا عشرية هؤلاء خصوا باسم الامامية عند المتأخرين (القرن الثالث الهجرى) فقالوا بإمامة موسى الكاظم بن جعفر الصادق لوفاة أخيه الأكبر اسماعيل الامام فى حياة ابيهما جعفر فنص على امامة موسى هذا ثم ابنه على الرضا الذى عهد اليه المأمون بالخلافة ومات قبله فلم يترك له الأمر ثم ابنه محمد النفس الذكية ثم ابنه على الهادى ثم ابنه محمد الحسن العسكرى ثم ابنه محمد المهدى المنتظر عام ٢٦٠هـ .

والامامية أطول فرق الشيعة عمرا وأكثرها قوة وأكثرها اتباعا.والامامية تقول بعودة امام منتظر باختلاف طوائفهم فيمن هو الامام المنتظر ففرقة ينتظرون جعفر الصادق وأخرى تنتظر محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسين بن على بن أبى طالب وثالثة تنتظر محمد بن الحنفية وتزعم انه حى لم يمت والشيعة فشلوا أول الامر فى تكوين امامة (خلافة) ظاهرة على وجه الارض وعذبوا وشردوا فخلقوا لهم أملا فى الامام المنتظر أو المهدى المنتظر وجميع الشيعة متفقون على أن خلفاء بنى أمية مغتصبون ظالمون لانهم اضطهدوهم اضطهادا فاحشا فدسوا للحسن حتى طعن بخنجر فى جنبه

ولكنه لم يمت فدسوا السم له بعد أن أوقعوا الفشل فى جيشه حتى وادعهم ثم قتلوا الحسين فى كربلاء. ثم تتبعوا أهل البيت يستذلونهم ويمتهنونهم ويقتلونهم ويقطعون أيديهم وأرجلهم وكل من عرف بالتشيع لهم سجنوه أو نهبوا ماله أو هدموا داره واشتد بهم الامر فى أيام عبد الله بن زياد قاتل الحسن، وأتى بعده الحجاج فقتلهم كل قتلة. وأخافهم وقطع الايدى والارجل وسمل العيون وصلبهم على جذوع النخل وطردهم وشردهم عن الكوفة وكل العراق وكتب معاوية بن أبى سفيان إلى عماله فى كل البلاد ألا يجيزوا لأحد من شيعة على وأهل بيته شهادة حتى أن الرجل يقال له زنديق أو كافر أحب اليه من يقال له شيعة على .

لكن الذى أطال عمر الاثنى عشرية هو ميلها إلى السلم لذا كثر اتصالها بطوائف مدعى التشيع وكانوا أكثر تأثرا من الزيدية وأقل من الاسماعيلية ذلك لان موضوع الامامة والعصمة والتقية والرجعة والمهدية كلها موضوعات غريبة عن الفكر الاسلامى قال بها الاثنى عشرية .

ورغم ما لاقاه الشيعة من عسف الأمويين فقد ظلوا يتحينون الفرص للثورة فلما اضطربت شئون الخلافة فى الشام فى عهد ابراهيم بن الوليد وضعفت بالتالى سلطة عبد الله بن عمر بن عبد العزيز والى الكوفة استغل الشيعة فى تلك المدينة الفرصة وأغروا عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر ابن على بن أبى طالب بالدعوة لنفسه وبايعه الناس ثم خرجوا معه لقتال جند الشام فى المحرم ١٢٧هـ، غير انهم فروا أثناء القتال ولم يثبت للحرب سوى ربيعة والزبيدية الذين ظلوا يقاتلون حتى أخذوا لانفسهم ولعبد الله بن معاوية الامان على أن يرحلوا حيث شاءوا فنزل المدائن ولحق به كثير من أهل الكوفة فغلب على نواحى أصبهان ثم ارتحلوا منها عام ٢٢٨هـ إلى اصطخر فى فارس. واستطاع أن يبسط سلطانه على منطقة كبيرة ضمت بلاد الجبل والاهواز وفارس

وكرمان. غير أن والى العراق سير اليه القوات فحلت به الهزيمة ومضى ابن معاوية إلى خراسان طمعا فى انحياز أبى مسلم الخراسانى اليه لكن أبا مسلم أعرض عنه ثم قتل وهكذا فشلت آخر ثورة قام بها الشيعة عام ١٣٠هـ فى عهد الامويين .

وهكذا أوقع بنو أمية نكالا شديدا فى العلويين من بنى هاشم فأعطوا صورة مؤلمة للصراع القبلى وكلاهما فخد فى بطن واحد (عبد مناف) وكانت الامامة أو الخلافة محور الخلاف والعداء بينهما .

وقد اصطبغ التشيع بصبغة عقائدية وإن تفرقت الشيعة فرقا مختلف أسسها العرب وغذاها الموالى وجميعها تعادى الامويين وتعتبرهم مغتصبين للخلافة ويزيدهم حنقا وألما شتم على بن أبى طالب ولعنه على المنابر طوال العصر الأموى ما عدا عهد عمر بن عبد العزيز، ولم يكن شعار الرضا من آل محمد الا مناورة ذكية فى الدعوى العباسية تختص بها ذلك الشعور المعادى لدى الموالى وبخاصة للقضاء على السيادة العربية .

الشيعة والخلافة العباسية

كان من أثر الاضطهادات التى تعرض لها الشيعة من البيت الاموى بعد أن كانوا يحاربون جهرا اذا أمكن فإن لم يكن فسرا وقال أكثرهم بالتقية وهى المداراة (السر) كان يحافظ الشخص على نفسه أو عرضه أو ماله بالتظاهر بعقيدة أو عمل لايعتقد بصحته وكذلك أحكام السرية ونظامها وكان الشيعة أقدر الفرق الاسلامية على العمل فى الخفاء وكتمان عملهم حتى يتمكنوا من عدوهم وهذه السرية استدعت الخداع والالتجاء إلى الرموز والتأويل ونحو ذلك وكان من أثر ذلك الاضطهاد تذكرهم للمصائب والآلام. وأكثر الشيعة يقولون بالتقية وحملوا بيعة على لابى بكر وعمر وعثمان على التقية وكانوا كثيرا من الشيعة يكتمون تشيعهم تقية ويعملون سرا .

واستغل العباسيون فرصة آلت اليهم ذلك لأنه بعد موت محمد ابن الحنفية عام ٨١هـ انتقل الامر بعده إلى ابنه هشام الذى عندما أحس بالموت وهو فى طريقه من دمشق إلى المدينة عرج على الحمية على بنى عمه من آل العباس حيث اقطاعهم من بنى أمية يستريح من وعكة ألمت به فيشتد علته ويحس بقرب منيته فيذيع فى أتباعه أنه أقام آل العباس أوصياء على دعوته. حيث كان قد أقام لدى على بن عبد الله بن العباس فأعلمه انه ميت وأوصى اليه وكان فى صحبته جماعة من الشيعة فسلمهم اليه وأوصاه فيهم ثم مات وبهذا يعتقد العباسيون انهم ورثوا على بن أبى طالب بالاضافة إلى حقهم بوصفهم ورثة العباس بن عبد المطلب عم النبى ﷺ .

واستغل العباسيون ضعف الشيعة العلوية وانقسامهم ومكروا بهم فجعلوا الدعوة عامة شاملة للرضا من آل محمد يريدون بذلك أن يضمنوا ولاء الشيعة العلوية من ناحية وأن يخفوا اسم صاحب دعوتهم حتى لايتبعهم الأمويون باضطهادهم وعذابهم .

وينتقل ولاء فرع هشام بن محمد الحنفية من الشيعة إلى آل العباس الذين عملوا بحكمة ودهاء على جمع العلويين والهاشميين والساخطين على الدولة الاموية من غير العلوين والهاشميين فى حركة واحدة يستردون بها السيطرة من الأمويين وكانت دعوة «للرضا من آل محمد» هى هدف جمع أنصارهم على اختلاف نزعاتهم وأجاد العباسيون وضع شعار واحد يمكن أن يعمل من ورائه جميع أصحاب المصالح المعادية للامويين ويحول فى نفس الوقت دون وقوع أية ثغرة فى صفوف القوى العاملة تحت لوائهم أو افساد خطتهم اذ كلفوا دعاتهم فى المرحلة الاولى من دعوتهم السرية رفع شعار العمل على اعادة الدين الحق، بعد أن انتقلت قيادة العمل السرى من محمد بن الحنفية العلوى إلى محمد بن عبد الله العباسى .

ولم يكن الدعاة يعرفون شخصية الامام الذى كانوا يدعون له وانما كانوا يدعون

للرضا من آل محمد وهى دعوة غامضة يظنها العلويون وأنصارهم انها من أجلهم ويعتقد الخراسانيون انها تعنى صاحب الحق الالهى .

ولقد كان ما أصاب العلويين أيام الامويين من الدوافع التى برر بها العباسيون خروجهم على الامويين .

لكن العلويين لم يكونوا مطمئنين إلى الدعوة «للرضا من آل محمد» كما كان كثيرا من أنصار الدعوة السرية يوافقون العلويين، بل إن «أبا مسلمة الخلال» وزير آل محمد كتب إلى ثلاثة من زعماء البيت العلوى هم جعفر الصادق، وعبد الله المحض وعمر بن زين العابدين. يدعوهم فيها واحداً بعد الآخر إلى قبول منصب الخلافة العلوية، ولكنه لم ينجح فى ذلك ولقد خدع العباسيون أنصار العلويين فى خراسان والعراق بهذا الشعار الغامض وأعلنت الخلافة العباسية ومن ثم ظهرت الدعوة العباسية وتم الخروج على الأمويين ودالت الدولة للهاشميين فأخذها منهم أبناء العباس وكانوا فى أول الأمر يدا واحدة مع أبناء عمهم العلوية وأن الدعوة العباسية هى التشيع بل هما شعبتان من أصل واحد. ولما وقع الانقسام بين العلويين والعباسيين وخرج محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب وهو الملقب بالنفس الذكية وبالمهدى على أبى جعفر المنصور أخى السفاح تبعه أهل المدينة وقاتلوا من دونه حتى قتل، ثم خرج أخوه ابراهيم فى البصرة طالبا البيعة له قبل أن يبلغه خبر قتل أخيه وأجاب دعوته خلق كثير وانهزم من أمامه سفيان بن معاوية أمير البصرة واستولى على الاهواز وواسط وسار إلى الكوفة وكاد يتم له الفوز لولا أنه قتل عام ١٤٥هـ .

ثم خرج الحسين بن على بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب وذلك فى خلافة الهادى بن المهدى العباس وكان ظهوره فى المدينة والتف عليه جماعة من آل البيت ومن أهل المدينة وبايعوه وخرج إلى مكة فالتقى بجماعة من بنى العباس

ومعهم من حج من رجالهم وقوادهم واقتتلوا ووقعت الهزيمة على الحسين وقتل وانهزم أصحابه وأفلت منهم ادريس بن عبد الله ابن الحسن بن على بن أبى طالب وأتى مصر واضح فأرسله واضح عامل البريد وكان شيعيا على البريد المغربى وبلغ ذلك الهادى فضرب عنق واضح وأسس دولة الادارسة بالمغرب (راجع الجزء الثانى من تلك الدراسة دولة الادارسة) .

وفى عام ٢٥٠هـ ظهر يحيى بن عمر بن يحيى بن حسين بن زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب بالكوفة واستولى عليها لكن جيوش العباسيين ظفرت به وقتل وحمل رأسه إلى الخليفة المستعين وفى نفس العام ٢٥٠هـ ظهر فى طبرستان الحسن بن زيد بن محمد بن اسماعيل بن زيد بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب الذى قام بطبرستان وكثر أنصاره واستولى على طبرستان وجرجان وسمى الداعى إلى الحق وظلت له السيطرة حتى قتل عام ٢٨٧هـ وقام بعده الناصر الحسن بن على المعروف بالاطروش وتوفى عام ٣٠٤هـ وقام بعده الحسين بن القاسم العلوى ويلقب بالداعى وقتل عام ٣١٦هـ وانفرض بموته ملك العلويين فى أواسط آسيا .

وامتنع محمد بن عبد الله النفس الذكية من بنى الحسن بن على بن أبى طالب عن بيعة العباس السفاح وأبى جعفر المنصور بعد أن كان قد اتخذ له ملجأ اختفى فيه عنهما لكن المنصور وجه اليه جيشا بقيادة ابن عمه (عيسى بن موسى) التقى بجيوش محمد النفس الذكية قريبا من المدينة وسقط الشريف العلوى فى ميدان المعركة بعد أن تركه أنصاره وكان مصرعه شبيهاً بمصرع الامام الحسين فى كربلاء .

لكن ابراهيم بن عبد الله بن الحسن بن على بن أبى طالب خرج بالبصرة نصيرا لأخيه محمد النفس الذكية وتقوية لحركته فى الحجاز لكن قتل بيد نفس القائد التى قتل أخاه .

وفى الحجاز موطن العلويون.. قامت ثورة أخرى عام ١٦٩هـ تشبه ثورة محمد بن عبد الله النفس الذكية وأخيه ابراهيم وان كانت أقل منها خطرا على العباسيين الذين تدعم سلطانهم بعد أن ركن العلويين إلى الهدوء لكن حدثت فتنة بالمدينة أدت إلى خروج الحسين بن على على الخليفة الهادى وإلى بيعة جمع من أهل المدينة له بالخلافة وقد انضم إلى هذه المعركة بعض الكوفيين الذين كانوا بالمدينة ثم خرج الجميع فى اتجاه مكة فقطع عليهم جيش العباسيين الطريق ودارت معركة بين الطرفين عند وادى فخ الذى يبعد عن مكة بحوالى ستة أميال انهزم فيها العلويون وكثر فيها ضحاياهم وبينهم الحسين بن على هذا غير الحسين بن على بن أبى طالب فى معركة كربلاء وقد بلغ من شدة النكيل بالعلويين أن قرنها المؤرخون بمذبحة كربلاء فقال بعضهم لم تكن مصيبة بعد كربلاء أشد وأفجع من فخ. ولقد نجا من مذبحة فخ اخوان علويان هما يحيى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على فذهب إلى بلاد الديلم وجمع حوله الانصار ثم أعلن الثورة أيام «هارون الرشيد» الذى أرسل اليه جيشا بقيادة الفضل ابن يحيى البرمكى فى خمسين ألف انتهت الثورة وأعطى الامان ليحيى .

أما ادريس فقد فر إلى المغرب (انظر الموسوعة هذه: الجزء الثانى. دولة الادارسة) وقد أولى العباسيون الاوائل أبناء عمومتهم من العلويين الحرب والتنكيل كما كان هؤلاء ساخطين على أبناء عمومتهم ما وجدوا إلى ذلك سبيلا .

وقد اتبع بعض العباسيين سياسة المسالمة مع العلويين بعد أن قل نشاطهم وخطرهم. وكان المهدى شديد التسامح معهم فأطلق سراح المسجونين منهم. والمأمون أحسن علاقته بالعلويين وعوضهم عما أصابهم من ضرر فى العهود العباسية السابقة وقد بايع المأمون على الرضا بولاية العهد وزوجه ابنته، بل إنه ضرب الدراهم باسم على الرضا وأمر بذكر اسمه على المنابر ولبس الخضرة (الرداء الأخضر) شعار العلويين وخلع

السواد شعار العباسيين .

بل أكثر من ذلك فإن المأمون أوصى أخاه المعتصم بهم فقال له «هؤلاء بنو عمك أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه، فأحسن صحبتهم وتجاوز عن مسيئهم وأقبل من محسنهم وصلاتهم فلا تعقلهما فى كل سنة عند محلها فان حقوقهم تجب فى وجوه شتى» .

ورغم هذه الاعمال الطيبة الا أن طابع العصر العباسى كان استخدام العنف أضعاف ما كان يعنف بهم الأمويين فاضطهدوهم وطاردوهم وقاتلوهم فى كل مكان خرجوا فيه وفعلوا بهم أكثر مما فعل عبد الله بن زياد، زياد ابن أبيه، والحجاج بن يوسف الثقفى ولهذا تحولت الدعوة الشيعية عن العلن إلى السر تقية وصيانة لاشخاص الائمة أصحاب الدعوة .

الباب الثانى

الفرقة الاسماعيلية والدعوة فى المغرب

سبق القول أن الشيعية تفرقت إلى عدة فرق منها فرقة تنسب إلى جعفر الصادق ثم انقسمت إلى فرقتين إحداهما إلى ابنه اسماعيل ويعرفون بالاسماعيلية ويقول إلى أن الامامة انتقلت من اسماعيل إلى ابنه محمد المكتوم وهو أول الأئمة المستورين المتخفيين لان الامام عنده قد لا تكون له شوكة فيستتر ويكون دعائه ظاهرين على اقامة حجة على الخلق واذا كانت له شوكة ظهروا وأظهروا دعوته وانهم قالوا بعد محمد المكتوم جاء ابنه الصغير الصادق وبعده جاء ابنه محمد الحبيب وهو آخر المستورين .

وقد اقتضت الدعوة للامام المختفى أو المستور كما سماه الشيعة وضع مبدأ «التقية» التى صارت جزءا مكملا لتعاليم الشيعة وركنا هاما من مذهبهم وصارت هذه العقيدة هى النظام السرى عند الشيعة اذا ما أرادوا الاعداد لثورة على السلطات القائمة فكان دعاة الشيعة يكلفون عند الدعوة إلى الامام المستور بأن يطلبوا إلى أنصارهم الكتمان والتظاهر بالطاعة والولاء حتى اذا تمت الخطط المرسومة أعلنوا جهر الثورة ثم الطاعة للامام المستور .

وكان العمل السرى أشد حيطة أيام العباسيين الذين كانوا أبلغ فى التنكيل بالعلويين لانهم أعرف بخفاياهم لما كانوا يعملون معهم فى عهد بنى أمية .

والاسماعيلية سميت بهذا الاسم لانهم يقفون بأئمتهم عند اسماعيل ابن جعفر الصادق وهؤلاء لعبوا دورا طويلا فى تاريخ الاسلام وأخذوا مذهب الافلاطونية وطبقوه على مذهبهم الشيعى تطبيقا غريبا واستخدموا ما نقله اخوان الصفا فى رسائلهم من هذا

المذهب الافلاطونى ويقول بعض المؤرخين انهم وضعوا لهم تعاليم درجوها تسع درجات تبتدى بإثارة الشكوك فى الاسلام وقد سموا الباطنية وكان من آثار دعايتهم اقامة الدولة الفاطمية في المغرب (والتى نحن بصدد دراستها فى هذا الجزء من موسوعة المغرب) ومصر ولا يزال لهم بقايا فى الشام وايران والهند» ورئيسهم الان «حفيد أغاخان» الزعيم الدينى المشهور وهو شاب أمريكى وهو سر أبيه وجده وهم يتعارضون مع الاثنى عشرية فى أن الامامة انتقلت إلى ابنه اسماعيل لا إلى ابنه موسى الكاظم ويسمون بالائمة المستورين بعد اسماعيل والاسماعيلية أكثر من الزيدية والاثنى عشرية تأثرا بضلالات مدعى التشيع وكان مذهبهم مشوبا بكثير من الضلالات وأشهر ألقابهم الباطنية وقد لزمهم هذا اللقب لقولهم بأن لكل ظاهر باطناً ويسمون بالعراق الباطنية والقرامطة والمزدكية وفى خراسان يسمون التعلية والمتحدة ويقولون نحن اسماعيلية وقد انفصلوا عن الاثنى عشرية بعد جعفر الصادق .

وقد خلطوا كلامهم ببعض كلام الفلاسفة وصنفوا كتبهم على هذا المنهاج وكانت لهم تعاليم ذات درجات متفاوتة تبدأ بالتشكيك وتنتهى بالكفر والتقرب إلى الله بقتل المسلمين ومن الواضح أن فرقة تسير على هذا المنهاج ليست من الاسلام فى شئ ولا تنبع مبادئها من روح الاسلام وليس لها من التشيع الا الاسم الذى ادعاه ليتستروا به هذه الضلالات .

وكان الاسماعيلية أنشط من غيرهم فقد بثوا الدعاة فى أنحاء الدولة الاسلامية المختلفة وفى الانحاء القاصية بوجه خاص مثل اليمن وبلاد المغرب .

ولقد لقيت حكاية استتار الامام اقبالا من نفر غفير من أبناء الامة لان الانسان اذا يئس من الواقع لجأ إلى الأمل وكان العلويون أملا ضخما تعلقت به قلوب الملايين نتيجة لعجز الدولة العباسية عن اقامة الحكم الصالح الذى بشر به الاسلام وفى خدمة

الامام المستتر قام الدعاة يبثون الدعوة فى الناس منتهزين فرصة اليأس الشامل الذى أثقل على القلوب والدعاة وهم جماعة من أهل الايمان بامامة على بن أبى طالب وأبنائه. وكانت هذه الفرقة تعمل جاهدة بشتى الوسائل لتحقيق أهدافها وأن تنظم حركتها السرية من أجل تحقيق أهدافها فى السيادة على العالم الاسلامى وقد استقل دعاة الشيعة رغبة المسلمين فى تحقيق العدالة والامن وتنفيذ تعاليم الاسلام الصحيح ووجدوا فى ذلك فرصة لبث دعوتهم واجتذاب الانصار والدعاة ودخلت فيهم جماعات من الفرس وغيرهم وقد تحرك الدعاة فى دعوتهم بين المسلمين من منطلق ايمانهم المطلق بأنهم يدعون إلى زعيم الشيعة المستور أو المختفى وان الامام مختفى فى مكان لايعرفه الا رئيسهم أو كبير الدعاة وسموه الوصى أو وصى الامام وهو مدير الدعوة ومنظمها وتحت يده داعى الدعاة ثم الدعاة وهم مراتب وأخذت الدعوة أسلوباً سرياً لتحقيق هدفها الاكبر وهو نقل الخلافة من بنى العباس الذين سلبوها من آل على أصحاب الحق الشرعى فى الخلافة دون سائر القرشيين .

وقالوا إن الامام كان أول الامر مستتراً فى فارس ثم انتقل سرا واتخذ مقرا جديدا له فى مدينة سلمية قرب حماة ببلاد الشام لنشر دعوتهم وهى عندهم مركز الدعوة والامام فيها حصين آمن له حرس وعيون وأرصاد فى قصر الخليفة العباسى وبيوت رجال الدولة وكل هؤلاء من شيعة آل البيت العلوى وهم يجمعون باسمه مالا كثيرا من الناس لان كل من يؤمن بالمذهب الشيعى الاسماعيلى ويعمل الدعوة له لاقامة دولة علوية على أنقاض الدولة العباسية فانه أصبح ملزما عليه بأن يؤدى الزكاة للامام مهما قل مبلغها فقد يتحصل منه فى أيدى الدعاة من صغيرهم إلى الوصى مال كبير ليصل فى نهاية الامر بعضا منه إلى الامام المستتر فى مدينة سلمة فيستعين به على تأمين نفسه من غدر الدولة العباسية ورجالها قيل إن الامام عبد الله المهدى الذى سيكون أول

الخلفاء الفاطميين فى المغرب كان يمتلك أموالا طائلة جعلها فى قصره فى سراديب تحت الارض .

ولقد كانت قلوب الناس ومحبتهم لآل البيت العلوى وعاطفتهم القوية لتأييد أقارب الرسول ﷺ وحبهم والولاء لهم من الاسباب القوية التى دفعت الناس للانجذاب للدعاة السريين الذين يدعون للامام المستتر لما تعرض له أبناء العلويين من اضطهاد على أيدى العباسيين لا سيما ما تذكره كتب التاريخ عن عامل الخليفة الهادى العباسى على المدينة (عمر بن عبد العزيز بن عبد الله ليس الخليفة الأموى) انه اتهم بعض العلويين ظلما بشرب الخمر ومنهم الحسن بن محمد النفس الذكية وأخذهم وأقام عليهم الحد ثم زاد فى تعذيبهم بأن جعل الحبال فى أعناقهم وطاف رجاله بهم فى المدينة فذهب اليه الحسين بن على بن الحسن محتجا على معاملة أهل رسول الله ﷺ بهذه الصورة البشعة فحبسهم يوما وليلة ثم أطلقهم على أن يظلوا تحت المراقبة وهكذا كانت الدولة العباسية تكيد لآل البيت العلوى وتحاول تشويه صورتهم أمام المسلمين لكى تبعد الانظار عنهم وتنظر اليهم نظرة لا تدعو للتقارب معهم ولكن للتنافر منهم ولكن الدعاة استطاعوا أن يذكروا الناس بما تحمله آل البيت من ظلم واضطهاد منذ مقتل الامام على بن أبى طالب حتى الوقت الحاضر الذى يدعون فيه لاقامة دولة علوية .

ولهذا كان الناس يتسترون على الدعاة من الشيعة وأنصارهم ومن لم يردعه تقواه عن افشاء سر العلويين فان الدعاة كانوا يلجأون إلى المال كأسلوب لابعاد العيون عنهم. وكلما زاد أمر الدولة العباسية سوءاً فى معاملة المسلمين ازداد دور الدعاة لآل البيت قوة وتماسكا حتى أصبح العالم الاسلامى من شرقه إلى مغربه خلال النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى شبكة سرية واسعة يتحرك فى أرجائها البعيدة دعاة

التشيع .

ولقد كان أحد الدعاة وهو عبد الله القداح الذى كان من كبار دعاة الشيعة قد سار من نواحى أصفهان إلى الاهواز والبصرة ثم إلى سلمية من أرض حمص مركز الدعوة الشيعية داعيا فكان قصده بلاد العرب وانه لو وجد استجابة فى هذه البلاد لما رحل إلى سلمية .

ففى بداية القرن الرابع/ العاشر الميلادى كانت بلاد الدولة العباسية تموج بالدعاة وكان أولئك الرجال يجتهدون فى اشاعة الخوف والقلق فى نفوس الناس حتى تتعلق الآمال بيوم الخلاص فى قيام دولة جديدة ويؤمنون بما يقول الدعاة وبما يدعون اليه وكان للشيعة تنظيم سرى واسع النطاق دون أن تملك قوة عسكرية تستطيع أن تحول التنظيم إلى كيان سياسى مناوئ للخلافة العباسية التى كانت رغم تدهور أحوالها الاقتصادية الاانها تملك جيشا تستطيع به القضاء على أية قوة مناوئة تظهر فى أى جزء من أرجاء الدولة الاسلامية سواء فى مصر أو الشام أو خراسان .

وكان رجال الدعوة الشيعية من الكياسة والفطانة وبعد النظر فى البحث عن بلد بعيد لم يكن فى متناول القوات العباسية أن تصل اليه الا بعد جهد جهيد وعن البلاد ذات المسالك والمداخل التى تستطيع أن تحتضن الدعوة فى شعابها .

وكان أحمد بن عبد الله القداح قد صحب معه من أهل الكوفة رستم بن حوشب الذى اختار لبث دعوته بلاد اليمن والتى كانت أبصارهم ترنو اليها منذ زمن بعيد وكانت بلاد اليمن تتوفر فيها كل الشروط الواجبة وصعوبة المسائل مع البعد الشاسع عن قلب الدولة وكانت بلاد اليمن حافلة بالرجال .

اليمن مركز الدعوة الشيعية

كان رجال الشيعة قد استقر رأيهم على اختيار اليمن لكى تكون مركزا بعيدا عن أنظار الدولة العباسية حيث وجدوا فيه ضالتهم المنشودة من حيث الامن والبعد والرجال وصعوبة الوصول اليها وانه من الممكن أن يرتكز عليها التنظيم فى البحث عن الرجال الذين من الممكن أن تتألف منهم القوة العسكرية التى ستكون عدة المستقبل فى محاربة الدولة العباسية .

وفى أوائل القرن الرابع الهجرى صارت الوصاية إلى رجل ذكى يسمى رستم بن حوشب استعان بأموال رجل فارسى كاره للعرب يسمى «دندان» فاستقر رستم بن حوشب فى اليمن واتخذ بلدة «لاعة» سميت فيما بعد عدن لتكون مركزا لأعماله .

لكن ابن حوشب لم يجد بغيته من حيث وفرة الرجال فى اليمن وهداه تفكيره إلى أن القوة التى سوف تمكن له اقامة دولة شيعية علوية ليس الا فى بلاد المغرب العربى وذلك فى المناطق التى تقع غرب نهر شلف ولا تخضع لنفوذ الدولة العباسية وكانت شعوب البربر بقيادة عربية قد تمكنت من اقامة دول لها بعيدة عن سيطرة الخلافة العباسية (الادارسة وبنى رستم) انظر كتابنا هذا (الجزء الثانى) واختار ابن حوشب داعيين ذكيين يسميان سفيان والحلوانى وبعث بهما إلى طرابلس وتونس لنشر المذهب الشيعى ولم يكن يعرف شيئاً على وجه التحقيق عما حدث لهذين الرسولين سوى انهما وجدا ترحيبا لاسيما من قبيلة كتامة التى كانت تعيش حول قسنطينة الحالية حتى سنتيق واستقرا فى المنطقة التى كان يسكنها حلف القبائل البرنسية المسمى بكتامة وهو حلف قوى يسكن المناطق الجبلية الوعرة المتاخمة لبلاد الدولة العباسية من ناحية الغرب فلا يفصل منازل هؤلاء البربر عن بلاد الاغالبة حكام تونس من قبل الخلافة العباسية سوى مجرى نهر شلف .

وكان على هذين الرجلين التحرك السريع فى هذه الارض البكر التى تبحث قبائلها عن قيادة والتى يتعلق أهلها بحب بيت الرسول والعلويين. وكان من أثر عملها أن وجدا النفوس معدة لقبول الدخول فى الحركة الشيعية العلوية واقامة دولة لرجل من أهل بيت الرسول ﷺ يرتضيه الناس. وقد ساعد الحلوانى وسفيان على سرعة انتشار دعوتهما ان هذه القبائل من الكتاميين كانت قبائل كثيرة العدد وهم من البربر البرانس الذين يسكنون ما يعرف اليوم بمنطقة القبائل غربى مدينة الجزائر ويمتدون جنوبا فى جبال الاوراس وكانوا قوى تتملكهم العصبية والقوة وتطلع إلى السلطة والسلطان والايمان ببناء دولة قوية وهم يمتازون بالقوة والبأس وهم كما قال عنهم ابن خلدون (من أوفر قبائل البربر وهم أكثر أهل المغرب لهذا العهد) وما بعده لا يكاد قطر من أقطاره يخلو من بطن من بطونهم فى جبل أو بسيط، حتى لقد زعم كثير من الناس انهم الثلثان من البربر وكان لهم فى الحروب ذكر وفى الخروج على الامر شأن. ولقد حفزهم على الالتفاف حول الحلوانى وسفيان ما قد مكن جيرانهم من انشائه فى المغرب الاوسط حيث قيام دولة بنى رستم الخارجية الاباضية وما استطاع أهل المغرب الاقصى من انشاء دولة الادارسة العلوية الهاشمية السنية .

وكان كل ما قاما به سفيان والحلوانى هو ايجاد الارضية الملائمة والمناسبة لبذر بذور الدعوة الشيعية حيث هيأ الجو المناسب لنمو هذه البذرة ولم يكن الامر يحتاج أكثر من أن يأتى صاحب البذر لكى ينشر البذور فى الارض الممهدة وأن يرعاها حتى تنمو النمو الذى تتطلبه الدعوة وأن يكون القادم رجلا قادرا على تكوين القوة العسكرية التى تمكنه من اقامة دولة واسعة الارجاء ولم تكن دولة اقليمية كما هو الشأن فى الادارسة وبنى رستم انما الامر يتطلب القضاء على الخلافة العباسية لكى تكون الخلافة العلوية هى الخلافة الام فى العالم الاسلامى .

رجل الدعوة أبو عبد الله الشيعي:

كان من بين الذين اتصل بهم ابن حوشب فى اليمن أبو عبد الله الشيعى حسن بن أحمد بن محمد بن زكريا الشيعى من أهل صنعاء وكان قد وقع اختيار ابن حوشب على هذا الرجل حيث وجد فيه الصفات التى يبحث عنها فهو علاوة على علمه الغزير وتفهمه الكامل للمذاهب الشيعى فهو خبير بمعاملة الناس ومن هنا لم يلبث أن أصبح من أحسن أصحاب ورجال ابن حوشب وقد كان بالفعل هو رجل الساعة والموقف وهو الذى تعقد عليه الحركة الشيعية الآمال وكان هذا الرجل قد جاء وقدم إلى المغرب بعد الحلوانى وسفيان وهو أهم رجل فى الدعوة الشيعية ذلك لان هذا الرجل هو المؤسس الحقيقى للدولة الفاطمية الاسماعيلية فى المغرب كما كان أبو مسلم الخراسانى المؤسس الحقيقى للدولة العباسية فى المشرق وكان أبو عبد الله الشيعى يمنى الاصل من مدينة صنعاء وقد ولى الحسية يوما ما فى بغداد فى ظل الخلافة العباسية ثم ترك العراق ومنصبه وسار إلى اليمن داعية من دعاة الحركة الشيعية السرية حيث اتصل هناك بابن حوشب وأصبح من كبار أخصائه وأصدقائه فلما علم ابن حوشب بموت الحلوانى وأبى سفيان الداعيتين بالمغرب وكانت الانظار تتجه اليه حيث قال له ابن حوشب (ان أرض كتامة فى بلاد المغرب قد حرثها الحلوانى وسفيان وقد ماتا وليس لك غيرها فبادر فإنها موطأة ممهدة لك) .

وكان أبو عبد الله الشيعي رجلا موهوبا فى أكثر من مجال فكان ذكيا بعيد النظر حسن الفهم للرجال واسع الحلية ضليعا فى الفقه الشيعى وغيره من المذاهب الفقهية الاخرى وعندما عهد اليه مهمة الرحيل إلى المغرب ترك له أمر التصرف فى تنفيذها .

كيفية الوصول إلى المغرب :

يذكر القاضى الشيعى أبو حنيفة النعمان محمد داعى الدعاة فى كتابه الممتع المسمى (ابتداء الدعوة) رواية تقليدية تقص علينا عن لقائه لرجال من قبيلة كتامة البربرية وكان أبو عبد الله قد خرج من اليمن إلى مكة المكرمة قاصدا الذهاب إلى المغرب حيث انتظر إلى موسم الحج وكان اتجاهه إلى الحجاز من أجل صحبة القوافل المغربية القادمة لاداء فريضه الحج وهناك فى مكة المكرمة أخذ يبحث فى دروبها ومنازلها ويتحرى ويستقصى عن حجاج من قبائل البربر المغربية وساعده الحظ اذ التقى بوفد من حجاج كتامة فجلس بجوارهم وآذانه صاغية إلى ما يجرى منهم من حديث – ويشكك بعض المؤرخين المحدثين فى هذه الواقعة التاريخية اذ يحاول أن ينفى هذه الرواية بقوله إن هؤلاء القوم اذا كانوا يتجاذبون أطراف الحديث فيما بينهم فلا يكون ذلك الا بلغتهم ولهجتهم البربرية والمفروض أن أبا عبد الله الشيعى لم يكن يعرف اللغة البربرية .

لكن هذا الشك مردود عليه ليس دفاعا عن الشيعة، ولكن عن الحقائق التاريخية اذ من المعروف أن زيارة أبا عبد الله الشيعى لمكة المكرمة كانت فيما بين عامى ٢٨٨هـ – ٢٨٩هـ وتلك فترة طويلة كان الاسلام قد امتدت جذوره فى بلاد المغرب وانتشرت اللغة العربية والدين الاسلامى على نطاق واسع فى المغرب وان الحجاج القادمين لاداء فريضة الحج فى تلك السنوات لم يكونوا من عامة الشعب الذين لم يتعمق المفهوم الاسلامى واللغة العربية بينهم ولكن لا شك انهم من العلماء أو طلاب العلم أو علية القوم الذين كانوا يتفاخرون بتعلمهم اللغة العربية وأن الذى يفكر فى أداء فريضة الحج وتحمل المصاعب والمشاق لابد أن يكون عميق الفهم للغة العربية فى ذلك الوقت من الدعوة الاسلامية حيث انه لم يكن قد مضى على استقرار الاسلام النهائى أكثر من مائة عام ولابد أن يكونوا من المتعمقين فى دراسة اللغة العربية والدين

الاسلامى ومن هنا كان حديثهم باللغة العربية أو البربرية أحيانا .

ثم اذا كان حديثهم باللغة العربية فنحن نعلم ان أبا عبد الله الشيعى قد ولى الحسبة فى بغداد فترة من الزمن ولا شك أنه كان يلم باللغة البربرية نظرا لتوليه الحسبة ومن هنا يكون قد فهم حديثهم. ومن هنا تقرب اليهم وتجاذب معهم أطراف الحديث وتظاهر بالزهد والورع والتقشف حتى أعجبوا به ووثقوا فيه بل لم يزل مجاورا لهؤلاء القوم حتى فهم ما يجرى بينهم من حديث وكانوا قد تأثروا به وبنسكه وتقواه ومن خلال محادثته معهم عرف بلادهم وأهلها وقبائلهم وطبائعهم وعاداتهم ثم بعد أن وثق هو بهم تمام الثقة أخذ يحدثهم عن آل البيت النبوى والاسرة العلوية ويذكرهم بمعركة كربلاء ومذبحة فخ وما تعرض له آل البيت من تعذيب واضطهاد وقتل خلال فترة حكم الدولة الاموية وفى العصر العباسى وحدثهم فى أمور القضاء والشريعة والدين حديثا عرفوا منه انه عالم ضليع فى هذه الأمور وتكرر اللقاء معهم يوميا أثناء فترة اقامتهم فى مكة فصار يلقى عليهم دروسه وكان يظهر عفافا وقناعة وزهدا وورعا وتعاونا دينيا وتفانى فى خدمتهم وتسهيل أمورهم وتحركاتهم حتى ازداد القوم فيه محبة وعندما حان موعد رحيل القوم وعودتهم إلى بلادهم المغرب قال لهم إن وجهته مصر يريد الذهاب اليها لكى يجد عملا فى وظيفة معلم أو محفظ للقرآن الكريم أو مدرسا فى احدى مدارسها المنتشرة فى البلاد حيث المدارس الكثيرة فى الفسطاط وأحس القوم من مرافقته لهم طوال الرحلة من مكة إلى مصر أنهم سوف يستفيدون من علمه وصحبته فكان قرارهم أن يصحبهم فى قافلتهم إلى بلاد المغرب حيث قبيلتهم كتامة .

وفى العودة وطوال السفر كان يجرى حديثا بينه وبين القوم الذين كانوا من خيرة شيوخ كتامة فاستطاع بما يملك من حنكة ودراية أن يعرف الكثير عن أمورهم وبلادهم وهم لا يعرفون عنه الا انه معلم مؤدب فى رحلة إلى مصر يلتمس لقمة

العيش. وكان يلقى اليهم السؤال ثم السؤال فى فطنة وذكاء وحنكة وهم يعطونه كل ما يسأل عنه دون أن يفهموا وراء قصده .

ووصلت القافلة إلى الفسطاط ودخلوا عاصمة مصر ثم تركهم فترة زاعما انه ذاهب للبحث عن عمل ولكنه بعد عدة أيام صارحهم بأنه لم يجد عملا فعرضوا عليه أن يمضى معهم إلى بلادهم حيث انهم فى حاجة إلى معلم يعلم أولادهم ويحفظهم وقرآن الكريم ويفقههم فى أمور الدين .

أبو عبد الله الشيعى فى المغرب :

لكثرة ما حصل عليه أبو عبد الله من معلومات وافرة عن بلاد كتامه وأهلها وأماكنهم وفروع قبيلتهم وكل ما يدور فيها من أمور فانه استطاع أن يحدد فى ذهنه المكان الذى سينزل فيه والقوم الذين سيعاشرهم ويعيش بينهم. وسارت الرحلة من مصر حتى وصلوا إلى قرب موقع من بلادهم وصاروا إلى بلدة صغيرة تسمى (ايكجان) وهى بلدة فى جبل وعر عرف أن هذه منازل قبيلة صغيرة بل بطن من بطون كتامة تدعى قبيلة (سكتاتة) وعندما مر ببطن فى الجبل يطلقون هم عليه «فج» قال لهم «أن هذا فج الاخيار» وانهم الذين صحبوه فى رحلته من الاخيار ثم قال لهم ان اسمهم كتامة وهو مشتق من الكتمان والكتمان أول شروط الدعوة فأعجبهم ذلك وفرحوا به وتجمع القوم حوله بعد أن استقر أبو عبد الله الشيعى فى بلدة ايكجان هذه حيث منازل قبيلة سكتاتة من بطون كتامه ونزل بهم وتسامعت به قبائل البربر ووفدت عليه من كل مكان بعد أن تمنع كثيرا من كثرة هذه الوفود وكان ذلك عام ٢٨٨هـ ولم يرض فى تجمع الناس حوله الا بعد أن ألحوا اليه كثيرا للاستزادة من علمه الفياض ونهجه القويم وتواضعه وتقشفه وأخيرا رضى أن يستقبلهم وينشر دعوته بينهم بعد أن تعهدوا له بأن ينصروه .

ونهج فى حياته نهج المعلم المؤدب الورع وسلك سلوك العفاف والطهر والتدين

وأخذ يعلم الناس أصول الدين الاسلامى والشريعة وفق المذهب الشيعى واشتهر أمره بالصلاح والتقوى والعدل ثم بعد أن استوثق منهم طور طريقة التدريس وتحول إلى مرشد لهؤلاء القوم ثم أخذ يحدثهم فى الامور السياسية ونظام الحكم ودور الاسلام فى الحكم بالشورى وفضل العلويين وأحقيتهم فى الحكم وهنا نجد أبا عبد الله الشيعى يعظم أمره ويكثر أنصاره بعد أن مهد لذلك بالسلوك الحسن والقدوة فى العمل ومن ثم صار كبير قبيلة سكتاتة ويصلح أمورها وبدأت القبيلة متماسكة قوية وعند ذلك كشف عن شخصيته وأعلن عن أغراضه .

الطور السياسى والعسكرى :

بعد أن استطاع أبو عبد الله الشيعى أن يجتذب اليه سكان تلك القبيلة وبعض القبائل الاخرى الصغيرة المجاورة التى كانت تخضع لحكم أسرة الاغالبة التى كان يبغضها السكان هناك وقويت شوكة أبى عبد الله الشيعى. فان رجال القبيلة (سكتاتة) أخذوا يغيرون على حدود دولة الاغالبة القريبة ومن ثم شكا حاكم اقليم الزاب الشرقى عدوان السكتاتيين عليه وسعى رجال الاغالبة بكل الوسائل الممكنة لاقناع هؤلاء القوم باخراج هذا الرجل الداعية الشيعى من بلادهم ولكن القوم رفضوا اخراجه لان هذه القبيلة كانت أصل المنبت لاكبر دولة علوية شيعية فيما بعد. وكانت نصرة قبيلة كتامة له وعلى رأسها زعيمها (حسن بن هارون) قد قضت على المعارضين وكان هذا بداية الصراع الذى أدى إلى انتصار الشيعة .

لكن أبا عبد الله خاف هجوم الاغالبة عليه لاسيما أن قبيلة سكتاتة قبيلة صغيرة لا قبل لها ببقية القبائل الكبرى فى كتامة مثل «مسالتة» ولهيعة، لكنه كان قد أنشأ لنفسه قاعدة واسعة بين القبائل وكثر حوله الانصار واحتل مكانة مرموقة بل مسموعة الكلمة بين القوم لما تحلى به من تقوى وورع وعدل واصلاح وحاز رضا ومحبة الجميع

بسعة علمه ومن هنا استطاع أن يقنع هؤلاء بفساد الحكم الاغلبى وانه لابد من محاربة هؤلاء القوم لبعدهم عن الشريعة الحقة والدين القويم وان الله سيورثهم ملك الأغالبة وحكم هذه البلاد .

لهذا حزم أبو عبد الله الشيعى أمره وأنصاره وانتقل إلى مكان حصين فى حضن جبل الاوراس فى بلدة «تازروت» وفى هذا الحصن المنيع جاءت الوفود من كل صوب فسارع إلى تحصين هذه البلدة وفرض على أتباعه جباية قليلة عبارة عن هبة أو منحة أو تبرع للحركة وجعل كل ما يجمع من هذه الاموال فى أيدى شيوخ كتامة وهم الذين يتصرفون فى صرفها .

وبعد ثلاث سنوات من وصوله إلى بلاد المغرب أى فى عام ٢٩١هـ/ ٩٠٣م بدأ جهوده الحربية بعد أن حض الناس على اقامة دولة الشورى والعدل يكون شيوخ كتامة سادتها بعد أن تستولى على أرض الاغالبة وبدأت الحملات على أقرب أماكن الدولة الاغلبية فى منازل كتامة فى بلاد الزاب وخضعت له مدن كثيرة ووفق فى حملاته الاولى وغنم غنائم كثيرة واشتد حماس القوم وساعده على هذا النجاح ما كان قد أصاب دولة الاغالبة صاحبة الحكم فى تونس فى ذلك الوقت من ضعف وانحلال حيث كان نجاح الحملات فى أواسط أيام حكم ابراهيم بن أحمد الاغلبى .

وكان لتحقيق الانتصار هذا على حدود دولة الاغالبة أثره الكبير فى نفسية أبا عبد الله الشيعى اذ كان تحوله إلى قائد سياسى عسكرى يقود الجيوش قد جعله يكشف الستار عما كانيخبئه فى نفسه فصارح القوم بأنه يدعو للرضا من آل البيت العلوى وانه قائم بالدعوة حتى يسلمها لصاحب الامر من آل رسول الله ﷺ وهو الامام المستتر صاحب الزمان والذى لايظهر الا لدعاته فقط وهو الذى سيعود للظهور بعد تحقيق هذا النصر .

وكان آخر المستورين عبيد الله المهدى بن محمد الحبيب الذى أظهر دعوته أبو عبد الله الشيعى هذا فى كتامة وتتابع الناس على دعوته وتم اخراجه من حصنه فى سلمية ببلاد الشام .

وأظهر أبو عبد الله من الكفاءة والحزم والشجاعة ما مكن له فعلا من جمع قيادة هذه القبائل تحت راية الشيعة واستطاع فى زمن قليل أن ينزع اقليم الزاب كله من أيدى الاغالبة ثم دخلت قواته افريقية وكان على رأس دولة الاغالبة ابراهيم الثانى بن أحمد الاغلبى فأرسل جيشا بقيادة ولده الاحول لكنه هزم ومنذ ذلك الوقت أخذ أبو عبد الله يشن الغارات على كل ما حوله مهددا من لا ينضم له وهرب الامير عبد الله الثانى حين هزمت جيوشه أمام أبى عبد الله الشيعى فقتله ابنه أبو زيادة الله الثالث وخلفه على العرش ولكنه وجه همه إلى ملذاته فصرف أخاه الاحول عن تتبع أبى عبد الله الشيعى الذى استولى على حصن طبنة وسجلماسة عام ٢٩٣هـ واحتل جميع النقاط الحربية التى تقع فى الطريق إلى تونس ودخل رقادة فى ٢٩٧ هجرية .

وهنا تزعزع حكم بنى الاغلب وأصبح فى طوره النهائى وكان القوم قد سئموا حكمهم وملوا ادارتهم للبلاد بعد الذى كان من حكم ابراهيم بن أحمد الاغلبى ثم ابنه العباس ثم أبى مضر الثالث قاتل أبيه وهو آخر الامراء الاغالبة وقد ارتكب أخطاء جسيمة فى حق أهل افريقية فمال الناس إلى دعوة أبى عبد الله الشيعى .

وفى أوائل جمادى الاولى عام ٢٩٦هـ/ ٩٠٩م سقطت مدينة الاريس فى يد قوات عبد الله الشيعى وهذه المدينة هى مفتاح دخول القيروان العاصمة السياسية للبلاد فعجل زيادة الله الأخير بالرحيل إلى مصر فى جمادى الآخرة عام ٢٩٦هـ ودخل عبد الله الشيعى القيروان .

(راجع كتابنا الجزء الثانى من هذه الموسوعة وبه عدة فصول عن دولة الأغالبة) .

وكان أبو مضر آخر أمراء الاغالبة قد خاضت قواته حروبا كثيرة مع أبى عبد الله الشيعى لكن موقعه الاريس قرب الكاف كانت هزيمتها قاسية بل ساحقة لقوات الاغلبة مما جعل أبى مضر أثر ذلك يفر إلى تونس فجمع أثقاله وخرج من رقادة ليلة٢٦ جمادى الثانية ٢٩٦هـ وقصد إلى المشرق مستنجدا ليطلب العون من الخليفة العباسى ويذكر أن الخليفة العباسى أمر والى مصر بامداده بالقوات اللازمة ولكن والى مصر تباطأ فى ذلك وحدد اقامة أبا مضر فى مدينة المرلة من بلاد فلسطين حيث مات هناك .

وأعلن أبو عبد الله الشيعى أن الامام الحقيقى للمسلمين هو عبيد الله المهدى وانه سوف يظهر قريبا فى بلاد المغرب ليحكم الناس بالعدل والحق والمساواة وينشر الطمأنينة ويرفع الظلم عن الناس، فانضم اليه بعض قواد أبى مضر وكاتبوه فوصل أتباعه فى مدة يسيرة به إلى مائتى ألف مقاتل لكى يدافعوا عن المذهب الشيعى والدولة الجديدة .

بداية الكيان السياسى للدولة الشيعية

بعد رحيل أبى مضر آخر أمراء بنى الاغلب دخل أبو عبد الله الشيعى مدينة القيروان وأعلن قيام الدولة الشيعية الفاطمية وبدأ يستدعى الامام الفاطمى المستتر فى بلاد الشام بمدينة سليمة وهو عبيد الله المهدى لكى يتولى تقاليد الامور فى المغرب بعد أن وطد له أبو عبد الله الامور وجعلها مستقرة ومهياة للحكم .

وقد سار أبو عبد الله الشيعى فى أهل القيروان وبقية البلاد الخاضعة لنفوذه فى افريقية سيرة حسنة وطيبة وحرص على الا يصارح الناس بالدعوة الشيعية وأراد أن يتم ذلك عن طريق الاقناع ودارت مجالس مشهورة بين زعماء المذهب المالكى وخاصة أبى عثمان سعيد بن الحداد وأبى عبد الله الشيعى ودعاة المذهب وكل ذلك يدور فى مدينة

القيروان معقل المذهب المالكى وحصنه الحصين وفى أثناء المناقشات تبين لأبى عبد الله أن قناة أولئك أصحاب المذهب المالكى لن تلين وأن القوم من خلفهم على مذهب مالك فعدل عن الانصراف عن الدعوة الشيعية النشطة حتى يستتب له الامر ويقيم كيان الدولة الجديدة وقد غضب أبو عبد الله على أخيه أبى العباسى المخطوم وكان حاكم القيروان عندما لجأ إلى العنف مع بعض مناوئى الدعوة .

والذى دفع أبو العباس المخطوم إلى هذا الاسلوب انهم عندما دخلوا القيروان وبدأ الكيان السياسى للدولة الشيعية فى الظهور وجدوا فى هذه المدينة بيئة افريقية ثقافتها اسلامية مالكية موطدة بل ثقافة دينية ثابتة الجذور ورأوا شعب افريقية (تونس) كله متكتلا خلف فقهائهم المالكيين يهتدون يهديهم ويأتمرون بأمرهم فرأوا انه لا نجاح لدولتهم ولا بقاء لها الا بمحاولة التغلب على هذه الوطنية المغربية الدينية المالكية .

وكان الشيعة الفاطمية فى كل مكان يتسلحون فى نشر دعوتهم بالدعايه والمناظرة والعلم فلجأوا إلى مثل هذا فى القيروان وتوسلوا بالمناظرة وعقدوا المجالس وجلبوا أئمة المالكية وأخذوا يجادلونهم ويناقشونهم فلم يعتنقوا المذهب الشيعى وأغدقوا المال والجاه فلم ينفع المال أو الجاه فانقلب الشيعة وعلى رأسهم العباس المخطوم إلى طغاة مستبدين يستعينون بالعنف والشدة وضربوا الفقهاء بالسياط وقطعوا ألسنة البعض وضربوا الرقاب وقطعوا أجزاء الجسم إلى عدة أجزاء وصلبوا الفقهاء وصادروا الاموال وتفننوا فى وسائل التعذيب وتصور كتب الطبقات هذه الوسائل كما ذكر الدباغ فى كتابه معالم الايمان. بل انهم كانوا يبطحون الناس على ظهورهم ثم يأمرون (السودان الزنوج) بأن يدوسوهم بالأقدام ولذا عزل أبو عبد الله الشيعى أخاه عن القيروان أوقف المناظرة بين الشيعة والمالكية حسما للصراع الدينى لاسيما فى بداية تكوين الدولة. وصرف النظر عن المجادلة والمناظرة .

لذا فإننا نجد انه استطاع فى فترة زمنية وجيزة أن ينجح فى تثبيت دعائم الدولة ويثبت أقدامها ويرسى دعائمها وينظم أمورها ولقد كان العمود الفقرى الذى اعتمدت عليه دولة الشيعة فى ذلك الوقت هو زعيم قبيلة كتامة ،وأحد أنصار الدعوة الأوائل الأقوياء والذى بذل جهدا غير عادى فى مساعدة ومساندة أبى عبد الله الشيعى حتى نجح فى تقويض سلطان الاغالبة ذلك الزعيم البربرى (غزوية بن يوسف) وأخيه وبقية قومه .

الباب الثالث

الدولة الفاطمية كيان سياسى فى العالم الاسلامى

لما قويت شوكة أبى عبد الله الشيعى وأحس انه دعم أركان دولته وثبتت له الأوضاع فى الارجاء التى بسط نفوذه الشيعى عليها، فانه أرسل إلى عبيد الله المهدى الامام الاسماعيلى صاحب الدعوة وكان يقيم فى مدينة سلمية فى الشام. مستدعيه وطالبا منه للحضور إلى بلاد المغرب على وجه السرعة لتسلم مقاليد انشاء دولة شيعية علوية .

ويتفق المؤرخون فى حديثهم عن مبدأ دولة الشيعة أن أبا عبد الله المحتسب لما دعى بكتامة للرضى من آل محمد واشتهر خبره وأرسل إلى عبيد الله المهدى وابنه أبى القاسم فإنهما خشيا على أنفسهما فهربا من الشرق موطن الخلافة العباسية إلى بلاد المغرب واجتازا الاراضى المصرية إلى الاسكندرية فى زى التجار ونمى خبرهما إلى «عيسى النوشرى» عامل مصر والاسكندرية فشرع فى طلبهما رجال الخيالة حتى اذا أدركا قافلتهما خفى حالهما على تابعهما بما لبسوا من الزى البالى واستطاعا الافلات إلى المغرب ومن ثم فان الخليفة العباسى المعتضد أوعز إلى الاغالبة أمراء افريقيا والقيروان بالقبض عليهما كذلك أرسل إلى بنى مدرار أمراء سجلماسة أصحاب المذهب الخارجى الصفرى. يأخذ الآفاق عليهما واذكاء العيون فى طلبهما فعثر «اليشع» صاحب سجلماسة من آل مدرار على المكان الذى يختفيان فيه ببلده واعتقلهما مرضاة للخليفة العباسى رغم ما بينهما من خلاف سياسى توطئه لارسالهما إلى بغداد. وكان عبيد الله المهدى ومعه ابنه أبى القاسم قد لقيا كثيرا من المتاعب وقبض عليهما أكثر من مرة ولكنهما كانا يتمكنان من الافلات ببذل الهدايا عطف

رجال الدولة العباسية عليهما مما يقدم دليلا قويا على انضمام بعض الناس اليهما. وكان المهدى قد عرف كيف يستخدم هذه الاموال الطائلة التى حملها من سلمية معه وذلك فى تسهيل مهمة سفره، ويقال إن حاكم مصر (عيسى النوشرى) قد عاونهما وسهل مهمة خروجهما من مصر وكان المهدى وابنه أبى القاسم قد أحسا بعد وصولهما إلى برقة أن رجال بنى العباس علموا بأمرهما فاستعملا الحيلة بعد خروج الركب من برقة إلى طرابلس ودفع مالا كثيرا للمشرفين على ركب القافلة فحولوا اتجاهه جنوبا صوب سجلماسة فى أقصى الجنوب الغربى من بلاد فنجا من أيدى العباسيين وكما سبق القول فان صاحب سجلماسة من بنى مدرار تخوف من أمرهما فسجنهما .

ويقول فى ذلك الدكتور حسين مؤنس فى كتابه معالم تاريخ المغرب والاندلس ماالذى يدعو رجلا خارجيا صفريا هو صاحب سجلماسة إلى سجن رجل من أعداء الخلافة العباسية وهو منهم. فى حين نجد ابن خلدون يذكر فى المقدمة ص ٢١. أن الخليفة العباسى المعتضد أرسل إلى بنى مدرار أمراء سجلماسة بالبحث عنهما. ونحن نميل هنا إلى الأخذ برأى ابن خلدون فى صحة طلب الخليفة العباسى لانه كان يخشى من خطر الشيعة على الدولة العباسية .

وكان اسقاط دولة بنى الاغلب فى القيروان قد شدد من عزم أبى عبد الله الشيعى وقواته فانه ما أن علم بخبر وصول صاحب الدعوة المستتر وابنه أبى القاسم إلى سجلماسة وسجنهما فانه استطاع فى فترة وجيزة أن يجمع جيشا ضخما وخرج به من القيروان فى عام ٢٩٧هـ/٩١٠م قاصدا بلاد بنى مدرار حيث عاصمتهم سجلماسة واستطاع الوصول اليها وتمكن من فك أسر عبد الله المهدى هو وابنه وتخليصهما من السجن والقضاء على صاحب سجلماسة وتدمير المدينة وبويع عبيد الله المهدى بيعة عامة

فى سجلماسة وسلم اليه أبو عبد الله الشيعى الامر وسار بين يديه يحترمه وفى طريق العودة مر الجيش بتاهرت وأزال دولة بني رستم، ذلك فى عام ٢٩٧هـ/ ٩١٠م وجعل المغرب الاوسط إلى تلمسان جزء من الدولة الفاطمية التى قامت نسبة إلى فاطمة الزهراء بنت الرسول ﷺ، وباعلان عبيد الله المهدى خليفة أول للدولة الفاطمية ببلاد المغرب وبدأت بخلافة المهدى تتكشف الاغراض الحقيقية للفاطميين وهو الحصول على السيادة العليا فى الدولة الفاطمية من دون الخلافة العباسية .

وكان قد تم فى عام ٢٩٧هـ لابى عبد الله النصر النهائى على الدويلات القائمة فى شمال افريقيا دولة بنى مدرار فى سجلماسة ودولة بنى رستم فى تاهرت ودولة الاغالبة فى افريقية (تونس) وقاد الجيش بنفسه ونزل مدينة القيروان وفى قصر من قصورها وفى يوم الجمعة خطب باسمه على منابر القيروان بعد أن قضى نهائيا على ملك الاغالبة ولقب بأمير المؤمنين عبيد الله المهدى .

وهكذا نجح الشيعة الاسماعيلية فى الوصول إلى عرش الخلافة بعد جهاد طويل مرير كان بعضه فى العلن إلى عهد محمد بن اسماعيل إلى نجاح الدولة وظهور عبيد الله المهدى ويعرف هذا العهد الثانى بعهد الكتمان فقد كتمت فيه أسماء الائمة تقية وخوفا وكان يقوم بالدعوة العلنية ويشرف على توجيهها الائمة المستورون من نسل عبد الله بن ميمون القداح ومن هنا ثار الجدال حول صحة النسب الفاطمى فقد أصبح كتمان أسماء الائمة المستقرين والمستترين من محمد بن اسماعيل إلى عبيد الله المهدى جزء من المذهب .

ولم يكن الخلفاء الفاطميون يسبقون اعلان هذه الاسماء حتى بعد نجاح الدعوة وتوليتهم الخلافة وفى هذه الثغرة دخل أعداء الدولة الفاطمية من العباسيين فى المشرق والامويين فى الاندلس للطعن فى نسب الائمة الفاطميين يريدون بذلك أن يقوضوا

الدعائم التى قامت عليها الدولة الفاطمية التى تتخذ اسمها من فاطمة الزهراء زوجة الامام على بن أبى طالب وبنت رسول الله ﷺ وأم الحسن والحسين سبطى رسول الله ﷺ .

ومن الأخبار الواهية ما يذهب اليه الكثير من المؤرخين فى الشك فى العبيديين خلفاء الشيعة فى القيروان من نفيهم الانتساب إلى أهل البيت صلوات الله عليهم والطعن فى نسبهم إلى اسماعيل الامام ابن جعفر الصادق يعتمدون فى ذلك على أحاديث لفقت للمستضعفين من خلفاء بنى العباسى تزلفا اليهم بالقدح فيمن ناصبهم العداء .

لكن ظهرت الدولة العلوية الفاطمية وهى أول دولة علوية حقيقية استقر لها الامر ولم تكن أيامها معدودة ولا فتنة خارج عن شرعية الدولة بل دولة فاطمية علوية راسخة قوية زاحمت دولة بنى العباس وقاسموهم ممالك الاسلام .

وكما سبق القول فقد سمى محمد بن اسماعيل الامام جد الخليفة الفاطمى الأول عبيد الله المهدى بالمكتوم سمته بذلك شيعتهم لما اتفقوا عليه من اخفائه حذرا من المتغلبين عليهم. لكن خلفاء بنى العباس عملوا على الطعن فى نسبهم وازدلفوا بهذا الرأى القائل للمستضعفين من خلفائهم وأعجب به أولياؤهم وأمراء دولتهم المتولين لحربهم مع الاعداء يدفعون به عن أنفسهم وسلطانهم معرة العجز عن المقاومة والمدافعة لمن غلبهم على الشام ومصر والحجاز من البربر الكتاميين شيعة العبيديين وأهل دعوتهم حتى لقد سجل القضاة ببغداد بنفيهم عن هذا النسب وشهد به عندهم من اعلام الناس. كذلك طعن فى نسب ملوك بنى أمية وراء البحر فى الاندلس .

لكن ابن خلدون يضيف القول بأن هذا النسب الفاطمى لم يكن أمر المهدى يتوقف عليه ولا اتبعه الناس ببيعته وانما كان اتباعهم له بعصبية كتامة والمصمودية

ومكانة منها ورسوخ شجرته فيها وكان ذلك النسب الفاطمى خفيا قد دس عند الناس وبقى عنده وعند عشيرته يتناقلونه بينهم ولان الناس يصدقون فى انتسابهم إلى البيت الفاطمى .

ولقد بويع عبيد الله المهدى بيعة عامة فى القيروان عاصمة الاغالبة ربيع الآخر عام ٢٩٧هـ/ ٩١٠م وبذلك أنتهت ولاية أبى عبد الله الشيعى بعد أن دامت عشر سنوات ٢٨٨هـ- ٢٩٧هـ. فقد أصبح وزيرا وخادما لهذا الخليفةالذى استقدمه من سليمة بالشام ولأول ولاية عبد الله المهدى فعل فعله شككت الكتاميين فى أصالته ومستوى تفكيره فقد استولى على كل الاموال التى كانوا قد جمعوها فى «ايكجان» وأخذها دون أن يكترث لرأى أحد. فبدأت نفوس كبار الكتاميين تتغير ويساورها الشك خاصة أبا عبد الله الشيعى شاركهم فى ذلك علانية واذا كان أبو عبد الله قد استطاع أن يكظم غيظه ويملك نفسه ويضبط مشاعره الا أن أخاه وشريكه فى الدعوة أبو العباس المخطوم لم يستطع ولذا فقد ساءت العلاقة بين الخليفة الفاطمى الجديد وأبى عبد الله الشيعى وأخيه فلجأ عبد الله إلى الغدر واستعان بأحد كبار الكتاميين (غزوية بن يوسف) فقتل عبد الله الشيعى وأخيه أبى العباسى ولكن بعض المؤرخون يرجعون الخلاف الذى ثار بين عبيد الله المهدى وقائده عبد الله الشيعى قد ثار حول النسب وليس خلافا ماليا كما أشار إلى ذلك بعض المؤرخين والامر الذى فى النهاية انتهى بقتل الاخير. وكان قتل الخليفة لداعيته الشيعى قبل أن يمضى عاما على توليه الخلافة لأنه كان قد بدأ يتآمر مع رؤساء كتامة لانه كما قيل وجد الشروط التى يجب توافرها فى عبيد الله المهدى لا تتوافر فيه وأولها مباشرة المعجزات ومنذ هذا اليوم انقلبت الدعوة الدينية إلى سياسية لايتدخل الدين فيها الا بمقدار ما يساعد على تثبيتها .

ولقد استحق عبد الله الشيعى القتل لان خطيئة حياته كانت فى دعوته عبد الله

المهدى من الشام فقد كان مستطيعا أن يمضى فى الدعوة وقيادتها تحت اسم الوصية ثم بعد فترة من الزمن يحوزها لنفسه لاسيما انه قضى عشر سنوات فى المغرب قبل أن ينصب المهدى خليفة ولكن الحذر يؤتى من مأمنه بالاضافة إلى أن أبا عبد الله الشيعى وكان داعيا للدعاة وصاحب الفضل فى اقامة الدولة لم يكن بعرف عبيد الله المهدى معرفة شخصية ولا هو رآه من قبل مهما كان يسهل له مهمة اعلان نفسه اماما للدعوة حتى انه يذكر انه عندما أخرجه من سجنه فى سجلماسة تقدم بطاعته إلى رجل آخر ثم عرف الحقيقة فعدل إلى عبد الله المهدى وابنه أبا القاسم ويلاحظ بعض المؤرخين أن سبب القتل يرجع إلى أن الخليفة الحقيقى للدولة الفاطمية هو أبا القاسم محمد بن عبيد الله المهدى وان عبيد الله المهدى كان راعيا له ولامره وربما لم يكن أبوه أصلا وربما تكون هذه أقوالا موضوعة من قبل العباسيين فى بغداد أو الامويين فى الاندلس.

ولقد أثار نجاح الفاطميين فى تكوين دولتهم عداء الخلافتين السنيتين القائمتين فى ذلك الوقت وهما الخلافة العباسية فى المشرق والاموية فى الاندلس فشنتا عليهم حربا شعواء كان قوامها الطعن فى نسبهم ومذهبهم واتهم الفاطميون بانتسابهم إلى أصل يهودى حينا وإلى أصل فارسى حينا آخر وأصبح الكلام فى النسب الفاطمى موضوعا من أهم الموضوعات التى تبادلها المؤرخون قدامى ومحدثون شرقيون ومستشرقون عند الكتابة عن تاريخ الفاطميين ومع هذا لم يصل واحد منهم حتى اليوم إلى رأى حاسم يمكن الاعتماد عليه والاخذ به ويرجع هذا إلى سببين أولهما اننا لانعرف على وجه التحديد متى بدأت الدعوة الاسماعيلية أو من بدأ بها فقد بدأت سرية وما كتبه المؤرخون السنيون عن أصولها ومبادئها فيه تناقض كثير واضطراب ويعتمد فى أكثره على الشائعات المغرضة وثانيهما أن الاسماعيلية أنفسهم لجأوا فى أول الامر إلى التقية فقد كان العهد عهد ستر وخضع الشيعة لعوامل الاضطهاد المختلفة من سجن وقتل

وتشريد ولهذا لم يؤرخ الاسماعيلية لحركتهم بأنفسهم لان الستر أصل من أصول مذهبهم ومن ضعف العقيدة عندهم كشف المستور وكانت النتيجة أن كل ما نعرفه عن عهد الستر وهو العهد الذى بدأ بوفاة جعفر الصادق وينتهى بقيام الدولة الفاطمية يسوده التناقض والاضطراب ولا يمكن الركوب اليه أو الموثوق فيه .

وكان لما تولدت عن الاسماعيلية قيام الدولة الفاطمية وظهرت هذه الاسرة للنور بعد أن عاش الاسماعيلية فى الستر عشرات السنين ومن ثم اضطر الفاطميون أن يقللوا من غلواتهم بعض الشئ ليضمنوا ولاء الناس لهم وليستطيعوا أن ينالوا لونا من الاستقرار ولعل الفاطميين قصدوا بذلك أن يقابلوا شعب المغرب بمبادئ يمكن نشرها.

ومن الواضح أنه ليس معنى الاعتدال هو اختفاء المذهب الاسماعيلى فى عهد الفاطميين ولكن المقصود هو تجاوزه عن الضالات الصارخة التى قال بها أكثر الاسماعيلية .

وكان ظهور الكيان السياسى للشيعة فى المغرب المتمثل فى الدولة الفاطمية ماهو الا ثمرة من ثمرات كفاح الشيعة من أجل نصرة العلويين بالاضافة إلى كونه من أسباب الازمات السياسية وصراع السلطة فى العالم الاسلامى لان بنى العباس أبناء عمومة العلويين والذين دخلوا التاريخ دخولا واسع المدى معلنين عن دولة العروبة والاسلام التى تملأ الدنيا عدلا وتقضى على الظلم والجور وتقيم القرآن والسنة إلى آخر الزمان ثم تستمر فى عنفوانها وقوتها الا قرنا واحدا ثم بدأ الضعف والانحلال والانهيار يدب فى أجزاء الدولة فاذا بها بعد ذلك تنحرف عن المسار الاسلامى الصحيح الذى يقوم على الشورى ويحقق للانسان المسلم كرامته .

بل أكثر من ذلك فانه أثناء صراع الامين والمأمون تخلى آل العباس عن قاعدة العروبة والاسلام فصاروا خلفاء عرب يسوسهم العجم الفرس وأصبح الخليفة هو كسرى

ولكن فى ثوب جديد وحكموا باسمه ومن ثم اضطرب الامر فى العالم الاسلامى وخاصة بعد خلافة المنتصر بالله بن المتوكل على الله (٢٤٧- ٢٤٨هـ- ٨٦١- ٨٦٢م اذ تحول الخليفة العباسى إلى موظف فى خدمة رئيس الجند وان حمل لقب الخلافة .

ومن هنا كانت الاجواء مهيأة لظهور الدولة الفاطمية فى المغرب وايجاد الفرص المناسبة أمام الدعاة لكى يعملوا على الدعوة للرضا من آل البيت النبوى الشريف الذى أثمر الدولة الفاطمية .

عبيد الله المهدى (١) الخليفة الشيعى الأول

ربيع الاخر ٢٩٧- ربيع الاول ٣٢٢هـ- ٩١٠- ٩٣٤م

بعد البيعة الثانية فى القيروان أخذ عبيد الله يوطد سلطته فى البلاد، لكنه أحس أنه غير مرغوب من أهل افريقية (تونس) ولاسيما سكان القيروان الذين ليس لديهم استعداد لقبول الفكر الشيعى والتخلى عن المذهب المالكى والخضوع لخلافة تقوم على أسس شيعية اسماعيلية كما صاغها دعاتها ومفكروها أثناء فترة الاستتار ودخلت فيها آراء غريبة عن مذهب السنة والجماعة لاسيما المذهب المالكى مذهب أهل افريقية .

ووقف رجال السنة من المالكية فى وجه الفاطميين كرجل واحد واعتبروا الفاطميين زنادقة ونادوا بقتلهم حيث وجدوه وأعلنوا عليهم المقاطعة السلبية لا يصلى فى مساجدهم ولا تدفع لهم الاموال ولا يتعاون معهم. وقد ألف أحد الفقهاء كتابا فى نسب الفاطميين فحاربه الناس حتى فر من القيروان وانتشرت المقاطعة فى المغرب كله بفضل الفقهاء المالكية وقامت الثورات والفتن فى وجه الفاطميين حيث كان فى أهل

(١) كان له اسم آخر هو : المهدى أبو محمد عبد الله (٤ ربيع الآخر ٢٩٧- ١٤ ربيع أول ٣٢٢هـ) .

افريقية صراحة وجراءة فجابهوا عبيد الله ورجاله فأحس الرجل انه ليس بين رعية وانما تجاه خصوم وانه لن يستطيع السيطرة على أولئك الناس ولم يكن كذلك يستطيع الثقة بالكتامين بعد أن استولى على أموالهم وقتل زعيمهم (غزوية بن يوسف) كما كان قد قتل من قبل أبى عبد الله الشيعى وأخيه أبى العباسى المخطوم ومن ثم تطلع إلى الاستعانة بقبائل غير الكتاميين وذلك بسبب تخوفه من الكتاميين بسبب قتله زعيمهم وكان يوجد تنافس قديم بين كتامة وصنهاجة ومن هذا فانه اتجه ببصره إلى هذه القبائل التى نقطن المغرب الاوسط وكان يتزعمهم «مصالة بن حبوس» .

بالاضافة إلى انه من الضرورى بناء عاصمة جديدة بدلا من القيروان لكى تكون حصنا له ولاسرته وآل الفاطمية وجنده وخدمه وأمواله ومتاعه لكى تكون عازلا لهم عن بقية شعب المغرب وكان بناء عاصمة جديدة هدفا أول للفاطميين فى المغرب فكان بناء المهدية عام ٣٠٥هـ/ ٩١٧م بعد أن تولى الخلافة ثمانية أعوام .

وكان التفكير فى بناء العاصمة الجديدة للدولة بعد أن زال المهدى الصعوبات الاولى التى اعترضت طريقه وبعد أن هدأت الفتن فى خلافته ودان له الجميع بالولاء ومن ثم كان التفكير فى بناء عاصمة جديدة لدولته لانه لم يكن يأمن لاهل القيروان عاصمة الاغالبة فخرج يرتاد موقعا قريبا على ساحل البحر فلم يجد أحسن ولا أحصن من موقع المهدية وهى جزيرة متصلة بالبر كهيئة كف متصل «بزند» وهى حصن منيع يقوم على رأس بارز فى الساحل الشرقى لتونس شمال سوسة وهو يشبه الكف كما يقول المؤرخون ولا يصل اليها البر الا عن طريق مدخل ضيق .

وقد بدأ البناء فى ذى الحجة عام ٣٠٣هـ وبنى حولها سورا شاهقا من الحجر الابيض لحمايتها والدفاع عنها وجعل للسور أبراجا وأبوابا عظيمة وكان عبيد الله يدرك أن دولته الجديدة لاتزال تحيط بها الاخطار من الداخل والخارج فاتخذ فى مدينته

الجديدة كل وسائل الدفاع التى يقتضيها عصره .

وقد ذكر البكرى أن عبيد الله المهدى شرع فى بناء المهدية عام ٣٠٠هـ واستكمل سورها عام ٣٠٥هـ ثم انتقل اليها فى شوال ٣٠٨هـ. كذلك ذكر بناءها فى عام ٣٠٣هـ ثم حوطها بسور فى عام ٣٠٥هـ ولما استكملت جميع مرافقها فى عام ٣٠٨هـ انتقل اليها واتخذها مقرا لدولته .

ويسجل انشاء مدينة المهدية عام ٣٠٣هـ أول اجراء عملى قام به الفاطميون لتطبيق سياسة بحرية قوية قادرة على حماية السواحل والعمل فى البحر المتوسط ومما لاشك فيه ان المهدية كانت تتمتع بموقع استراتيجى هام بين صفاقس والمستير فى جزيرة متصلة بالبر وبوجود مرسى منقور فى الحجر الصلد يتسع لثلاثين مركبا ويقوم على طرفيه برجان تمتد بينهما سلسلة من حديد تحميه من طروق مراكب الروم .

وكان المهدى قد أمر أن تنقر دار صناعة فى الجبل تسع مائتى شينى(نوع من السفن البحرية) وعليها باب مغلق وأنشأ فى باطن أرضها مخازن للطعام ومصانع ولما انتهى من انشاء هذه التحصينات بنى فيها الدور والقصور .

وكان بين السور والبحر قطعة أرض أقيمت فيها دار صناعة السفن ومخازن البحرية وهذه أيضا محصنة لا يوصل اليها بسهولة وقد جعل عبيد الله العمال والسوقة يعيشون خارج البلد فى موضع يسمى زويلة فلا يكونون فى المهدية الا نهارا فاذا هبط الليل مضوا إلى مدينتهم وأغلقت الاسوار .

وعندما فرغ عبيد الله من بناء تلك القلعة واستقر فيها قال «الآن آمنت على الفاطميات» أى إنه آمن على نفسه وأمواله ومضى يدير البلاد فى عاصمته الجديدة .

وقد كانت المهدية مركزا حصينا يعتمد على البحر اذا نشبت ثورة فى الداخل

كما كانت مركزا مناسبا لارسال الحملات البحرية المتتابعة لاخضاع الثورات التى قامت فى صقلية أو لمهاجمة شواطئ ايطاليا ومدنها الساحلية والجزر المحيطة بها مثل جزيرة كورسيكا وسردانية .

وكانت ثقة عبيد الله المهدى كلها فى جنده المرتزقة الذى استكثر منهم وعلى ذلك لم يكن الخلفاء الفاطميون يعيشون فى هدوء واستقرار بعد قيامها بل اعترضتها صعوبات كثيرة كان أكثرها وأخطرها ثورة البربر ومن هنا لم تكن حياتهم سعيدة ولم يستطع الخلفاء بذل الجهد اللازم لادارة الدولة واسعاد الناس وانما كان كل هم الخلفاء الفاطميين هو حماية أنفسهم واستغلال البلاد التى صارت فى عهدهم إلى أسوء صورة وحال .

وكان عامة البربر وهم قوم فى طبيعتهم حب للثورة والخروج على الشرعية ويميلون للحرب والقتال فلم يدينوا للفواطم بالولاء فيما عدا القبيلتين الكبيرتين فى المغرب وهما قبيلة كتامة وقبيلة صنهاجة، بل لعله اذاهم أن تنجح هذه الدولة العربية الوافدة من المشرق فى تكوين خلافة لها جديدة فى بلادهم .

ولم يكتف عبيد الله المهدى بما تم من انجاز معمارى وتكوين جيش قوى بل عمل على توطيد أركان الدولة وتوسيع نطاقها والقضاء على مصادر القلق والتوتر فنجد انه بعد أن استطاع اغراء زعيم صنهجة «مصالة بن حبوس» فانه أرسله على رأس جيش كبير لكى يغزو المغربين الاوسط والاقصى فأما فى المغرب الاوسط فقد بسط سيطرة الدولة الفاطمية على جماعات الزناتية التى كانت تسكن بعض نواحيه والذين استجاروا بالامويين فى الاندلس، ووصلت جيوش «مصالة بن حبوس» إلى المغرب الاقصى وبعض المصادر تنطق اسمه «مسالمة بن حبوس الكتانى» الذى طرق أبواب دولة الادارسة عام ٣٠٥هـ/ ٩٠٧م كقائد جيش عبيد الله المهدى وفى محاولة يائسة حاول الامام يحيى

الثالث بن يحيى بن عمر بن ادريس الثانى وجيوشه مدافعة الجيوش الغازية الا أن الهزيمة لحقت به وفر إلى عاصمته فاس متحصنا بها ثم استسلم ووقع معاهدة صلح تم بمقتضاها أن يدفع يحيى مقدارا من المال ويصبح تابعا للعبيديين وهكذا دخلت دولة الادارسة مرحلة التبعية للدولة العبيدية .

(راجع الجزء الثانى من الموسوعة عند الحديث عن دولة الادارسة فى المغرب الاقصى) .

وقد جعل مسالمة على منطقة فاس رجلا من أقاربه يدعى (موسى بن أبى العافية) واشترط أن يخضع الادارسة لطاعته لكن فى النهاية خضعت فاس لحكمه المباشر فنفى من كان فيها من بقايا الادارسة إلى قلعة «حجر النسر» شمال المغرب فى جبال الريف فتجمع الادارسة هناك وارتبطوا بالناس واختلطوا بهم وأصبحوا أسرة مغربية عربية .

وقد حكم عبيد الله المهدى خمسة وعشرين عاما ثبت خلالها قواعد البيت الفاطمى فى افريقية والمغرب الاوسط والاقصى بالقوة العسكرية وجمع مالا وفيرا ولقد كان فى حكمه بعيدا جدا عما كان الناس يتصورونه فى المهدى الذى يعيد العدل إلى الارض ويرفع الظلم عن الناس وقد اتخذ منه فقهاء المالكية موقفا مضادا .

ولقد انتشرت المقاومة فى المغرب كله بفضل الفقهاء المالكية وقامت الثورات والفتن فى وجه الفاطميين ولم يستطع اقرار السكينةَ فى البلاد بسبب موقف فقهاء المالكية. ولقد كان هذا سببا فى محاولتهم فتح ميدان جديد بالاتجاه شرقا صوب مصر اذا تضافرت ضدهم جميع القوى المتحكمة فى مصير المغرب، الامويين فى الاندلس، والادارسة والزناتيين فى المغرب الاقصى بآزرهم المالكية فى كل مكان انتصارا للمالكية ولسياسية المقاطعة السلبية والايجابية .

وكان أن قرر عبيد الله المهدى أن يخفف من نشاط الدعوة للمبادئ الشيعية لان الدعوة الفاطمية فى المغرب لم تكسب أرضية لها وكان ذلك حافزا للمهدى على التفكير فى الاتجاه شرقا والانتقال بأهله وماله وهيئته وجنده إلى مصر ومحاولة الاستيلاء عليها .

عبيد الله المهدى ومحاولة الاستيلاء على مصر :

أرسل الفاطميون حملة عام ٣٠٠هـ/٩١٣م استطاعت القضاء على سلطان العباسيين فى برقة وكانت تعتبر تابعة اداريا لمصر وذلك تمهيدا لتحقيق أهدافهم لغزو مصر، وفى عام ٣٠١هـ/ ٩١٤م زحف جيش فاطمى بقيادة ابن الخليفة وولى عهده أبى القاسم وزحف على الاسكندرية والجيزة والفيوم ولكن هذا الجيش انتهى بالعودة بعد أن تصدت له جيوش الخلافة العباسية بقيادة «مؤنس الخادم» .

وفى عام ٣٠٢هـ جاء جيش فاطمى آخر بقيادة «مسالمة بن حبوس الكتامى» واستولى على الاسكندرية مرة أخرى، وتمت هزيمة هذا الجيش الفاطمى على يد «مؤنس الخادم» أيضا ولقد كانت هذه الحملة الفاطمية الثانية سببا فى ظهور شخصية «محمد بن طغج الاخشيد» وكان أحد عمال الادارة العباسية فى مصر اذ أسهم فى صد تلك الحملة الفاطمية الثانية وأظهر مقدرة فائقة مما جعله يسيطر مستقبلا على مصر، وفى عام ٣٠٧هـ جاءت حملة أخرى بقيادة أبى القاسم الفاطمى ثم تتابعت الحملات الفاطمية وكان أشدها خطر عام ٣٢١هـ واستطاع العباسيون صد هذه الحملة بفضل جهود «محمد بن طغج الاخشيد» وتلك هى الحملات الفاطمية التى تم ارسالها لفتح مصر فى خلافة عبد الله المهدى أول خليفة فاطمى .

وقد اضطررنا للحديث عن هذه الاعمال باعتباره انها أعمال تمت فى عهد الخليفة عبيد الله المهدى دون الحديث عن الدولة الفاطمية فى مصر لان ذلك يخرج

عن نطاق البحث وهو الدولة الفاطمية فى المغرب، وذلك باختصار شديد .

ثورة الخوارج بقيادة أبى يزيد :

لم يكد يعلن أبو يزيد الخارجى العصيان والثورة على الدولة الفاطمية حتى التفت حوله معظم القبائل وناصروه مدة طويلة إلى أن تمكن خلفاء الفاطميين من القضاء على هذه الفتنة وثورة أبى يزيد فى الواقع هى ثورة قومية مذهبية فهى ثورة قومية كان البربر وهم السكان الاصليون للمغرب العربى قوامها. وقد قاموا للقضاء على هذا الغزو الخارجى والذى تصوره فى قدوم الشيعة من الشام ولاسترداد استقلالهم .

لكن لا يبدو أن هذا السبب قوميا ذلك لان قبيلة كتامة التى ناصرت الدعوة الفاطمية كانت تعيش فى حال من البداوة وبعيدة عن المدينة والدولة الاغلبية لا تحاول الاحتكاك بها كما انها لم تبد عداوة للعنصر العربى وقد نصرت الدولة الفاطمية كوسيلة لمقاومة العنصر العربى فكيف يقوم أبو يزيد بثورته لسبب قومى وكيف أن الدولة الفاطمية قامت على أكتاف البربر فكان الغرض من قيامها قومى فى ثوب اسلامى فكيف تكون ثورة الخارجى ثورة قومية .

لكن الحقيقة التاريخية أن أبا اليزيد الخارجى أعلن ثورته ومقصده قبيلة زناتة التى ربما تكون قد رأت فى نفوذ كتامة فى الدولة الجديدة من أسباب الثورة، لكن السبب الرئيسى أن أبا يزيد كان يريد حكما اسلاميا صحيحا قائما على الشورى والديمقراطية وحرية المسلمين فى اختيار خليفتهم وهو المبدأ الاول من مبادئ الخوارج (أنظر دولة بنى رستم فى تاهرت) الجزء الثانى من هذه الموسوعة وثورة أبى اليزيد ثورة مذهبية لان زعيمها كان من الخوارج النكارية فهو لا يؤمن بمبادئ الشيعة التى قامت على أسسها الدولة الفاطمية ومن هنا فهى ليست ثورة قومية مغربية ضد الفاطميين بقدر ما هى الا ثورة لقيام نظام حكم خارجى يخالف حكم الشيعة .

وقد ظهرت ثورة أبى اليزيد مخلد بن كيداد الناكرى فى عهد خلافة عبيد الله المهدى وبدأ يستكثر من الانصار فى عهد خليفته أبى القاسم والخليفة المنصور. فقد بدأ ثورته على الدولة فى عام ٣٢٢هـ. وكانت فتنة خطيرة كادت تقضى على الدولة فى مهدها. وقد لقب هذا بصاحب الحمار.

وكان أبو اليزيد هذا فى أول أمره معلم لتحفيظ القرآن الكريم وفى هذه المهنة قضى معظم وقته فلما شتد غليان أهل المغرب غضبا على الفاطميين بسبب السياسة المالية التى اتبعوها حين أثقلوا كاهل الاهالى بالضرائب التى فرضوها من أجل ايجاد موارد جديدة للدولة وكانت أكثر مما تعود الاهالى أن يدفعون أيام حكم الاغالبة .

وتزعم هذا الرجل وقبيلته الثورة وظهر الرجل فى أول أمره بمظهر الزهاد فكان يركب حمارا ينتقل به بين الجبال والقبائل فلقب بصاحب الحمار وكان الرجل مسنا عندما قاد الثورة اذ كانت سنه تقارب التسعين واستغل معارضة البربر للمذهب الشيعى لاسيما وأن الفاطميين بدأوا بلعن الشيخين أبى بكر وعمر فى خطبة الجمعة وقام أهالى المغربين الادنى والاوسط بالثورة التى اقتضت كثيرا من الضحايا والشهداء. وانضمت اليه القبائل فى حماس شديد وأيده أهل افريقية اذ لم يكشف عن نحلته الاباضية النكارية وانما أعلن انه ثائر للعدالة والاسلام وكراهية البدع التى أراد الفاطميون ادخالها على العقائد والعبادات .

وكانت هذه الثورات كما سبق القول ظهرت أيام المهدى الا انه لم يطل به العمر لسحقها .

وكان أبو اليزيد ابنا لتاجر من السودان درس مبادئ المذهب الاباضى حق الدراسة حتى أصبح عالما فيه وقام بنشر دعوته فى منطقة الجريد وهو راكب حمارا يتبعه أبناؤه وزوجته وانتقل إلى تاهرت وأفلح فى اقلاق جانب الفاطميين لا سيما فى منطقة أوراس

وقاد الناس بتقشفه ونسكه فنجح فى حصار القيروان بعد أن نجح فى سحق جيش شيعى أرسله له الخليفة من المهدية ولكن المدينة قاومت الحصار لمدة طويلة حتى انتصرت واضطر أبو اليزيد إلى فك الحصار ليركز قواته حول سوسة .

الخليفة الفاطمى الثانى القائم بأمر الله أبو القاسم

نزار بن عبيد الله الشيعى

١٤ ربيع الأول ٣٢٢–١٣ شوال ٣٣٤هـ–

٩٣٤– ٩٤٥م

بويع الخليفة القائم بأمر الله بعد وفاة والده عبيد الله الشيعى وهو الذى كان يصحبه عند قدومه من سلمية بالشام وعاش معه أحداث الدولة الشيعية ومن هنا كانت له كل الخبرة ومارس قيادة الجيوش وشئون الدولة وشارك والده فى كثير من المهام التى أدت إلى تثبيت دولتهم وكان قد استولى على طرابلس كما رأس حملتين وجهتا إلى مصر كما سبق القول وتابع أعمال والده فى جنوب فرنسا ومنطقة جنوه وسيطر عليها لبضعة أشهر ثم تركها بعد أن حمل منها عددا هائلا من الأسرى وكان قد عرف عليهم اطلاق الأسرى المسلمين عندهم فرفضوا فأخذ أسرى جنوه مقابل أسرى المسلمين .

فى عهده زاد اتساع الثورة التى يقودها أبا اليزيد قد بلغ حد أن اسم الخليفة أبى القاسم لم يذكر فى الخطبة كما لم يصدر سكة ممهورة باسمه لابى العباسى ونجحت قواته فى تخليص سوسة كما دخل القيروان وعفا عن أهلها .

وكان الخليفة أبو القاسم قد بذل جهودا جبارة فى مقاتلة أبى اليزيد وأتباعه وجيشه .

ولقد كانت حركة أبى اليزيد بدون خطة موضوعية ولم تكن لها أهداف لتكوين دولة فما أن بلغ هذا القدر من النصر حتى وقف حائرا وأساء السيرة مع كثيرا من القبائل مما قلل الثقة فيه ووفرت الكثير من القبائل من حوله .

وكان تنظيم الدولة الشيعية الجديدة وثورة أبى اليزيد قد استنفذت جهداً كبيراً من الخليفة الشيعى الثانى فى المغرب وشغلته عن التفكير الجدى فى توسيع سلطانه واخضاع بقية المغرب العربى بأقسامه الثلاثة الاوسط والاقصى بعد بسط النفوذ الشيعى على افريقية (تونس) .

وكانت ثورة أبى اليزيد قد استغرقت أربعة عشرة عاما شغلت عصر القائم بالله نزار كله وعامين من عهد ابنه أبى العباسى اسماعيل المنصور .

الخليفة الشيعى الفاطمى الثالث (المنصور بنصر الله أبو الطاهر اسماعيل)

(١٣ شوال ٣٣٤- ٢٩ شوال ٣٤١هـ- ٩٤٥- ٩٥٢م)

مات الخليفة الشيعى الثانى أبى القاسم وترك عرش الخلافة لابنه أبى العباسى اسماعيل والذى حكم سبع سنوات هجرية ركز كل جهوده فيها للقضاء النهائى على ثورة أبى اليزيد الخارجى ودخل القيروان بعد بضعة أيام من ارتقائه العرش. وكان الخارجى قد تمكن من اجتياح بلاد الفاطميين وألجأ المنصور الفاطمى إلى التخفى فى المهدية وحاصره فيها، لكن دارت المعركة التى انتصر فيها وأعقبها الخليفة بتتبع الثائر وأنصاره بقتلهم أينما وجدوا والتجأ أبو اليزيد إلى جبال خضنة وظل يقاوم مع قلة من

أنصاره المخلصين حتى مات من جراء ما أصابه من جراح قاتلة فى أغسطس عام ٩٤٧م.

وكان المنصور قد انتظر فى حصنه حتى اذا ما رأى أن ذلك الثائر يتفرق عنه رجاله ويضعف فانه أرسل اليه قائده (بلكين بن زيرى بن مناد الصنهاجى) (أنظر الجزء الرابع من الموسوعة. الدولة الزيرية) فأقبل برجاله وتغلبوا على الثائر الذى انصرف عنه الناس ففر إلى الجبال ومازال الفاطميون يتبعونه حتى قبضوا عليه فقتلوه وتمكنوا أخيرا من القضاء على هذه الفتنة وبذلك استقرت الدولة على أسس قوية متينة وبدأت نوجه جهودها نحو توسيع ملكها غربا وشرقا .

لكن على الجانب الآخر من يقول انه بانتهاء ثورة أبى اليزيد انتهت أيضا قوى الفاطميين فى المغرب فقد تزعزعت دولتهم وخاف المنصور أن يسيطر عليه الصنهاجيون أصحاب القوة فى دولته فارتد إلى الكتاميين بعد طول انصراف عنهم .

وكان الخليفة السابق أبى القاسم قد قام ببناء مدينة جديدة أسماها المحمدية [١]، وكان الخليفة الثالث قد لقب نفسه بعد الانتصار على أبى اليزيد الخارجى لقب المنصور وبنى لنفسه عاصمة جديدة حملت اسم المنصورة أو المنصورية والتى أصبحت مركزا تجاريا هاما. وكانت المحمدية والمنصورية مدينتين داخليتين غير انه لم تكن لهاتين المدينتين من الشأن أو الاثر فى سياسة الدولة وحياتها قدر ما كان للمهدية .

وكان المغرب الاقصى قد انتهز فرصة الاضطرابات التى سادت دولة الفاطميين ليعترف بسلطة بنى أمية فى الاندلس عليه بقيادة موسى بن أبى العافية كما ثارت

(١) كانت مدينة المحمدية قد بنيت عام ٣١٥هـ وهى مدينة داخلية لم يكن لها شأن أو أثر فى سياسة الدولة أو حياتها قدر ما كان للمهدية العاصمة، فقد كانت المهدية مركزا حصينا يعتمد على البحر، وكانت المنصورية أو المنصورة التى بناها المنصور هذا مثل المحمدية .

تاهرت عاصمة بنى رستم لكن المنصور استطاع أن يحرز الانتصارات الرائعة على هذه المدينة وأن يقضى على الثورات وأن يعيد اليها الهدوء .

لكن قبائل زناتة استطاعت أن تنسحب إلى المغرب الاوسط بالقرب من المغرب الاقصى وتقيم لها حكومة مستقلة بجوار تلمسان تحت قيادة زعيمها محمد الكبير فأرسل المنصور قوات كبيرة نجحت فى سحقها فهاجر الثائرون إلى المغرب الاقصى وتحصنوا فيه حيث كان «حميد بن بعيل» يحكم باسم خلفاء قرطبة الامر الذى كاد أن يجعل حكم الفاطميين يكون محصورا فى الشرق فتقدم المنصور إلى المغرب وأقام حاكما جديدا فى تاهرت ينصره احدى أبناء صنهاجة هو «زيرى بن سناد» كما قضى على ثوار المغرب الأقصى وأعاد الهدوء اليه وبذلك امتد الحكم الفاطمى من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب وان كان قد اضطر من أجل ذلك إلى قبول مبدأ يتنافى مع المذهب الشيعى .

الخليفة الفاطمى الرابع (المعز لدين الله أبو تميم سعد)

(ذى القعدة ٣٤١- ربيع الاخر ٣٦٢هـ-

٩٥٢- ٩٧٢م)

حكم الخليفة الفاطمى الرابع والاخير فى المغرب أكثر من عشرين عاما هجريا. اذ انه عندما توفى الخليفة المنصور جاء بعده ابنه المعز لدين الله فانه رأى أن باب الخلاص من أزمات المغرب هو التفكير فى غزو مصر والتى كان جده الاكبر المهدى قد وضع أساس بناء الدولة الفاطمية بالاستيلاء على مصر ثم مزاحمة الدولة العباسية فى المشرق للسيطرة على مقاليد الامور فى بغداد .

لكن المعز لدين الله لما ولى عرش الخلافة استمال اليه بالسياسة والاحسان بقية الثائرين من قبائل البربر ففى عام ٣٤٧هـ أعد جيشا عظيما جعل قيادته لرجلين هما وزيره جوهر الصقلى وزيرى بن مناد الصنهاجى. وأمرهما بالمسير إلى المغرب الاقصى. وسار الجيش إلى أن وصل إلى فاس فاستعصت عليه قليلا فتركها إلى سجلماسة وكان يحكمها محمد بن واسول. وكان قد لقب نفسه بالشاكر لله وخوطب بأمير المؤمنين وضرب السكة باسمه مدة ستة عشر عاما فلما سمع بقدوم قوات الخليفة الفاطمى اليه فر من المدينة لكنه أسر وحمل إلى القائد الفاطمى بعد أن استولى على المدينة .

ومن الثابت أن الدولة الفاطمية التى بلغت ذلك المبلغ من القوة فى عهد خليفتها المعز لدين الله كانت لها أطماع جدية فى الاندلس يحدوها إلى ذلك دافع الاختلاف المذهبى الذى يكفى لان يكون السبب الرئيسى للقضاء على الحكم الاموى فيها. واقترنت مطامع الخليفة الفاطمى بخطوة عملية فى هذا الاطار عندما قام أحد أعوانه بمهمة خاصة فى الاندلس وهو الجغرافى المعروف (ابن حوقل) منتحلا شخصية تاجر ليدرس ظروف البلاد ومدى قوتها العسكرية ويبدو أن تحويل امارة الاندلس إلى خلافة وتسميةعبد الرحمن نفسه بأمير المؤمنين كان من الاسباب التى أثارت الخليفة الفاطمى المعز لدين الله ودفعته إلى محاولة التخلص من خصم سياسى ومذهبى مجاور ينافسه فى اللقب الذى يعتبره الفاطميون أحد مكتسباتهم الشرعية التى أجازتها لهم تلك الصلة السلالية مع الرسول ﷺ .

ولاشك أن الظروف كان لها دورها فى حسم هذا الصراع بان الخليفتين الفاطمى والاموى وانقاذ الاندلس من غزو مرتقب على يد الدولة الفاطمية النامية فى المغرب فهذه الاخيرة لم يكن الامويون وحدهم خصومها فى الاسلام بل كانت لها خصومة أخرى لاتقل ضراوة متمثلة فى الخلافة العباسية التى كانت علاقات الشيعة

معها تمتاز بنفس المرارة والبغضاء ولقد كانت هذه الاخيرة الهدف الرئيسى لنضال الدعوة الفاطمية الرامية إلى تزعم العالم الاسلامى بعد تحويله إلى المذهب الشيعى وكان الزمن فى صالح الفاطميين بعد سلسلة من الازمات السياسية التى عصفت بخلافة بغداد وكانت مصر التى خرجت عمليا من قبضة العباسيين تجتذب اهتمام الخليفة الفاطمي لتكون مركز دولته الفاطمية فكانت الانظار تتجه كليا نحو الشرق حيث سقطت مصر في يد جوهر الصقلى كبير قواد المعز لدين الله الفاطمى .

وهكذا نرى كيف أن الدولة الفاطمية قضت فى المغرب أكثر من نصف قرن وتولى الحكم فى هذه الفترة أربعة من خلفائها وقد بذل هؤلاء الخلفاء جهودا كثيرة للتمكين للدولة وتقويتها بالعناصر المقيمة بها .

وكان الغرض الاساسى الذى سعى العلويون دائما لتحقيقه هو تكوين خلافة جديدة تقضى على الخلافة العباسية السنية وترثها فى ملك العالم الاسلامى وقد رأينا فى هذا الغرض كيف نجح الفاطميون فى تحقيق الشطر الاول من غرضهم فأقاموا دولتهم فى المغرب ولكنهم لم ينسوا بعد نجاحهم الشطر الثانى والاهم وهو القضاء وفى الدولة العباسية ومصر هى أول جزء من أملاك العباسيين يجاور الدولة الفاطمية من ناحية الشرق وقد اتجه هم الفاطميين منذ اللحظة الاولى لقيام دولتهم فى المغرب إلى عدم الاستقرار فيه لاسيما وانهم كانوا يعتمدون على قبيلة واحدة هى كتامة وهى وان انضمت اليها صنهاجة بعد ذلك رغبة فى مشاركة كتامة ماحصلت عليه من قوة الا انهما معا كانا أضعف من أن يصدا عن الدولة خطر القبائل البربرية الاخرى .

وقد رأينا فى العرض السابق الادوار التى قامت بها هذه القبائل وما أخذت من جهد الخلفاء قدرا كبيرا ومنعتها لان مد سلطانها إلى بقية المغرب الا بعد جهد كبير ومن هنا كان التفكير فى غزو مصر لان مصر أقرب إلى الحجاز من المغرب والقابض

على الحجاز مركز الحرمين الشريفين هو القابض على قلوب المسلمين .

فكان فتح مصر فى شعبان عام ٣٥٨هـ. وفى رمضان عام ٣٦٢هـ دخل المعز لدين الله الفاطمى القاهرة .

الباب الرابع

الانجازات الفاطمية فى المغرب فى عهد الخلفاء الاربعة

حكمت الخلافة الفاطمية بلاد المغرب فترة حكم الخلفاء الأربعة ما يقرب من خمس وستين عاما هجريا أو نحو ستين عاما ميلاديا فقد حكموا بلادا واسعة الاطراف تمتد من طرابلس فى ليبيا شرقا إلى منتصف المغرب الاوسط ولم تخرج عن سلطانهم الا منطقة تلمسان. وانطوأت تحت الشيعة قبائل مغربية عديدة وكانت قاعدة مالكهم مدينة المهدية فى أفريقية وهى قاعدة حضارية منذ فتحها عقبة بن نافع فى الفتح الاول. وكان سلطان الفاطميين فى المغرب واسعا وعريضا وكانوا يستطيعون أن يجعلوا أهلها يعيشون فى بحبوحة (سعة) من العيش. ولكنهم لم يعمروا من البلاد الا مدينة المهدية. وكانت قاعدة خاصة لهم. أما. القيروان وتونس وسوسة والحمامات والمتنزه وغيرها من المدن فلم يخلف الفاطميون فيها أثرا بل لم ينشؤا مسجدا باقيا لهم دون مسجد المهدية.

وكانت سياستهم تقوم على جمع المال بكل الطرق والوسائل. وكانت افريقية بالنسبة لهم مستقرا مؤقتا ومصدر ثروة وعندما غادروا المغرب إلى مصر خف حماسهم لمذهبهم الشيعى .

والشئ الوحيد الذى يمكن أن يذكر للفاطميين فى المغرب هو نشاطهم البحر فقد كانت أساطيلهم تسيطر على مياه البحر المتوسط .

الفاطميون والبحرية

ولذا لم يكن الفاطميون منذ سيطرتهم على بلاد المغرب أقل اهتماما بشئون البحر من الدول التى بسطوا سلطانهم عليها؛ خاصة الأغالبة بل انهم فاقوا الاغالبة فى

الاهتمام بالاسطول. وذلك تدعيما لنفوذهم وتمكينا له فى بلاد المغرب وفى جزر البحر المتوسط الغربى .

ولقد كان انشاء المهدية كعاصمة لهم أثر عظيم فى تدعيم أسطول افريقية فقد كانت دار صناعة للسفن أكثر من دار الصناعة بتونس وكان المهدى حريصا على انشاء أسطول ضخم مزود بالرجال والعتاد .

فقد نجح المهدى فى ضم صقلية عام ٣٠٤هـ. كما أن المهدى سير السفن إلى مصر لنجدة ابنه القائم لفتحها ولكن هزم الاسطول الفاطمى وجاءت هذه الهزيمة حافزا للمهدى على زيادة العناية بالاسطول .

لكن بعد الهزيمة بأربع سنوات استعادت الاساطيل الفاطمية هيبتها ومن ذلك تحرك الاسطول للغزو فى البحر عام ٣١١هـ. ثم غزو جزيرة جربة ثم تطلع المهدى بعد ذلك إلى غزو ايطاليا فى صقلية فتم غزو اقليم قلورية والاستيلاء على مدينة «اغماش» وفى عام ٣١٣ تم غزو جنوب ايطاليا من صقلية وتم فتح مدينة «سدارى» وفى عام ٣١٥هـ تم غزو بعض السواحل الايطالية .

ولقد عكف الفاطميون على العناية بالاسطول وزيادته حتى لقد أصبحت المهدية من أهم الموانئ الحربية فى حوض البحر الابيض كما غزا الفاطميون سردانية عام ٣٣٣هـ وجنوه ومرسيليا فى جنوب فرنسا وأرسلوا حملة بقيادة سالم بن راشد عبرت مضيق مسينة وثبت سيادتهم فى جنوب ايطاليا وأرغمت الاهليين على دفع الجزية وقد فاقت الاساطيل الفاطمية غيرها من الاساطيل الاسلامية فى عنف هجومها وجرأتها .

وكان يتم الغزو المتواصل لجنوب ايطاليا باستمرار بل يكاد يكون سنويا، ويبدو أن هذا الغزو المتواصل الذى قام به الفاطميون من قواعدهم فى صقلية وأفريقية كان سببا

فى عودة ظهور القوة البحرية البيزنطية فى البحر التيرانى لمواجهة الغزو الفاطمى. لكن الفاطميين زادوا من قوة أساطيلهم فأرسل القائم بالله بن المهدى فى عام ٣٢٣هـ أسطولا كبيرا لتدعيم النفوذ الفاطمى فى مياه البحر التيرانى واستطاع هذا الاسطول ان يهاجم مدينة جنوة ويقتحمها وهاجم جزيرة سردانية ثم كورسيكا وأحرق كثيرا من السفن الراسية بها .

وما أن فرغ الفاطميون من اخماد ثورة «أبو اليزيد الخارجى» حتى عادوا من جديد إلى مهاجمة سواحل ايطاليا فخرج أسطول من صقلية هاجم بلاد قلورية ومدينة بارة وجراجة وقلعة قسانة الا أن الخليفة المنصور الثالث الفاطمى أرسل إلى حاكم صقلية يأمره بالعودة إلى قلورية فامتثل لامر الخليفة وعبر المجاز إلى «ريو» ثم إلى «جراجة» واشتبك المسلمون مع البيزنطيين فى ٩ ذى الحجة عام ٣٤٠هـ فانهزم الاسطول البيزنطى هزيمة نكراء وأكثر المسلمون فيهم القتل وغنموا غنائم هائلة وقتل البطريق وحاكم الاقليم وهكذا عجز البيزنطيون عن مواجهة المسلمين واضطر الامبراطور البيزنطى قسطنطين السابع إلى طلب الهدنة فهادنه المسلمون وعاد الحسن الكلبى حاكم صقلية إلى ريو وبنى بها مسجدا جامعا .

لكن التقارب السياسى بين بنى أمية فى الاندلس والبيزنطيين بسبب عدائهما المشترك للدولة الفاطمية قضى على السلام ومن ثم استأنف الفاطميون غزوهم لسواحل ايطالية وفى نفس الوقت هاجموا أسطول الاندلس فى مدينة المرية وأحرقوا جميع مافيها من السفن .

الفاطميون وصقلية :

لجأ إلى جزيرة صقلية كثيرا من المسلمين من أهل السنة من البلاط الاغلبى بعد خضوع افريقية للشيعة وفى صقلية انحاز إلى الدعوة الفاطمية وآل سابق على الجزيرة

كان قد عزل وهو على بن أحمد بن أبى الفوارس وتزعم الفتنة المناصرة للفاطميين وتغلب على بقايا الاغالبة وأقر المهدى عبيد الله الفاطمى على بن أحمد واليا على الجزيرة الا انه عزل وولى الفاطميون أحد رجالهم وهو أكثر اخلاصا وهو الحسن بن أحمد المعروف بابن أبى خنزير وبذلك توطد الحكم الفاطمى فى صقلية عمليا ونظريا الا انه قامت ثورة على الوالى الجديد لاسباب طائفية (شيعة وسنة) وأصدر المهدى قرارا بالعفو عن الثائرين ووافق على عزل ابن أبى خنزير وتولية على بن عمر البلوى .

لكن سادت عدة ثورات بالجزيمة استغرقت فترة مما اضطر المهدى أن يرسل جماعة من شيوخ قبيلة كتامة الذين يرجع اليهم الفضل فى تولى الفاطميين الحكم والذين كانوا يشكلون العمود الفقرى للجيش وتمكن هؤلاء البربر ومعهم الوالى الجديد «أبو سعيد موسى بن أحمد السقيف» من دخول العاصمة بلرم عام ٩١٧م. وألقى القبض على زعماء الثورة وأرسلوا إلى المهدية عاصمة الفاطميين حيث أعلن العفو عنهم. ومن ثم توطد النفوذ الفاطمى فى الجزيرة ولما فرغ أبو سعيد من مهمته التى أرسله المهدى من أجلها ترك الجزيرة وعاد إلى افريقية وولى بدلا منه سالم ابن راشد الذى حكم الجزيرة عشرين عاما (٩١٧- ٩٣٧م) وفى تلك الفترة توفى الخليفة المهدى عام ٦٣٤هـ وخلفه ابنه أبو القاسم محمد القائم (٦٣٤- ٩٤٦م) .

وكانت سياسة الفاطميين تقوم على استغلال الظروف وعلى التسامح وقد استمرت الدعوة الشيعية الاسماعيلية ولكن بكياسة كبيرة وتركت معظم المدن المسيحية وشأنها ومن الناحية الادارية أنشئ ديوانات أحدهما يتناول شئون الحرب والامن والنظام ويتناول الثانى بقية مجالات الادارة والسلطة الداخلية وكان هناك صاحب شرطة وزعيم محلى لبربر كتامة فى صقلية .

واستمرت الجزيزة تعيش بعض الثورات التى كان يشق فيها عصا الطاعة بعض

الثائرين لكن بعد الانتصار النهائى للفاطميين فى افريقية على أبى اليزيد الخارجى استعمل الخليفة الجديد المنصور بالله (والذى حكم ٩٤٦- ٩٥٤م) سبع سنوات القوة والشدة وولى الحسن بن على بن الحسن الكبلى .

وكانت الجماعات الاسلامية فى الجزيرة تفتقر إلى وحدة الكلمة وذلك ساعد على بقاء بعض المسيحيين فى الجزيرة، ويقارن مسلمو الجزيرة بالمولدين فى الاندلس فى كثرتهم ودخولهم الاسلام طوعا وحيا فى لا اله الا الله محمد رسول الله وكانت السيادة للنخبة العربية .

ولعل الولاة الكلبيين الذين كانوا على ولائهم للسيادة الفاطمية شيعة ظاهرين وكذلك بالنسبة لبعض الحكام الذين كانوا يتظاهرون باعتناق المذهب الشيعى الاسماعيلى. الا أن المذهب الشيعى قد تسرب إلى بعض العامة، وليس هناك دليل على وجود كتب فقيهة شيعية اسماعيلية ألفت فى الجزيرة وهذا يدل على أن صقلية فى عهد الكلبيين حكام الفاطميين حظيت بتسامح دينى فيما يتعلق بالمذاهب الاسلامية .

وكان عدد المساجد ببلرم العاصمة يزيد عن عددها فى أية مدينة أخرى وكان الناس يتباهون بأن لهم مساجد خاصة بعائلاتهم ومواليهم وكان سكان بلرم (بالرمو) من مختلف الاجناس كالعرب والبربر والسودان والصقلية والفرس والترك واليهود والايطاليين.

ولقد قام الكلبيون بدور كبير فى فتح جميع أجزاء صقلية وعملوا على الاستقلال بحكم الجزيرة ونشر الاسلام فيها ومقاومة البيزنطيين فى البحر الابيض المتوسط لمدة قرن من الزمان تقريبا حتى استولى على الجزيرة روجار النورماندى .

ويلاحظ أن أسماء الاماكن العربية الاسلامية والمزارع قد بقيت إلى يومنا هذا

تشير إلى تمكن الاسلام والعروبة فى الجزيرة وكانت صقلية احدى المراكز التى انتقلت منها الحضارة الاسلامية إلى أوربا وكانت المساجد مراكز للنشاط الفكرى والعلمى وكانت صقلية ملجأ أميناً يلجأ اليه العلماء المضطهدون فى المغرب وكان علماء صقلية يرححلون أيام الاضطربات إلى المغرب ومصر. بل انهم كانوا يرحلون إلى جهات أبعد شرقا طلبا للعلم أو لتأدية فريضة الحج. وان حركة العلماء هذه من صقلية واليها أبقت على الجزيرة فى المجرى الرئيسى لحركة العلوم الاسلامية وقد استفادت صقلية فى القرنين الرابع والخامس للهجرة على وجه الخصوص من التيارات الفكرية الاسلامية التى نمت فى القيروان لاسيما أيام حكم الاغالبة .

ولقد كان من الطبيعى أن تمارس صقلية العربية الاسلامية دورها الحضارى والثقافى والتعليمى لابناء أوربا وذلك لكونها قريبة من أوربا بالاضافة إلى انتشار اللغة العربية على نطاق واسع بين السكان والذين كانوا يتخاطبون بها .

فقد اشتهر فى صقلية العديد من العلماء ورجال الدين والفقه والحضارة والتاريخ والطب والهندسة والجغرافية بعد أن ازدهرت هذه العلوم بها بل اشتهر علم الكيمياء بها وكان يمارس تدريسه على نطاق واسع لاسيما فى تحويل المعادن .

ان الفاطميين الذين سلموا صقلية بعد أن آلت من حكم الاغالبة إلى الكلبيين الذين حكموها أكثر من تسعين عاما قد أدت دورا حضاريا لايقل عن الدور الذى لعبته الاندلس فى الحضارة الاوربية والذى استفاد منه النورمان الذين أسقطوا الحكم العربى الاسلامى الكيلى من الجزيرة وبذلك نرى أن انجاز الفاطميين فى المجال البحرى قد ساعد على توطيد النفوذ الفاطمى ولاسميا أثناء حكم الكلبيين .

وكان الانجاز الكبير بالاضافة إلى الانجاز البحرى وحكم صقلية هو فتح مصر واقامة خلافة فاطمية اسماعيلية شيعية على الترب المصرى .

الفتح الفاطمى الشيعى لمصر :

تحدثنا سابقا عن المحاولات التى قام بها الخليفة الشيعى الاول المهدى لفتح مصر والمحاولات التى قام بها سلفه من الخلفاء حتى جاء الخليفة الرابع والاخير فى المغرب وهو المعز لدين الله. وكانت عينه على مصر يرقب ما يجرى بها وماهى الامور التى آلت اليها الاحوال بها .

وكان دعاة الشيعة الاسماعيلية ينتشرون فى ربوعها الواسعة ينشرون الدعوة الشيعية ويمهدون الطريق لقدوم المعز لدين الله فاتحا وكان هو نفسه يعد العدة للغزو المرتقب .

وبولايته بدأ فصل جديد فى حكم الجزيرة هو حكم أسرة الكلبيين؛ اذ أدت ولاية الحسن بن على الكلبى على جزيرة صقلية إلى تأسيس أسرة شبه مستقلة من أمراء الكلبيين حكمت الجزيرة أكثر من تسعين عاما وقد ظلت مقاطعة قلورية فى جنوب ايطاليا عرضة للغزو الاسلامى البحرى وكان توطيد حكم أسرة الكلبية تحت السيادة الفاطمية دافعا لتكرار الغزو والفتح الا انها كانت غزوات كر و فر لاسيما فى ايطاليا وجنوب فرنسا .

ولم يحدث تغير كبير على الخريطة السكانية لصقلية فى حكم الفاطميين للجزيرة وكانت كثافة السكان المسلمين ما زالت فى اقليم مآزر بدون زيادة وكان الوافدون المسلمون الجدد إلى الجزيرة من الصناع والجند والنازحين وقد ضم سكان الجزيرة الاحرار والتابعين والاقطاعيين والرقيق وكان الجزء الشرقى من الجزيرة يضم أغلبية مسيحية خصوصا أقليم «دمنش» ومما يذكر أن جوهرا قائد الفاطميين الشهير الذى وسع رقعة سلطان الفاطميين غربا فى المغرب وشرقا فى مصر كان من أصل صقلى بيزنطى لكنه أسلم وحسن أسلامه .

وقد شغل المسلمون الصقليون مناصب سامية فى الادارة الفاطمية فى افريقية ومن بينهم أبو الفتح حاكم مدينة طرابلس وكان أحد قواد الجيش واسمه بشرى وهو القائد الفاطمى ضد الثائر أبى اليزيد الخارجي وبعد أن أسس أسرة الكلبى عرشهم فى صقلية فان الوضع استقر بها وتم غزو البر الايطالى مرتين فى عامى ٩٥٠، ٩٥٢م. وعند وفاة الخليفة الشيعى الثالث فى المغرب المنصور وتولى ابنه المعز لدين الله العرش (٩٥٣م) توجه الحسن الكلبى إلى المهدية العاصمة للمثول فى البلاط الفاطمى تاركا ولاية صقلية فى أيدى ابنه أحمد بن الحسن . وفى عام ٣٤٤هـ/ ٩٥٦م سير المعز الفاطمى الحسن بن على الكلبى إلى الاندلس لقيادة الاسطول الفاطمى والذى أحرق الاسطول الاندلسى فى المرية .

وفى عام ٩٦٩م لم يكن فى نية الفاطميين تنصب الاسرة الكلبية كأسرة دائمة حاكمة بالوراثة لصقلية وكان الخليفة المعز لدين قد استدعى إلى افريقية جمع كبير من أفراد الاسرة الكلبية ومواليهم وأتباعهم وحاشيتهم وعهد بالولاية إلى (يعيش مونى الحسن بن على) لكن المعز اضطر إلى استدعاء يعيش وارسال أبى القاسم على بن الحسن الكلبى نائبا عن أخيه أحمد. وبذلك اعترف الفاطميون ضمنا بحكم الكلبيين للجزيرة الوراثى .

وفى عام ٣٦١هـ/ ٩٧٢م نقل المعز لدين العاصمة الفاطمية من المهدية إلى القاهرة وكان معنى ذلك أن الكلبيين فى صقلية حظوا بمزيد من الاستقلال، فالوالى الزيرى (أنظر الجزء الرابع من الموسوعة) حاكم افريقية باسم الخليفة الفاطمى لم يمنح سلطة على صقلية وكان رضا السكان المسلمين فى صقلية من عوامل تدعيم عرشهم الوراثى والهدوء النسبى فى الجزيرة والتوسع فى انشاء المدن الاسلامية وحاجة الفاطميين إلى جماعة وفية لهم فى صقلية يستفيدون منها فى خططها البحرية

والكلبيون ظلوا على ولائهم التام للفاطميين .

وخلال فترة حكم الكلبيين استمر النشاط البحرى والعسكرى الاسلامى من صقلية وغيرها ضد جنوب ايطاليا وكان معظم سكان صقلية من المسلمين فيما عدا اقليم دمنش وكانت سياسة الكلبيين زيادة عدد المدن الاسلامية فى اقليم دمنش ونطش اللذين كانت بها نسبة مسلمة قليلة العدد وزاد اعتناق السكان للدين الاسلامى بالاضافة إلى هجرة المسلمين من بلاد المغرب العربى وقد حدثت هجرة كبيرة إلى صقلية عام ١٠٠٤هـ وتلت ذلك هجرات كبيرة كما حدثت هجرة من جانب الشيعة الاسماعيلية الذين اضطرهم الامير الزيرى المعز بن باديس إلى الفرار وكان عدد سكان المسلمين فى صقلية يزيد عن مليون نسمة فى ذلك الوقت .

وكان المذهب المالكى هو مذهب معظم سكان صقلية من المسلمين، وان كان المقدسى يذكر أنه يوجد أكثرية على المذهب الحنفى مذهب الخلافة العباسية لكن انتشر المذهب الشيعى فى الجزيرة ولكن لم تكن له الغلبة والسيادة على المذاهب الاخرى اذ كان أكثر السكان على المذهب المالكى .

وكان غزو مصر والانتقال اليها هو الهدف الاساسى للخليفة الفاطمى الرابع فى المغرب وهو أبو تميم والملقب بالمعز لدين الله الذى تولى الخلافة شابا فى ذى القعدة عام ٣٤١هـ/ ٩٥٣م. ولقد كان المعز لدين الله أقدر الفاطميين وأبعدهم نظرا بعد أن رأى انه من المستحيل العيش فى المغرب بعد أن نفر الناس فى افريقية منهم واعتبروا الشيعة زنادقة. ثم أن محاولات السيطرة على المغرب الاوسط والاقصى لم تكن تؤدى إلى نتيجة، ذلك لان المغرب الاقصى كان أيام الامويين أصحاب الاندلس فى ظل حكم المنصر الذى خلف أباه عبد الرحمن الناصر لدين الله ٣٥٠/ ٩٦١م كانت لهم السيادة عليه وكان سكانه يرون أن الفاطميين خارجون عن الاسلام وحربهم جهاد

مقدس فكدس الجانب الكثير من قواته لحربهم فى المغرب وتمكن من طردهم من المغرب الاقصى والقضاء على أنصارهم فيه وفشل المذهب الشيعى فى أن يجد له مكان فى المغربين الاوسط والاقصى .

وكان المعز يعد العدوة لغزو مصر فجمع كل ما استطاع من مال حتى يقال انه صرف على إعداد الجيش أربعة وعشرين مليونا من الدنانير عدا ما حمله ألف حمل من صناديق الذهب للصرف منها على الحملة وحشد للجيش كل ما استطاع حشده من جنده حتى انه كان يزيد عن مائة ألف جندى وقد وصفه أحد المصريين عند رؤيته بأنه مثل جمع عرفات كثيرة وعدة .

ومن حسن حظ المعز لدين الله انه كان يخدمه شاب ذكى من خيرة صقالية الفاطميين هو جوهر الصقلى فقد كان قائدا ماهرا وجنديا مخلصا ورجلا صاحب سياسة ونظر وتدبر وبعد أن غزا المغرب كله إلى المحيط الاطلسى ودخل فاس عاصمة الادارسة مرة أخرى وضرب سجلماسة عاد ليبلغ سيده ألا أمل فى بقاء الفاطميين فى المغرب وان الامل الوحيد الباقى هو الاستيلاء على مصر .

ومن هنا كان اختيار المعز لدين الله لقيادة جيشه الذاهب إلى مصر قائده القدير (جوهر الصقلى) الذى مهد له ملك المغرب كله فقد كان يتفاءل به ويؤمن بقدرته الحربية حتى لقد قال مرة لزعماء المغرب (والله لو خرج جوهر هذا وحده لفتح مصر) ولم يكن من العسير على جوهر الاستيلاء على مصر. فقد وضع جوهر تحت تصرفه كل مالدى الفاطميين والكتاميين وكل ما حصلت عليه يداه من قوة ومال .

وكانت ظروف مصر الداخلية تؤهله للقيام بهذا العمل الحربى الذى سوف يحقق نجاحا باهرا فقد مات كافور الاخشيدى عام ٣٥٧هـ. فانهارت المقاومة وكثر الاضطراب وتعددت الفتن وكانت حروب كثيرة بين الجند والامراء قتل فيها خلق كثير وانتهيت

الاسواق وأحرقت مواقع كثيرة فاشتد خوف الناس وضاعت أموالهم وارتفعت الاسعار وتعذر وجود الاقوات واختلف العسكر فلحق الكثير منهم بالحسن بن عبد الله بن طغج وهو فى الرملة خارج حدود مصر، وكاتب الكثير منهم المعز لدين الله الفاطمى وتناقل الناس قدوم القرامطة إلى مصر وتواترت الاخبار بمجئ عساكر المعز من المغرب .

وانبعثت الخلافات بين الوزراء ووصل المغرب «يعقوب بن كلس» الذى كان وزيرا فى مصر يستحث المعز لفتح مصر بعد أن طرده عدوه ابن الفرات ومن ثم ركز المعز جهده فى الاسراع بالحملة لان مصر كانت حلم الفاطميين منذ اللحظة الاولى التى أقاموا فيها ملكهم فى المغرب .

وقد ساعده على الاسراع بالحملة أمور كثيرة منها ضعف الخلافة العباسية صاحبة السيادة على مصر وضعف الدولة الاخشيدية صاحبة السلطان الفعلى فى البلاد.

أما الخلافة العباسية فقد بدأت عوامل الضعف تتسلل إلى كيانها العباسى بعد أن انتقل الملك والدولة من آل العباس إلى آل بوية والذى بقى فى أيدى الدولة العباسية انما هو أمر دينى اعتقادى لا ملكى دنيوى كما ذكر ذلك البيرونى .

وخرج جيش جوهر الصقلى من المهدية فى اليوم الرابع عشر من شهر ربيع الثانى ٣٥٨هـ. فبراير ٩٦٩م وسار فى نفس الطريق الذى سلكه فيما بعد القائد الالمانى روميل (قائد معركة العلمين فى الحرب العالمية الثانية «١٩٣٩– ١٩٤٥م») ولكنه كان يعلم مبلغ ما يعانيه الجيش من صعاب وعقبات عند عبوره هذه الصحراء الممتدة الجدباء. ولهذا فقد عبر الطرق وحفر الآبار وبنى المنازل للاستراحة على طول الطريق من تونس إلى مصر .

ولم يكد شهر رجب ٣٥٨هـ. يهل حتى سقطت الاسكندرية ودخلها جوهر دون قتال، كما وصلت الاخبار بمقدمه إلى الفسطاط واضطرب أهلها وتملكهم الذعر واتفقوا مع الوزير جعفر بن الفرات أن يرسل فى طلب الصلح والامان، فكون الوزير وفدا من أعيان البلد وجعل على رأسه الشريف أبا جعفر بن مسلم بن عبد الله وسار الوفد حتى قابل جوهر وكان فى طريقه من الاسكندرية إلى الفسطاط فقبل دعوتهم وكتب لهم أمانا وعاد الوفد إلى الفسطاط فقرأوا العهد والامان على الوزير والجند وعلم به الناس أما العامة فقد رضيت به وأما الجند فقد انقسموا على أنفسهم وأصر الاخشيدية والكافورية على القتال وعبروا إلى الجيزة وتحصنوا بها غير انهم لم يكونوا على شئ من القوة كما كانت تنقصهم الوحدة والقيادة الحكيمة فهزموا وولوا الادبار مع أول بادرة قتال .

وخرج الوزير جعفر بن الفرات ومعه الاشراف ووجوه البلد يوم الثلاثاء السابع عشر من شعبان ٣٥٨هـ لمقابلة جوهر ودخل جوهر الفسطاط على رأس جيشه والشريف أبو جعفر عن يمينه والوزير ابن الفرات عن شماله وشق المدينة ونزل فى مناخة الذى هو موقع القاهرة الآن واستقر الحكم الفاطمى فى البلاد .

وتم تخطيط القاهرة بعد الفتح الفاطمى بعام وفى يوم السبت ٢٣ جمادة الآخر ٣٥٩هـ/ ٥ مايو ٩٧٠م بدأ جوهر عمارة الجامع الأزهر فى الجانب الشرقى من القصر الكبيرة ثم بناءه بعد عامين ففتح للصلاة لاول مرة فى شهر رمضان عام ٣٦٢هـ/ ٩٧٢م وظل جوهر يحكم مصر ويمهد الفتوح فى الاقاليم المجاورة نحو أربع سنوات ولما تم له اخضاع مصر والشام والحجاز وبعد أن أكمل تأسيس القاهرة وبناء القصر والمسجد الجامع أرسل للمعز يستدعيه إلى مصر .

وخرج المعز لدين الله من المنصورية (احدى المدن الفاطمية) يوم الاثنين ٨ شوال

٣٦١هـ وفى شعبان ٣٦٢هـ/ ٩٧٣م دخل الاسكندرية ولأول دخوله اياها أعلن فى بيان أذاعه على الشعب تخليه وتخلى دولته عن فرض المذهب الشيعى الاسماعيلى على أهل مصر. وفى يوم الثلاثاء الخامس من شهر رمضان ٣٦٢هـ وصل إلى القاهرة ولما دخل القصر خر ساجدا لله تعالى ثم صلى ركعتين .

وأحسن معاملة الناس ومناهم الخير الكثير والعدل الشامل فأطاعوا له . وبذلك بدأ فى تاريخ مصر عصر جديد هو العصر الفاطمى وأصبحت الخلافة الفاطمية خلافة مصرية أكثر مما هى مغربية وأصبح هدفها موجها إلى المزيد من الاستقرار فى مصر والشرق الاسلامى .

واستطاعت الدولة الفاطمية أن تحكم مصر ولما تم لها ذلك اضطر الفاطميون أن يقللوا من غلوائهم بعض الشئ ليضمنوا ولاء الناس لهم وليستطيعوا أن ينالوا لونا من الاستقرار ولكن ليس معنى هذا اختفاء المذهب الاسماعيلى فى عهد الفاطميين ولكن حد قربه من الاعتدال وتجاوزه عن الضلالات الصارخة التى قال بها أكثر الاسماعيلية.

وبذلك طويت صفحة الخلافة الفاطمية الشيعية فى المغرب وهذا ما قصدنا اليه من تلك الدراسة عن ظهور دولة الفاطميين فى المغرب العربى وما تلا ذلك من أحداث حتى ظهور دولة المرابطين على مسرح الاحداث فى بلاد المغرب العربى .

الخلفاء الفاطميون الذين حكموا المغرب

المهدى أبو محمد عبيد الله

٤ ربيع الآخر ٢٩٧- ١٤ ربيع الاول ٣٢٢هـ

قائم بأمر الله أبو القاسم نزار

١٤ربيع الاول ٣٢٢- ١٤ شوال ٣٣٤هـ

المنصور بالله أبو الطاهر اسماعيل

١٣شوال ٣٣٤- ٢٩ شوال ٣٤١هـ

المعز لدين اللهأبو تميم معد

أول ذى القعدة ٣٤١- رمضان ٣٦٢هـ

دخل القاهرة فى رمضان ٣٦٢هـ. وبذلك انتهى حكمه فى بلاد المغرب من هذا التاريخ .

الجزء الثانى

خلافة المرابطين فى المغرب والاندلس

الباب الخامس

ظهور المرابطين

قبائل صنهاجة الصحراء :

المرابطون أو الملثمون قوم صحراويون من قبائل صنهاجة الثام خرجوا من صحراء موريتانيا برسالة دينية سامية تقوم على جهاد المارقين عن الدين الحنيف من قبائل براغوطة وغمارة فى بلاد المغرب شمالا .

وهم من صنهاجة الجنوب الضاربة فى الصحراء الغربية- صحراء شنقيط أو مايسمى اليوم بموريتانيا فى هذه الصحراء الشاسعة التى تشبه فى مجموعها البلاد «الحجازية أرضا وماشية ونباتا والتى تحدها من الجنوب بلاد السودان حيث مملكة غانا الكبيرة وفى الغرب المحيط الاطلسى وفى الشرق نهر النبجر» عندما بتجه شمالا إلى جهة تمبكتو وفى الشمال منطقة سجلماسة التى يقال لها اليوم «تافيلات» وفى هذه الصحراء كانت تعيش قبال صنهاجة اللثام البربرية ومن أشهرها قبيلة لمتونة فى شمال الصحراء وتليها جنوبا مسوفة ثم جدالة وهذه القبائل الصنهاجية كانت امتداداً لقبائل صنهاجة التى كانت فى الشمال والتى تكونت منها الدولة الزيرية الصنهاجية فى المغربين الادنى والاوسط .

ويلاحظ أنه قبل الفتح المرابطى للمغرب كانت قبائل غمارة تحتل الجزء الغربى الخصيب من الجبال التى عرفت باسمها وجاورتهم فيها صنهاجة البتر وامتدت ديارهم إلى شواطئ المحيط متصلة إلى مشارق جبل درن ثم بسائط تامسنا بين سلا واسفى وهى ديار براغوطة وتمتد منازل لمطة إلى الصحراء مجاورين لصنهاجة الصحراء مشتغلين

بالرعى وأقامت صنهاجة الجبل فى المنطقة الجبلية بين تازا وتادلا ومدن فازاز وبعض صنهاجة الجبل ظواعن فى دون إلى درعة وبعضهم فى نواحى مكناسة إلى وادى أم ربيع حيث يتصلون بدكالة التى لم تزل بين أم ربيع وتانسفيت وفى المنطقة الجبلية جاورت «هسكورة» .

وأما صنهاجة الصحراء فقد انتشرت بين العرق «أطلس الصحراء» وبلاد السودان فهم رعاة أبل بحكم بيئتهم حتى أن المرابطين لما فتحوا البلاد الغربية اختاروا مراكش عاصمة لهم لان موقعها مسرح خصيب لجمالهم .

وكان للفتح المرابطى تأثير كبير على مواطن القبائل ومركزها فاستقرت صنهاجة الصحراء فى سهول البلاد الغربية فنزلت لمتونة ومسوفة رحبة مراكش ثم توالت جموعهم فى الصحراء باستدعاء يوسف بن تاشفين لهم نيابة عن أبى بكر بن عمر .

وكانت فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى مجموعة تعيش فى أقصى جنوب فيما يلى نهر درعة جنوبا وفى الصحراء التى تليها جنوبا ويسميها البكمى صحراء «تنسر» التى تمتد إلى حوض السنغال من القبائل الصنهاجية تسمى بصنهاجة الصحراء أهمها جدالة ومسوفة ولمتونة وتارجة ولمطة وجزولة وبنو وارث، كانت تعيش فى الشريط الصحراوى الاطلسى بعد أن طردتها قبائل زناتة إلى أقصى الجنوب وأخرجوها من نواح مثل ستافيلات» وأصبحت فى صحرائها محصورة بين سور حوض السنغال وزناتة المغرب وكانت قبائل كثيرة العدد تعيش على الرعى وقليل من الزراعة. وكانت قد دخلت الاسلام ولكن اسلامها كان سطحيا فى حاجة إلى عمق وفهم وهذه القبائل وفيرة العدد وقيل انها تجاوزت السبعين قبيلة وقد تهيأ للقبائل الصنهاجية بحكم سعة انتشارها وكثرة عددها أن تتنوع حياتها الاجتماعية فقد كانت

بعض القبائل تحيا حياة الاستقرار كما كانت بعض القبائل الجبلية الاخرى تنتقل عادة نقلة الشتاء والصيف طالبا للرعى وكانت بعض البطون الاخرى تحيا حياة بدوية عريقة في صحراء المغرب .

ورغم تفرق شعب صنهاجة فقد ظلت رابطة الدم والثقافة المشتركة تؤلف بين شتاتة .

وتمكنت قبائل صنهاجة بفضل هذه الحضارة التى أصابت منها بعض الشئ وبفضل هذا التنوع فى الحياة الاجتماعية وهذه الرابطة الاسرية الوثيقة من أن تكسب لنفسها في المغرب تاريخا مجيدا فشرف صنهاجة أصيل ومجدهم اثيل ورياستهم قديمة فأسست صنهاجة الجيل الاول دولة بني زيرى وأسست صنهاجة الجبل الثانى دولة المرابطين .

ولم تكن صنهاجة التى قامت على اكتافها دولة المرابطين مجرد قبيلة بل كانت شعبا عظيما يتألف من قبائل قيل انها بلغت السبعين عددا وانتشرت فى المغرب انتشارا بعيد المدى وقد قسمت القبائل الصنهاجية إلى قسمين قسم شرقى في افريقية (تونس) والمغرب الاوسط (الجزائر) وقسم غربى فى المغرب الاقصى وكانت بطون صنهاجة فى الواقع تنتشر باقليم الجزائر في ما بين الطريق الموصل بين مرطانية الطبيعية ومرطانية القيصرية وبعض القبائل فى الاطلس الوسطى ثم فى منحدرات الاطلس الكبرى الجنوبة وتوغل جنوبا في الواحات الواقعة على أطراف الصحراء وتوغل فى المغرب الاقصى فى أقليم!! حتى طنجة .

ومن الغريب أن تنتسب هذه القبائل إلى العرب ولكن هذا الانتساب قد يكون بعد اسلامها ومحاولة أن تكون على قدم المساواة مع القبائل العربية حتى تستطيع

المشاركة فى الحياة السياسية الجديدة فأدعت لنفسها نسبا عربيا .

وقد انتشروا فى المغرب الاقصى بل توغلت بعض بعض قبائلهم فى غرب افريقيا حتى أدركت منحنى نهر النيجر وهم يمتازون بالقوة والبأس وهم كما قال ابن خلدون من أوفر قبائل البربر وهم أكثر أهل المغرب وما بعده ولا يكاد قطر من أقطاره يخلو من بطن من بطونهم فى جبل أو بسيط حتى لقد زعم انهم الثلثان من البربر ونزلت هذه القبائل فى النواحى الشمالية والسفوح الجبلية الصالحة للزراعة كما كانت تضرب فى النواحى الخصبة المحيطة بجبال ارواس وفى الجهات الجنوبية والوسطى من اقليم الجزائر وأوغلوا فى مراكش ونزلوا بالجزء الشرقى من جبال أطلس الكبرى بل تجاوزو ذلك النطاق الجبلى فاحتلوا ساحل المحيط الاطلسى حتى مصب نهر السنغال ومنحنى النيجر ووجدت بعض قبائلهم فى صحراء المغرب القريبة من مراكش حتى آلت الزعامة إلى صنهاجة الشمال مؤسسة دولة بنى زيرى ثم إلى صنهاجة الجنوب مؤسسة دولة المرابطين .

وقد اتخذت قبائل صنهاجة اللثام شعارا لها تميزا لها عن سائر قبائل المغرب فهى التى قامت على أكتافها دولة المرابطين بل يرجع لها الفضل فى نشر لواء الاسلام فى ربوع افريقية والسودان الغربى لانها ظلت بعد أن تم اسلامها قرونا طويلة تجاهد قبائل السودان وتحملها على الاسلام .

ثم استطاعت هذه القبائل بعد أن تم تحالفها أن ترفع لواء مذهب مالك فى أقاصى الصحراء وأن تخرج عن ديارها مجاهدة على احياء الاسلام ونشر لوائه وتأسست دولة المرابطين التى انبسط لوائها من منحنى النيجر فى الجنوب حتى البحر الابيض فى الشمال. وقد كانت الرياسة فى قبائل الملثمين لقبيلة لمتونة التى كانت تنازع جدالة

هذه الزعامة باستمرار كما كانت الرياسة في لمتونة معقودة للفرع الذى أنجب المجاهد يوسف بن تاشفين .

وقد كانت هذه القبائل تدفع إلى الصحراء موجة أثر موجة وقد أذكت الغزوات العربية فى المغرب تيار الهجرة ففرت بعض القبائل الصنهاجية أمام الفاتحين إلى المغرب الاقصى ومن ثم فرت بعض القبائل الصنهاجية إلى الصحراء حتى انه يذكر أن موسى بن نصير لما أوغل فى بلاد السوس فى طلب البربر وجد فريقا من صنهاجة يحتل أطراف الصحراء جنوب جبال درن .

وكانت قبائل السودان الزنجية تتخطى منحنى النيجر موغلة نحو الشمال وكانت تقف حجر عثرة أمام هجرة القبائل الصنهاجية فلما انتشر الاسلام فى ديار صنهاجة أخذت تعمل على نشره بين قبائل السودان واتخذت هجرتها نحو الجنوب طابع الجهاد المقدس فأخذت تدفع السود نحو الجنوب دفعا حتى تم لها ادراك منحنى النيجر فى هجرتها .

لكن المؤرخين يحددون لهذه القبائل وطنا يمتد من غدامس جنوب طرابلس إلى المحيط الاطلسى فى المناطق الصحراوية التى تلى سلسلة الجبال المعروفة بجبال درن كما يمتد هذا الوطن من جبال درن في الشمال حتى مصب نهر السنغال بل يمتد إلى منحنى النيجر أو يجاوره بقليل بل تتخطى مضاربهم هذا النهر إلى الشرق فتصل إلى تادمكة في قلب الصحراء الكبرى وهذا هو الوطن الذى تتحرك فيه قبائل الملثمين وقد كانت قبيلة لمتونة أهم هذه القبائل وأقواها فهى تمتد من منطقة تلى منطقة لمطة وجزولة وتمتد من وادى نون على المحيط الاطلسى حتى رأس اقليم الصحراء التى تسيطر عليه المغرب «حاليا» والى الشرق من وادى نون تقع مدينة «اركى» وهى حصن لمتونة

بل إن هذه القبيلة تتوغل فى الصحراء شرقا حتى تدرك الطريق الموصل بين غانة وسجلماسة ولكنها لم تتوغل على ساحل المحيط حتى مصب السنغال ولا يستبعد أن تكون قد رحلت بعض بطونها حتى وصلت إلى قرب غانا وقد سيطرت هذه القبيلة على الطريق التجارى الهام الذى يسير بحذاء البحر المحيط وهو طريق غانة سجلماسة ومن هنا فقد كتب لهذه القبيلة السيادة على قبائل صنهاجة جميعها .

وإلى الجنوب من مضارب لمتونة تضرب قبيلة جدالة القوية التى وصل نفوذها حتى مصب نهر السنغال متخذة مدينة «وليلة» مركزا لها. وكانت هذه القبيلة أوفر مالا وأكثر استقرارا فهى قريبة من غانا وشعب سنغاى الواقع على الضفة اليسرى من منحنى النيجر وقريبة من أودغست وطريق سجلماسة لذا استطاعت جدالة أن تسير متاجرها عبر هذا الطريق وأن تجنى من وراء ذلك ثروات واسعة كما انها كانت أقرب ديار الملثمين من بلاد السودان، أما ثالثة هذه القبائل بعد لمتونة وجدالة فهى مسوفة وكانت مناطق نفوذها تقع بين سجلماسة فى الشمال وأدغست فى الجنوب وكانت بعض بطونها تتوغل شرقا حتى تصل إلى تادمكة وكوكو وكانت هذه القبيلة تسيطر على ذلك الطريق الحيوى للتجارة السودانية. ومن هنا فإنه يتبين لنا أن أهم قبائل الملثمين هى لمتونة وجدالة ومسوفة التى سيطرت على المساحات الواسعة من الصحراء وتحكمت فى طرق التجارة العالمية. كما أن هناك عديداً من الصفات التى أهلتها للظهور فى ميدان الصراع القبلى فى المغرب الاقصى .

وطول هذه الصحراء التى سكنتها قبائل صنهاجة الصحراء حوالى الالف كيلو متر تقطعها القوافل فى شهر لتصل إلى حرض نهر السنغال وهو أول أنهار افريقية المدارية الغربية شمالا ثم انه عند منابع نهر المولوية وحتى مجرى وادى درعة يمتد اقليم تافيلالت وهو اقليم واحات ومنابع مياه كثيرة أكبرها سجلماسة وكانت سجلماسة من

أكبر المحطات التجارية على أبواب الصحراء فاذا عبر التجار صحراء تنسر الواسعة وصلوا إلى محطة قوافل أخرى فى الحوض الاعلى لنهر السنغال تسمى أودغست وكانت سجلماسة وأدغست سوقا تجارية عظيمة يفد اليها التجار وتحط فيها القوافل وتجتمع فيها المتاجر والاموال .

وما دمنا نتحدث عن قبائل صنهاجة الصحراء الكبرى التى قامت على أكتافها دعوة المرابطين فان ذلك يتطلب الحديث عن انتشارها بعد الرحيل شمالا فقد كان للفتح المرابطى لديار المغرب تأثير كبير على مواطن القبائل ومركزها فاستقرت صنهاجة الصحراء فى سهول البلاد الغربية فنزلت لمتونة ومسوفة مراكش ثم توالت مراكزها من الصحراء باستدعاء يوسف بن تاشفين لهم نيابة عن ابن عمه أبى بكر بن عمر ثم أيام استقلاله .

وبينما كانت افريقية فى صراع متواصل مع عرب بنى هلال وبنى سليم ظهر المرابطون فى جنوب المغرب الاقصى وسرعان ما امتد نفوذهم إلى النصف الغربى من بلاد المغرب تاركين النصف الشرقى فى بلاد المغرب لاخوانهم بنى زيرى وبنى حماد الصنهاجيين ومنافسيهم من القبائل العربية الزاحفة. وقد انتشر الاسلام بين هذه القبائل الضاربة جنوبا عن طريق السرايا العسكرية التى أرسلها حكام المغرب الاوائل إلى هذه المنطقة وعن طريق التجار المسلمين الذين كانوا يمرون عبر هذه البلاد فى طريقهم إلى السودان وقد انتسبت هذه القبائل البربرية بعد اسلامها إلى العرب فاصطنعت أنسابا عربية حتى تتساوى مع القبائل العربية وتستطيع المشاركة فى الحياة السياسية الجديدة .

ولقد كانت المناطق التى تعيش فيها قبائل الملثمين مناطق عزلة تمكن لهذا القبائل أن تعيش مستقلة بعيدة عن أية مؤثرات وكان أهم ما تتميز به هذه القبائل

ارتداء لثام يستر الوجه كله فلا تبدو الا محاجر العين فسميت القبائل قبائل الملثمين ويعد لبس اللثام فى نظرهم مفخرة يمتدحون بها كما يمتدح العربى بسيفه وقد كان لثام المرابطين السواد .

وكما سبق العرض فإن قبيلة لمتونة كانت لها الرياسة زمن المرابطين وكان رجالها يديرون دفة الدولة ويحتكرون أغلب الحقوق السياسية كما كانت الرياسة فى لمتونة فى بيت (ورثا نطق) الذى أنجب يوسف بن تاشفين فالمتونة التى سادت فى القرن الخامس الهجرى أصبحت فى المجتمع الحديث قبيلة مسودة وانتقلت السيادة إلى قبيلة ترغة .

وقد جمعوا بين الشجاعة الفائقة والقوة البدنية وحسن استخدام الابل فى القتال وقد امتازت هذه القبائل بحب الاستقلال والشعور بالعزة والثقة فقد عاشت فى الصحراء لم تخضع لغزو أو فتح وفى القرن الخامس الهجرى ذكى عبد الله بن ياسين فى نفوسهم شعلة الاخلاص للاسلام وطهر نفوسهم من أدران الشر وحببهم فى الجهاد فى سبيل الله والدفاع عن دار الاسلام وردوا عدوان الفرنجة بل قضت الدولة نحبها دفاعا عن تراث الاسلام .

وليس هناك أدنى شك فى أن هذه القبائل لها تراث حضارى معروف قبل أن تنحدر من مواطنها فى شمال افريقية وانها أصابت من الحضارات الوافدة على المغرب قبل أن تتوغل فى الصحراء، كما أن المؤاثرات الحضارية لابد أن تكون قد نفذت اليها من ديارها الجديدة وأن قبيلة لمتونة كانت تنعم بلون من الاستقرار وكذلك قبيلة جدالة كانت ذات طابع مستقر نوعا ما، ولم تحتفظ بالصبغة البدوية الخالصة الا قبيلة مسوفة وقد آلت ثروات ضخمة إلى قبيلتى لمتونة وجدالة بعد تحول طريق التجارة إلى ديارها حيث كانت تمر بديار لمتونة وجدالة ثم نذهب إلى أودغست ثم إلى سجلماسة وبلاد

السودان، ومن ثم فان هذه القبائل كان لها دورها فى تاريخ المغرب .

واذا كانت قبائل صنهاجة الملثمين ذات طابع بدوى معروف الا انها كانت على النقيض من قبائل بنى هلال وزناتة فانها قبائل بدوية ذات نصيب من الحضارة ومن هنا كان قيامها بالدور الحضارى الاسلامى فى القرن الخامس الهجرى وتأسيسها دولة مستقرة في بلاد السودان والمغرب والاندلس .

وكان قيام دولة الادارسة فى المغرب الاقصى ودورهم فى توحيد القبائل المتنافرة الضاربة فى المغرب الاقصى حيث أيدهم البتر والبرانس والمصامدة ونجح الادارسة فى اقامة حكومة مركزية قوية واستطاعوا بفضل هذه الوحدة أن ينجحوا فى اسلام البلاد جميعا وتكسبها الصبغة الاسلامية (راجع الجزء الثانى من الموسوعة باب عن دولة الادارسة) .

ولقد ظفر الادارسة بتأييد صنهاجة الجنوب أهل اللثام الذين نحن ندرس دورهم فى ظهور دولة المرابطين واشتد ساعد الاسلام فى بلاد المغرب الاقصى بهم وقد أصابت ديار الملثمين أنوار الثقافة العربية لان الادارسة بسطوا نفوذهم على البلاد كلها، كما بسطوا نفوذهم على النواحى الشمالية من ديار الملثمين بل ان عبد الله بن ادريس أخضع قبائل لمطة الضاربة على المحيط .

من هنا بين لنا أن مغاربة الملثمين فى جبال درن انطوت تحت لواء الادارسة ومن هنا فقد تعمق اسلام صنهاجة فى عهد الادارسة ووضح اسلام أهل اللثام وضوحا تماما فى القرن الثالث الهجرى. ولقد كان لذلك أثر بالغ فى تاريخ هذه القبائل وتاريخ المغرب والسودان اذ أدى تعمق الاسلام إلى قيام تحالف قوى بين قبائل الملثمين بزعامة لمتونة التى حسن اسلامها وأكسبها الدين الجديد القوة التى مكنتها من توحيد كلمتها. ومن

هنا كان عليها أن تقوم بدورها التاريخى لكى تلعب على الساحة الاسلامية أكبر الادوار التاريخية فى العالم الاسلامى .

وكان عليها أن تكسر الطوق الذى يحاصرها من الشمال والجنوب وقد كان عليها أن تعد العدة اما التوسع صوب الشمال باختراق جبال درن والاغارة فى سهول المغرب الاقصى أو التقدم صوب الجنوب حيث مملكة غانا الزنجية .

وحدة صنهاجة الاولى بقيادة تيولوتان بن تيكلان :

هكذا كانت قبائل الملثمين فى القرن الثالث الهجرى لم تكن تستطيع أن تتقدم شمالا حيث بلاد المغرب ذلك لان دولة الادارسة العلوية كانت فى تلك الفترة الزمنية لازالت فى قوتها وتستطيع أن تصد (تهزم) أى عدوان يأتى من الجنوب، كما أن القبائل الزناتية التى كانت تؤيد دولة الادارسة وتخضع لها تحتل مناطق فى المغرب الاقصى وتقف لقبائل الملثمين بالمرصاد لكى تمنعها من التقدم شمالا عبر أراضيها بالاضافة إلى أن قبائل المصامدة المعادية لصنهاجة الجنوب وهى من القبائل القوية لاتزال فى قمة قوتها وانها ليست على استعداد للتخلى عن الاراضى الخصبة التى تضع يدها عليها ومن هنا كان حلف الملثمين لم يستطع النفاذ شمالا ومن هنا كان الاتجاه للتوسع نحو الجنوب وكان الاتجاه جنوبا يعنى فى نظرهم تزعم حركة الجهاد الاسلامى والعمل على نشر لواء الاسلام بين القبائل الزنجية التى تقطن إلى الجنوب منهم .

وكانت قبائل لمتونة وجدالة ومسوفة فى قوة عنفوانها الاسلامى حيث انها كانت متحمسة لنشر هذا الدين الجديد ومن هنا وقع عليها عبء حركة الجهاد المقدس والعمل على القيام بدورها بين الوثنيين .

لكن على الجانب الآخر جنوبا كانت مملكة غانا الوثنية الزنجية تعيش أقصى عصور قوتها وازدهارها وأقصى درجة توسع لها فى جميع الجهات حيث امتد نفوذها من منحنى نهر النيجر جنوبا حتى الوصول إلى مدينة اركى شمالا وهذه المدينة على مسافة بسيطة من مضارب لمتونة، لكن الحظ حالف قبائل الملثمين اذ أصاب الوهن تلك المملكة فى نهاية القرن الثالث الهجرى/ التاسع الميلادى، ذلك لان شعب الصوصو الذى يقطن جنوبا من تلك المملكة قام بالاغارة من الجنوب ونجح شعب الصوصو فى طعن مملكة غانا من الخلف .

ومن هنا كان الطريق ممهدا أمام زحف الملثمين الذين ألهب الاسلام حماسهم وكان طلب الشهادة نصرا لهذا الدين الجديد لاسيما بين شعب الزنوج الوثنى ومن ذلك فقد نجح الغزو الملثمى فى الاتجاه جنوبا واستطاع احراز عدة انتصارات على شعب غانا ومضى الجهاد جنوبا فى توسعه حتى صار على مقربة من منحنى نهر النيجر كما وضع الملثمون أيديهم على مدينة أودغست التجارية وفرض الجزية على تلك البلاد واتخذ أودغست عاصمة جديدة لهم .

وقد استمر الحكم الاسلامى الملثمى لمدينة أودغست حتى عام ٣٠٦هـ. حيث عملت عوامل الفرقة عملها بين الشعب الصناجى حيث تفرقت القبائل شيعا وأحزابا وانتهزت غانا فرصة الضعف الذى أصاب صنهاجة وتفرق القبائل حتى استطاعت أن تستعيد مدينة أودغست من أيديهم ولكنها لم تستطع أن تسترد كل الاراضى التى استولت عليها صنهاجة بعد استقرار الملثمين فى البلاد التى فتوحها وكانت جدالة تعيش أقرب قبائل الملثمين من دولة الزنوج لكن غانا قنعت بالسيطرة على أودغست لان ذلك يمنحها فرصة السيطرة على الطريق التجارى المتجه إلى السودان والمغرب وسجلماسة .

لكنه لم تمض فترة طويلة حيث استطاعت لمتونة أن تبسط سيادتها من جديد على مدينة أودغست حيث زار ابن حوقل أودغست عام ٣٥٠هـ وهى تخضع لحكم الملثمين بعد أن تم رد عدوان غانا عنها وعادت صنهاجة تبسط سيطرتها على الاقليم الممتد من جبال درن شمالا حتى منحنى النيجر جنوبا. لكن فى ذلك الوقت كانت زناتة تبسط سيادتها على المغرب الاقصى وتتحكم فى مسالك الصحراء وكانت أوطان صنهاجة وزناتة متجاورة والعداء بينهما قديم بل تقليدى حيث عرف تاريخ المغرب هذا العداء الذى ترك فى حياة المغرب آثارا واضحة .

لكن حديثنا فى الفصل السابق عن الدولة الشيعية الفاطمية التى ظهرت فى افريقية قامت على أكتاف كتامة وصنهاجة الشرق التى شطرتها زناتة إلى شطرين صنهاجة شرقى وأخرى غربى وكان ذلك فى القرن الرابع الهجرى. واستطاعت الدولة الفاطمية بعد ظهور أعداء زناتة لها أن تنتصر عليهم وتهزمهم شر هزيمة بعد فشل ثورة أبى يزيد بن مخلد بن كيداد وبعدها لاذت قبائل زناتة بأذيال الفرار وتلاشت قوتهم ومن أثر ذلك تركت جموع زناتة المغرب الاوسط وبدأت ترحل تدريجيا إلى المغرب الاقصى وهكذا أصبح المغرب الاوسط منذ الفتح الاسلامى الاول خاليا من زناتة بعد أن تم القضاء على الجيل الاول منها وهاجرت الفلول إلى المغرب الاقصى. وفى ذلك الوقت سيطرت صنهاجة على نواحى المغرب الاقصى وبدأ دورها فى ذلك الوقت يأخذ بعدا جديدا .

ومن ذلك فان قوات الاندلس عندما حاولت أن تغير على المغرب فان قبائل صنهاجة وقفت لها بالمرصاد، ثم انقسم الصنهاجيون على أنفسهم فى عهد باديس بن المصور فاستقل حماد بن بلكن بالمغرب الاوسط وأصبح المغرب الاقصى للبتر وشيعتهم لا ينازعهم فيه منازع .

ومع بداية القرن الخامس الهجرى انتشرت فكرة الايمان بالزهاد والاولياء ذلك الايمان الذى مهد لقيام دولة المرابطين والموحدين حيث اختفت الزعامة السياسية الحربية وحلت محلها زعامة دينية ينصاع لها الناس والمغاربة بطبعهم يخلصون للمبدأ الذى يؤمنون به. وهكذا فان هذه القبائل الصنهاجية القوية كانت فى انتظار زعيم يرد إلى الوحدة صفوفها بعد ترك الاجزاء الشمالية متجهين إلى الجنوب رغم اعتناقهم الاسلام ليعبروا عن سخطهم من حكم زناتة فسكنوا الاجزاء المرتفعة من جبال الاطلس والصحراء وفى الواحات إلى منحنى النيجر حيث وجدوا بعض أقاربهم من قبيلة لمتونة وكذلك بعض الموطنين الافريقيين الذين مازالوا على وثنيتهم، وحمل هؤلاء القادمون الدين الاسلامى والحضارة الاسلامية اليهم فكان من أثر هذا الاختلاط أن بدأت تظهر فى الاقاليم الجنوبية التى تشارف الصحراء حضارة اسلامية بربرية .

وقد كانت هذه الاجزاء بعيدة عن نفوذ الدولة فهى مقصد الخارجين عليها وقد أتاح هذا البعد لهذه القبائل وحنق بعضها أن تأخذ قبيلة لمتونة وجدالة ومسوفة التى تسكن شمال السنغال مكان الصدارة بين القبائل البربرية. لكن قبائل صنهاجة الشمال وهى من القبائل الكبرى كانت تعانى كثيرا من تلك السيادة الزناتية الطويلة وكان يسود شعبها شعور بالخوف على مصير قبيلتهم لان سيادة القبيلة على قبيلة أخرى لمدة طويلة تنتهى بهبوط القبيلة المستضعفة إلى مستوى الرعايا المحكومين الخاضعين وهذا نذير بزوال أمر القبيلة نتيجة لانكسار قوتها وطول العهد باستذلالها (ابن خلدون - المقدمة) .

لكن مع اطلالة القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) فان صنهاجة الجنوب كانت لاتزال كلمتها متفرقة ووحدتها مشتتة بعد أن انفرط عقد التحالف الملثمى الثانى فى القرن الرابع الهجرى حيث استطاع ملك غانا أن يبسط سلطانه على

مدينة أودغست مرة أخرى وتفرق شمل القبائل، لكن صنهاجة الجنوب لم تكن تستطيع أن تعيش فى ظل تفرق القبائل وتشتتها والاعداء يبسطون سيطرتهم على صنهاجة الشمال ويتربصون الدوائر بها حيث كانت أحلاف المصامدة وزناتة فى الشمال لاتزال تسد مسالك التسلل شمالا نحو المغرب بعد أن استطاعت تلك القبائل بسيطرتها على أودغست أن تجنى أرباحا طائلة اضافة إلى الموقع الجغرافى الممتاز فى طريق القوافل. وكانت غانة تهدد تجارة السودان التى هى مصدر ثورة القبائل الضاربة فى أطراف الصحراء الجنوبية بالاضافة إلى استقرارها على ساحل المحيط .

لكن أكبر هذه القبائل (لمتونة وجدالة ومسوفة) كان عليها أن توحد كلماتها لتقوية شوكتها وكان على لمتونة القوية التى تحتكر زعامة صنهاجة الجنوب. ومهما يكن من شئ فان سياسة الحلف الجديد كانت تقضى بمواصلة الجهود التى بذلت منذ اسلام صنهاجة والتى تقضى بالجهاد فى الجنوب ومدافعة غانا والمحافظة على طرق التجارة ولم يكن هذا التحالف الصنهاجى الذى بدأ مع بداية القرن الخامس الهجرى تضع فى سياستها النظر إلى المغرب والاتجاه شمالا ومحاربة زناتة ومصامدة وأحلافها فى المغرب الاقصى، لكن مع نهاية النصف الاول من القرن الخامس الهجرى كان هذا التحالف قد فشل فى محاربة غانة حيث قتل زعيمه وكانت هزيمة لمتونة فى معركة غانا قد جعلتها تتخلى عن زعامة الملثمين بعد أن ظلت زعامتها لصنهاجة أكثر من قرنين وآلت زعامة الملثمين إلى قبيلة جدالة التى كانت أقرب إلى غانا فخفت إلى أرض المعركة قبل أن تذهب رهبة الملثمين، لكن غانا عادت من جديد تزحف إلى الشمال للقضاء على الجهود التى بذلت فى نشر الاسلام فى ربوع صحراء المغرب الجنوبية وكانت قبيلة جدالة أقدر على كفاح الزنوج بقيادة غانا من أية قبيلة أخرى حيث كانت ديارها ملاصقة لهم وكانت أعرف بظروفهم وأحوالهم وطبائعهم وكيفية

التعامل معهم، ثم ان أحوالها المادية كانت تؤهلها لقيادة الكفاح لانها أغنى القبائل وأقواها بسبب اشتغالها بتجارة الملح والذهاب ومنتجات بلاد السودان الاخرى. ومن هنا وقع عبء الجهاد على قبيلة جدالة لكى تقود القبائل الصنهاجية نحو محاربة غانا والزحف شمالا لفتح المغرب وتكوين دولة المرابطين القوية .

الباب السادس

صنهاجة ودور عبد الله بن ياسين

اذا كان قد قدر لقبيلة لمتونة أن تترك زعامة ملثمى الجنوب لقبيلة جدالة الفرع الآخر القوى فان جدالة القبيلة القوية كان قدرها أن تتبنى حركة الجهاد الاسلامى التى انتهت بظهور دولة المرابطين على مسرح الاحداث السياسية فى العالم الاسلامى بعد أن كانت شهادة زعيم لمتونة فى صراعه الاخير مع غانا قد عقدت اللواء لزعيم جدالة الذى كان يسمى يحيى بن عمر ابن ابراهيم الجدالى .

وكان هذا الزعيم حريصا على أن تقوم جدالة بدورها الطليعى بين قبائل البربر لانه كان يخاف على سمعة صنهاجة، وكان هذا الخوف هو الذى دفعه إلى أن يبحث عن شيخ يعلم رجال قبيلته شريعة الاسلام وأحكام الفقه والدين حيث كان ذلك الزعيم يتمتع برجاحة عقل وبعد للنظر وصدق فى الايمان ورؤية واضحة لمستقبل هذا الشعب اذ توحدت كلمته مما جعله يفكر فى أن يكون لهم دور على نطاق العالم الاسلامى وليس على نطاق شعب المغرب لانه أدرك أن الاسلام يجمع كلمة القبائل وينير أبصارهم على أمور جديدة ويربطهم بسائر المجتمعات الاسلامية فى المغرب والسودان وبقية العالم الاسلامى فى المشرق .

ولا شك فى أن يحيى بن عمر بن ابراهيم هذا كان يدرك أن أية قبيلة بربرية تحركت للزعامة فى الماضى كان لها قائد دينى هو الذى هيأ قبيلته لانشاء دولة فتاقت نفسه للبحث عن قائد دينى يقود هذه الجموع لا سيما أن الذين أنشأوا الدول مثل الخطاب بن عبد الاعلى السمح المعافرى قامت على يديه دولة الخوارج الاباضية فى تاهرت وأبى عبد الله الشيعى قامت على يديه الدولة الفاطمية التى اتخذت المهدية عاصمة سياسية لها وادريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب

أنشأ دولة الادارسة .

ومن ثم فقد حرص هذا الرجل على أن الوقت قد آن لهذه القبائل القوية أن تتألف وتتآزر على سياسة روحية والتمسك بالدين لانه أساس تكوين دولة قوية. وكان يحيى بن عمر هذا يرجو أن يدرك قومه من صنهاجة الصحراء خطر الحصار الذى يضربه عليهم من الجنوب أهل السودان ويسجنونهم فى الصحراء القاسية ويحولون بينهم وبين الانتشار فى الاراضى الخصبة فى وديان أنهار السودان الغربى .

وفى أثناء تجولات يحيى بن ابراهيم فى بلاد المغرب الاقصى أدرك البعد بين هذه البلاد وبيئه الصحراء الخالية من العلماء ورجال الدين لاسيما أن المغرب الاقصى فى ذلك الوقت كان حافلا بالمدارس والعلماء الذين يقصدهم الناس من كل فج ولقد تفوق المغرب الاقصى فى جميع المجالات العلمية والثقافية والحضارية فى حين خيم الجهل والظلام فى ربوع ديار الملثمين ولم يجرؤ العلماء على المخاطرة باختراق الصحراء وتعليم الناس مبادئ الدين الاسلامى فتاقت نفس يحيى بن ابراهيم أن يقوم بعض التجار والعلماء على تعليم القرآن الكريم والفقه لابناء القبيلة ومن هنا حرص على أن يخرج إلى بلاد المغرب الاقصى حيث ترك بلاد الملثمين لا طلبا لاداء فريضة الحج وانما بحثا عن حقيقة العلم والاسلام وأخذ يرتاد مدارس المغرب طلبا للعلم حتى يستطيع أن يعود إلى قومه فيوجد صفوفهم معتصمين بحبل الله القويم .

وكانت القيروان هدف يحيى حيث انها هى حاضرة المغرب الثقافية وكعبة القصاد من المغرب والاندلس وكان ذهاب يحيى بن ابراهيم إلى القيروان حيث هى مركز الفقه المالكى بعد انتصارها على الفاطميين والزبيريين وقصد فقيه المالكية فى المغرب العربى الذائع الصيت (أبا عمران الفاسى) الذى ذاع صيته وقصده الطلاب من فاس واغمات والاندلس كما قصده فقهاء المصامدة وصقلية. وكان أبو عمر قد برع فى

علم الاصول وعلم الكلام والمناظرة وكان من أحفظ الناس وأعلمهم بالمذهب المالكى والحديث وعلوم القرآن الكريم وتلقى الزعيم الصنهاجى يحيى بن ابراهيم على استاذه ابن عمران بالقيروان كل هذه العلوم واستطاع أن ينهل من هذا العلم الواسع وأن يعيش فى هذه البيئة القيروانية الزاهدة فى متاع الدنيا بيئة فقهاء المالكية الذين عرفوا بالشدة فى الحق والبعد عن الحكام والميل إلى التقشف والعبادة المتصلة، لكن يحيى كان يتألم لحال قومه والجهل الذى يعيشون فيه ويريد أن ينقذهم مما هم فيه وأن يجمعهم على التعاليم التى نالها فى مدرسة القيروان وأن يقيم وحدة صنهاجة من نوع جديد. فكان أن طلب من أستاذه «أبى عمران الفاسى» فقيها من تلاميذه المالكيين ليصحبه إلى بلاده لكى يكون عونا له فى هذه المهمة التى أراد أن يضطلع بها لاعلاء شأن قومه بعد أن صور لاستاذه وجوب اهتمام العلماء بهذه القبائل الجنوبية ذات الحظ الضئيل من الثقافة الاسلامية .

وقد رأى الامام أبو عمران أنه لابد لتحقيق طلب يحيى بن ابراهيم الجدالى على الوجه الاكمل فان المهمة لابد أن يقوم بها فقيه من البربر أنفسهم يعرف أحوالهم معرفة تامة ويلم بلسانهم حتى يستطيع النجاح فى أداء مهمته وأن يهدى القوم إلى سواء السبيل، فلما لم يجد فى تلاميذه من يحقق هذه الرغبة، فكتب أبو عمران الفاسى للزعيم الجدالى كتابا إلى أحد تلاميذه من فقهاء المغرب الاقصى ومن الذين يعملون فى سجلماسة وهو (وجاج ابن زلو اللمطى) وهو فقيه مالكى مشهور تتلمذ على أبى عمران ونهل من علم القيروان وتقاليدها وهو من احدى قبائل صنهاجة الصحراء وكان وجاج هذا فقيها ذا مكانة كبيرة حيث اتخذ مكانا يأوى اليه بعيدا عن

الناس يتزهد فيه ويتعبد وكان مريدوه وتلاميذه يفدون اليه من كل فج ويتلقون عنه تعاليم المذهب المالكى وهذا يدل على نفاذ التعاليم المالكية من القيروان إلى جنوب المغرب الاقصى وكان وجاج هذا فقيها لمطياً صنهاجيا من قبائل الملثمين أعرف الناس بطبائع قومه وأكثرهم خبرة بما ينفعهم وينصرهم .

وكان على الفقيه وجاج بن زلو اللمطى أن ينفذ رسالة امام القيروان أبى عمران الفاسى، وبذلك يكون الزعيم الجدالى قد أرضى رغبته وأوشك أن يحقق الهدف الذى سعى من أجله إلى القيروان وهو الآن فى سجلماسة على مقربة من أهله وأن الامل الذى طالما ساوره وهو هداية شعب الملثمين وتوحيدهم أصبح قاب قوسين أو أدنى للتحقيق .

وكان على دجاج أن يحقق رغبة أستاذه فوقع اختياره على تلميذ من تلاميذه صنهاجى الاصل يدعى عبد الله بن ياسين فلم يتردد عبد الله فى الاضطلاع بهذه المهمة بل أقبل عليها وتحمس لها ورأى فيها لونا من الجهاد فى سبيل الله واعلاء كلمة الاسلام لاسيما أن جميع زملائه قد أحجموا عن هذه المهمة خوفا من بعد المسافة ومشقة السفر وانهم أشفقوا على أنفسهم من مشاق الاقامة فى هذه البيئة وكان ابن أخ وجاج نفسه قد خشى مغبة المهمة .

عبد الله بن ياسين ودوره فى بناء دولة المرابطين

كان قبول عبد الله بن ياسين لمطلب أستاذه وجاج بن زلو اللمطى بناء على كتاب فقيه القيروان أبى عمران الفاسى بداية صفحة جديدة فى تاريخ صنهاجة الجنوب بل فى تاريخ الاسلام فى بلاد السودان الغربى والمغرب العربى والاندلس بل فى العالم

الاسلامى. فقد استطاع أن ينهض بأداء المهمة الموكلة لـه لما توفر لـه من صفـات وما وهبه الله من اخلاص غالبة واليه يرجع الفضل بعد الله فى جمع كلمة الملثمين ولم شملهم واقامة حلف قوى بل اقامة دولة واسعة الارجاء رفعت لواء الاسلام وشاركت فى حركة الجهاد الاسلامى وجمعت تراث الحضارة الاسلامية واستطاعت أن ترد كيد مسيحى الاندلس وأجلت وأخرت انهيار الاسلام به خمسة قرون .

وهو عبد الله بن ياسين بن مكوك بن سير بن على وهو من قبيلة جزولة الضاربة فى أقصى المغرب قرب جبال درن، بل أن جزولة تكتب خطأ بدلا من جدالة وقد ولد فى أطراف صحراء دولة غانة بالقرب من مدينة أودغست حيث كانت القبيلة تقيم بالقرب من السنغال وتوغلت جنوبا فى منحنى نهر النيجر ولهذا السبب أقبل عبد الله على التطوع لهذه المهمة دون تردد. وقد خرج من مسقط رأسه لطلب العلم إلى بلاد المغرب الاقصى ليتتلمذ على فقهاء المدارس التى انتشرت فى فى المغرب كله وربما يكون قد طلب العلم فى الاندلس ومكث هناك سبع سنوات وعاد بعد عام ٤٠٠هـ. إلى المغرب الاقصى واتصل باستاذه «وجاج بن زلو اللمطى» فقيه السوس وناسكها ومتعبدها. واذ كان عبد الله قد تتلمذ على وجاج بن زللو وهذا تتلمذ على أبى عمران فيكون عبد الله بن ياسين تلميذا لابى عمران وهو بذلك جمع علم الاندلس مع القيروان .

دخل عبد الله بن ياسين الصحراء بصحبة زعيم جدالة وتوجه إلى منازل قبيلة جدالة وكان شهما قوى النفس حازما ونشيطا وواسع المطامح .

فأخذ منذ دخوله ديار الملثمين يسعى لتحقيق الهدف الذى جاء من أجله مع

يحيى بن ابراهيم الجدالى وهو تأليف قلوب الملثمين وتعليم الجداليين شعائر الدين بل انه لم يكتف بالدرس بل صار يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر واستطاع بسبب معرفته اللهجات البربرية واخلاصه فى الدعوة أن يشد اليه الرجال من أقصى ديار الجنوب أن ينفذ إلي قلوب الناس بفضل ذكائه وخبرته بطباع الناس وسعة فقهه فأصبح قريبا من قلوبهم بعد أراد أن يهذب أخلاقهم ويخرجهم عن حياة الخشونة والبدائية التى كانوا يعيشون فيها ووضع لهم نظاما للآداب العامة وأخذهم بالشدة وانه أراد أن يقوم من أخلاقهم ما استطاع إلى ذلك سبيلا فأراد أن يقيم حدود الشرع وتغير المنكر ومعاقبة السارق ورجم الزانى ومحاربة الداء وأن يبسط المساواة بين الناس .

بعد أن اتخذ لنفسه نهج فقهاء القيروان وأن يشارك الملثمين حياتهم الخاصة وأن يتقشف ويلبس الخشن من الملابس ويتقرب إلى الله بالعبادة حتى غدا فى نظرهم فى مرتبة الاولياء والصالحين وكان علية القوم والزعماء والنبلاء بما يدعو اليه عبد الله بنقص من حقوقهم التقليدية وبنشر المساواة بين السادة والموالى فسخطوا عليه وتبرموا من حكم السنة اذ لم يألفوا الخضوع لمن يحد من شهواتهم لانهم كانوا أهل فوضى وجفوة وقلة نظام. فقاموا عليه فعزلوه عن الرأى والمشورة وطردوه وهدموا داره وأخرجوه من بلادهم لانهم لم يتحملوا عنفه وشدته وكانت القلة الحاكمة هى التى اعتدت عليه وأخرجته من الديار ظنا منها ان دعوته هذه هى القضاء على نفوذهم .

وخرج عبد الله بن ياسين قاصدا المغرب حيث مدينة السوس وأستاذه وجاج بن زلو لكى يشكو له ما يلقاه من أهل جدالة، لكن أمير جدالة يحيى بن ابراهيم تدخل ليغير مجرى الاحداث ويرد عبد الله عن اعتزال الدعوة لانه اذا تخلى عما يقوم به لأحبطت مشاريعه التى يسعى اليها وهى توحيد الملثمين .

ومن هنا الح عليه فى أن يصحبه إلى الجنوب وتوسل اليه ألا يتخلى عن رسالته

السامية وآثر أن يصحبه ثانية إلى الجنوب لعله يلقى التأييد وبذلك عاد عبد الله بن ياسين إلى جدالة مرة ثانية واتجه جنوبا حيث قدر للدور الايجابى أن يبدأ وأن تؤتى الجهود ثمارها لاقامة دولة المرابطين .

وكان عبد الله بن ياسين قد استشار شيخه وجاج بن زلو فطلب الاخير إلى يحيى بن عمر بن ابراهيم عقابهم على ما فعلوه فقام بذلك وجعلهم يطالبون بعودة عبد الله بن ياسين اليهم ولكنه كان قد رفض فنصحه وجاج بالذهاب وفى أثناء عودته مر فى طريقه بريف تامسنا ورأى كيف أن جماعات الصنهاجيين هناك ترزح تحت وطأة الزناتيين وقدر جنود الزناتيين هناك بما لا يزيد على ثلاثة آلاف جندى، وأدرك انه من الممكن التغلب عليهم واقامة دولة لصنهاجة هناك وبعد أن توجة إلى ديار لمتونة وجدالة عرف كيف يتحين الفرص لتحقيق ما يجول فى ذهنه وكان قد عرف أن يكسب محبة يحيى بن عمر بن ابراهيم الجدالى وكان جده ابراهيم قد صاهر اللمتونيين ودخل فيهم وانتسب اليهم وأصبح يعد نفسه من سلالة لمتونة وقد وصل هذا الرجل بذكائه ونشاطه إلى أن أصبح من زعماء لمتونة ثم أنجب أولاداً كثيرين أشهرهم اثنان (عمر وتاشفين) فأما تاشفين فهو والد يوسف الذى ستصير اليه زعامة الممرابطين فيما بعد وأما عمر فقد أنجب أبا بكر ويحيى وهذا هو الذى ذهب إلى المشرق ثم إلى القيروان ولقائه مع أبى عمران الفاسى ثم لقائه مع وجاج بن زلو وعبد الله بن ياسين .

وكان عبد الله بن ياسين كما ذكرنا رجلا نشيطا وكان عظيم الايمان بالاسلام وكانت فيه شدة على حمل الناس على اقامة شعائر الدين حتى كان يوقع العقوبات البدنية على من يتراخى فى أدائها وقد أفاد يحيى بن عمر من مواهب عبد الله بن ياسين لان الشخصية المهيتة التى كان يتمتع بها كانت ترغم الناس على الطاعة ليحيى بن عمر وكان يحيى لا يدخر وسعا فى تقديم العون لعبد الله بن ياسين .

وعمد عبد الله بن ياسين مع سبعة من زعماء جدالة إلى بناء رباط فى جزيرة منعزلة يتعبد فيها ويجتمع مع أصحاب الصلاة ومن هنا حملت الجماعة اسم المرابطين وكان عبد الله عندما تأكد من أنه كون جماعة من المخلصين له خرج بهم إلى جزيرة المحيط قرب مصب نهر السنغال وهناك أنشأ رباطاً لم يلبث أن اتسع وكثر الناس فيه وكان يحيى بن ابراهيم الجدالى قد أشار عليه ببناء رباطا للعبادة وكانت الاربط قد انتشرت في المغرب انتشارا واسعا كما انه تتلمذ فى رباط على أساتذة وجاج بن زلو وكان ليحيى بن ابراهيم الفضل فى اختيار أصلح مواقع لاقامة ذلك الرباط لانه يعرف مضارب قومه لانه اختار جزيرة صغيرة تقع فى مواجهة الشاطئ على مقربة من بلدة أوليلى قاعدة جدالة فى الخليج وتذهب بعض الآراء إلى أن هذه الجزيرة تقع فى مصب السنغال .

وقد كان يتعين على عبد الله بن ياسين أن يتخذ نهر السنغال لانه الحد الفاصل بين الملثمين والزنوج مدرا لرباطه بقصد الجهاد ونشر الاسلام بين الزنوج ووقف عدوانهم والاغارة على ديار الملثمين لاسيما وأن ديار جدالة قريبة من حوض السنغال وكانت هذه القبيلة تستطيع أن تحمى ظهر المرابطين فى الجزيرة اذا فكر الزنوج فى الاغارة عليها .

وكان المسلمون يرون فى الرباط لونا من ألوان الجهاد فى سبيل الله ويدركون أهمية الرباط فى الدفاع فكانوا يتسابقون إلى الرباط يحرسون المسلمين وأن هذه الاربطة حققت الهدف الذى أنشئت من أجله ومكنت للاسلام والحضارة الاسلامية وكان عبد الله بن ياسين قد اتخذ هذا الرباط ليس بعيدا عن جدالة وخوفا من الزنوج للإغارة على مكان العبادة ولكن كان من بين الاسباب لانشاء هذا الرباط الدفاع عن المسلمين والحيلولة بين الزنوج والعدوان على قبيلة جدالة .

وكانت الاربطة قد انتشرت فى بلاد المغرب الاقصى فقد أوغلت فى السواحل حتى أدركت المحيط الاطلسى وأوغلت فى قلب بلاد السوس حتى وصلت أطراف الصحراء وكانت تعمل على نشر الاسلام بين الناس .

وقد لعب رباط «نفيس» الذى أنشأه وجاج بن زلو اللمطى دورا هاما فى تاريخ دولة الملثمين ففى هذا الرباط تأدب عبد الله بن ياسين بأدب الرباط والاخلاص لله والجهاد فى سبيل الله .

وانتشرت حركة المرابطة انتشارا واسعا فى القرن الخامس الهجرى وكانت قبائل الزنوج فى الجنوب بقيادة غانا تنزل بالمسلمين أفدح الاضرار وتواصل تقدمها نحو السنغال بقصد القضاء على الجهود التى بذلها الملثمون فى الدعوة للاسلام ورسالته فى الصحراء وبلاد السودان .

ولم تكن حياة المرابطين فى السنغال تختلف عن حياة الاربطة الاخرى فقد كانوا يعتمدون على ما توافر بجزيرتهم من صيد البر والبحر وكان هذا الرباط بمثابة شعلة تسرب نورها فى ظلمة الصحراء وتسامع الملثمون المنتشرة قبائلهم من جبال درن فى الشمال حتى منحنى النيجر فى الجنوب بخبر عبد الله بن ياسين ورجاله وخير رفاقه المخلصين الذين تركوا الجاه والمال فى سبيل الشهادة والجهاد فى سبيل الله بحيث لم يكونوا يتغذون بغير الفواكه ونتاج الصيد من لحم طازج أو مجفف وكانت معيشتهم أقرب إلى النسك وكانت المساواة التامة نهجهم ودستورهم فى الحياة ولم يكن يتاح لاحد الانضمام إلى جماعتهم الا بعد امتحان قاس يثبت فيه رغبته فى مشاركتهم تقشفهم كما وزعوا العمل عليهم مع توقيع العقوبات على المقصر فى الاداء وطارت شهرة المرابطين إلى من حولهم من القبائل فتقاطر عليهم كثيرون يشاركونهم حياتهم وسرعان ما تطور هذا الرباط وأصبح علاوة على كونه مركزا دينيا مركزا اجتماعيا

وحربيا يصد غارات المعتدين من الزنوج فحملوا السلاح وتدربوا على استعماله وازدحم الرباط بالزاهدين، فلما كثر أنصاره بدأ رباط السنغال يدخل فى طور جديد فقد أحس عبد الله بن ياسين أنه ورجاله يكونون عنصرا فعالا فى تحقيق أهدافه التى كان يسعى إلى تحقيقها وهى توحيد قبائل الملثمين تحت لوائه وحملهم على حياة الجهاد والكفاح بعد أن استطاع أن يؤلف بين قلوبهم بعد أن أتم تثقيفهم وتعليمهم فكان يعلمهم القرآن الكريم وتفسيره والحديث وتفسيره وأحكام الدين والشريعة وطلب منهم أن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر وأن يهيئوا أنفسهم لحياة من الجهاد والكفاح فى سبيل إعلاء كلمة الحق وتطهير المجتمع من الفساد وكان يلزمهم حدود الله ويفرض عليهم أحكام الدين ومن ثم أصبحوا قيادة صالحة فى مجتمع جديد وقد ازدادت جموعهم يوما بعد يوم وانهم فى كل هذه الامور كانوا يطيعون عبد الله ويؤمنون به ايمانا لا حدود له وسموا به ونسجوا حوله الكرامات والاساطير وكانوا يرضون بأحكامه ويطيعونه طاعة عمياء لا فرق بين كبير أو صغير فى ذلك. وقد قنع عبد الله بن ياسين بدور الامام الدينى الذى يقود الناس إلى الطريق الصحيح .

أما الدور السياسى أو الحاكم أو القيادة العسكرية فقد تركت للزعيم يحيى بن عمر بن ابراهيم اللمتونى الذى كان عليه أن ينفذ أوامر الامام فى تدريبهم على القتال وقيادتهم لمعركة الجهاد الكبرى التى لابد أن تؤتى ثمارها المرجوة فى بناء دولة المرابطين الكبرى التى تلعب دورها فى تاريخ الاسلام السياسى والاجتماعى والثقافى والاقتصادى .

الصدع بالدعوة والخروج من الرباط

لما رأى عبد الله بن ياسين وفرة أعداد رجاله وحماسهم قال لهم «أخرجوا فأنتم المرابطون» وانه بناء على ذلك يكون هذا أول تسمية للمرابطين ولكن هناك من يقولون

أن عبد الله بن ياسين أطلق عليهم هذا اللقب بعد انتصارهم فى أحد معاركهم. وعندما اكتمل عدد هؤلاء الرجال الاشداء ألف رجل أمرهم عبد الله بن ياسين بالخروج من رباطهم فى الجزيرة إلى البر والسير للجهاد وانضمت اليهم أعداد غفيرة من الجداليين واللمتونيين وغيرهم وكان ذلك فى عام ٤٤٥هـ/ ١٠٥٣م وكانت القوة والقيادة فى تلك الجماعة المرابطية الاولى لقبائل لمتونة فبدأ اسم هذه القبيلة يظهر من بين القبائل الكثيرة التى تكونت منها مجموعة قبائل صنهاجة الصحراء .

ويذكر ابن أبى زرع قول عبد الله بن ياسين لرجاله أخرجوا على بركة الله تعالى وأنذروا قومكم وخوفوهم عقاب الله وأبلغوهم حجته فإن تابوا وأنابوا ورجعوا إلى الحق وأطاعوا فخلوا سبيلهم وان أبوا وتمادوا فى غيهم ولجوا فى طغيانهم استعنا بالله تعالى عليهم وجاهدناهم» وقيل أن عدد رجاله قد بلغ ثلاثة آلاف رجل وانه لم ياذن لهم بالخروج من الرباط الا بعد أن تم له تنظيم الجيش الذى كانت قيادته ليحيى بن عمر بن ابراهيم الجدالى. وبعد أن أتم عبد الله بن ياسين تنظيم مجتمعه فى الرباط وبايعوه على الموت والاستشهاد فى سبيل الدعوة والخروج للجهاد .

واتخذ عبد الله بن ياسين الدعاة يرسلهم إلى القبائل يحضون على الطاعة واحتواء مبادئ الدين ودخلت الحركة دورا ايجابيا لفرض اخضاع قبائل الملثمين بقيادة يحيى بن عمر. وكانت مملكة غانا لا تزال قوية تسيطر على مدينة أودغست وتتحكم فى أهم الطرق التجارية فكان أن اتجهت جموع المرابطين إلى الشرق نحو منحنى النيجر صوب مدينة أودغست لاستردادها من غانة ولحمل أهلها على اعتناق الاسلام والجهاد فى سبيل نشر الاسلام والاستيلاء على المدينة وللثائر لهزيمة الملثمين من قبل غانا وقد استشهد يحيى بن عمر فى هذه المعركة الفاصلة وانتصر المرابطون واستولوا على مدينة أودغست وأوغلوا فى توسعهم صوب الجنوب وقد حققت هذه الحملة آمال عبد الله بن

ياسين فقد تأكد للناس صدق جهاد المرابطين فى مدافعة ملك غانا وحمل أهلها على الاسلام وذاعت شهرة المرابطين لانهم عندما احتلوا أودغست عملوا على تمكين الاسلام ونشره بالدعوة الحسنى بين قبائل الزنوج التى أقبلت عليه أفواجا .

وأطمأن المرابطون على سيادتهم على الصحراء فبدأوا يطرقون أبواب المغرب وكان الاتجاه صوب ديار جدالة لانه لكى يواصلوا تقدمهم شمالا لابد أن يمروا بها حتى يقتربوا من ساحل المحيط فكان لابد من لقاء جدالة لانها تنكرت للدعوة أثر وفاة يحيى بن ابراهيم وحشد الجداليون مايقرب من ثلاثين ألف مقاتل وخاضت جيوش المرابطين المعركة واستطاع المرابطون أن يهزموا الجدالين شر هزيمة. ودخلت هذه القبيلة طائعة فى زمرة المرابطين .

وواصل عبد الله بن ياسين تقدمه فى اتجاه الشمال بعد أن أخضع جدالة لزعامة لمتونة مباشرة وانفضت جموع المرابطين على لمتونة وقد دخلت لمتونة فى طاعة المرابطين دون أن تكلفهم جهدا ويبدو أن دخولها كان سلما وهكذا استطاع عبد الله بن ياسين أن يخضع غانا وجدالة ولمتونة فى دعوة المرابطين ثم أخضعوا مسوفة ولمطة وجزولة وهكذا أقام حلف جديد من قبائل الملثمين .

وقد استطاع ابن ياسين أن يصنع المعجزة وأن يخضع ربوع الصحراء وأن ينشر لواء الاسلام على المنطقة الممتدة من جبال درن فى الشمال إلى منحنى النيجر فى الجنوب .

ومن ثم كان الاتجاه وراء جبال درن إلى المغرب ذلك لان أهل المغرب بدأوا يتطلعون إلى المرابطين لاسيما وأن علماء سجلماسة رفعوا أصواتهم بالشكوى مما وقع عليهم مما اعتقدوه ظلما وقع بهم وكتبوا إلى المرابطين فى الجنوب أن يطهروا البلاد من المنكرات والقضاء على الامراء. وعبر عبد الله بن ياسين على رأس رجاله الصحراء

متجها إلى الشمال فلما وصل إلى اقليم سجلماسة الذى كان يحكمه (مسعود بن وانودين) ورجاله من المغراويين الزناتيين الذين كانوا يسيطرون على المغرب الاقصى فانتصر عليهم واستخلص سجلماسة من أيديهم وفى المعارك قتل مسعود الزناتى. ودخلت المدينة فى طاعة المرابطين وهكذا التحم المرابطين بزناتة لاول مرة ثم بعد فتح سجلماسة ارتد إلى الجنوب فعبر الصحراء وهاجم أهل السودان الغربى فى حوض السنغال وانتصر عليهم وفتح بذلك أمام قبائل صنهاجة البربرية أبواب افريقية المدارية وكسر الحصار الذى كان مضروبا على صنهاجة وكذلك فتح أمامها أبواب التوسع شمالا وجنوبا فأخذت قبائل لمتونة وجدالة ومسوفة ولمطة وجزولة تتوسع جنوبا وبذلك كسر الاسلام النطاق ووصل إلى شعوب افريقية السوداء .

واذا كانت سياسة عبد الله بن ياسين من اذكاء العلم ورفع الروح المعنوية لهؤلاء القوم الا انه جعل أنصاره يقاتلون من أجل الدفاع عن الدين الاسلامى والعودة بالاسلام إلى مجده السابق .

واستطاع عبد الله بن ياسين أن يضع أساس دولة جديدة واتخذه لقومه أميرا يتولى أمورهم ويقود عسكرهم ورتب الجيوش وأمدها بالسلاح وأقام بيتا للمال وجبى الزكاة وأقام العدل وعمل على القضاء على كل ما يعانيه المجتمع من فساد وبعد عن معالم الطريق الاسلامى الصحيح .

وفى أثناء تلك الحروب قتل عبد الله بن ياسين عام ٤٥٧هـ/ ١٠٥٩م وبذلك اختفت تلك الشخصية الفريدة حيث انه كان رجل دين وسياسة وشخصية فريدة أوتيت القدرة على قيادة الرجال وصنع التاريخ .

وقام عبد الله بن ياسين بعمله كله معتزا بحياة يحيى بن عمر بن ابراهيم الجدالى أمير لمتونة وعندما مات يحيى بن عمر وخلفه فى الرياسة أخوه أبو بكر عمر

وقد حظى عبد الله بن ياسين بتأييده بل زادت مكانته عنده لأن عبد الله بن ياسين كان يعطى الامير حقه من الاجلال والتعظيم والطاعة. وعندما قتل عبد الله بن ياسين كان سلطان أبى بكر بن عمر وقبيلته لمتونة قد استقر وطاعت له كل قبائل لمتونة الصحراء ذلك لان عبد الله بن ياسين أتم رسالته قبل موته ووحد صفوف الصنهاجيين تحت راية الجهاد فى سبيل الله وقاد خطواتهم الاولى فى الانتصار على الزناتيين فى الشمال وقبائل افريقية المدارية فى الجنوب وقد ظل فترة يحج اليه الناس من كافة الجهات متبركين .

وكانت زناتة لم تصمد طويلا أمام زحف المرابطين الذين أوقعوا بهم هزيمة قاسية وتم للمرابطين الغلبة فأخضعوا المغرب الاوسط، ثم اتجه المرابطون بعد ذلك شرقا لمنازلة القبائل البربرية الاخرى تحدوهم النزعة القبلية ولكنهم خسروا قائدهم يحيى مما ألجأهم إلى البطء بعض الشئ حيث انتخبوا لزعامتهم أخاه أبا بكر بن عمر فتسلم من ابن ياسين القيادة .

وكان القضاء على زناتة فى المغرب الاوسط دافعا للقبائل البربرية الاخرى التى تسكن المغرب الاقصى وتعادى الزناتيين أن تنضم إلى المرابطين وتخف إلى نجدتهم وتقدم العون لهم .

وهكذا كان ابن ياسين قد سار على طريق السنة النبوية وقام يدعو إلى الحق ورد المظالم وقطع جميع المغارم وكان متمسكا بأهداف السنة عاملا على احيائها مالكى المذهب متمسكا بمذهبه حريصا عليه كل الحرص لم يتجاوز الحدود التى رسمتها السنة وما أجمع عليه أهل المذاهب وكانت حركتهم تحقيقا للاهداف السامية التى كان يسعى إلى تحقيقها من احياء الاسلام وبعث الروح من جديد .

الباب السابع

المرابطون بعد عبد الله بن ياسين ودورهم فى المغرب

أبو بكر بن عمر

بدأت قبائل المرابطين تتجه للمغرب الاقصى فى وقت اشتدت فيه حاجة العالم الإسلامى فى المغرب إلى دماء جديدة ذلك لان دخولها بلاد المغرب قد فتح لها مجدا يؤذن ببداية دور من أدوار الاستقرار والتنظيم فى بلاد المغرب ذلك لان هزيمة الزنوج واخضاعهم ونشر الاسلام فى بلادهم جعل المرابطين لا يخشون أن تطعن ظهورهم من الخلف وكان لابد أن يتجه الملثمين إلى الشمال ذلك لان قبائل زناتة ظلت تسيطر على الاراضى الخصبة فى المغرب فترة طويلة كما انها كانت تسد مسالك البلاد وتقاسم الملثمين تجارة المغرب والسودان فكان على الملثمين أن يناضلوا زناتة ومن هنا كان خروج المرابطين لفتح المغرب الاقصى والقضاء على زناتة .

وكما سبق القول فانه تم القضاء على حكم مغراوة فى سجلماسة لانها كانت من أشد أعداء صنهاجة الجنوب اذ كانت تقف سدا مانعا لتدفق الملثمين صوب المغرب واستطاع المرابطون هزيمة زناتة ووطدوا أقدامهم فى اقليم الواحات وارتفع صوت المرابطين فى اقليم الواحات .

وكانت قبائل المصامدة تكره الزناتيين أشد الكره وتتحين الفرص للقضاء عليهم وتبحث عن حليف تشد أزره ومن هنا ساعدت قبائل المصامدة المرابطين وبذلك استطاعوا فى وقت قصير أن يجتاحوا اقليم السوس الاقصى .

لذلك يعتبر ولاء المصامدة للمرابطين عملا سياسيا باهرا كما يعتبر اجتياز نطاق

جبال درن عملا عسكريا ممتازا ذلك لان قبائل المصامدة تكون كتلة متماسكة قوية شديدة المراس صعبة المقاومة، وانها كانت تسيطر على اقليم السوس الاقصى، كما أن الجيش المرابطى كان وحدة متماسكة وقد أوغل المرابطون فى اقليم السوس حتى المحيط الاطلسى واستطاعوا أن يبسطوا نفوذهم على اقليم مراكش الجنوبية وسيطر المرابطون على مدينة اغمات واتخذوها حاضرة لهم بالمغرب ولم يتركوها الا بعد بناء مراكش .

وذلك بعد أن سار أبو بكر عمر بالحركة فى طريقها الذى رسمه ابن ياسين وكان يستعين فى فتوحات بأقربائه وأهل بيته وخاصة ابن عمه يوسف بن تاشفين شقيق عمر وحوالى عام ٤٦١هـ/١٠٦٩م كان نفوذ المرابطين قد استقر فى حوض نهر تانسيف الفسيح وبات ضروريا انشاء قاعدة سياسية فكان انشاء مدينة اغمات التى كانت تقع جنوبى مدينة مراكش وكانت جيوش المرابطين تتألف من صنهاجيين ومصامدة وان ظلت الرياسة فى يد الصنهاجيين وكانت كل قبيلة تريد انشاء اغمات لها لكن تم الامر فى انشاء اغمات واحدة .

ويبدو أن المرابطين بعد أن تم لهم النصر على اغمات وتادلة لم يواصلوا الفتح على الفور بل بقيت قواتهم فى مدينة اغمات بسبب قتل عبد الله بن ياسين قائد المرابطين .

وشرع أبو بكر بن عمر فى بناء قاعدته وأطلق عليها مراكش وهى بالبربرية مروكش ومعناه قصر الحجر لان بناء المدينة أقيمت بالحجر وهكذا نرى أن هذا الرجل الذى ولد فى حوض السنغال فى افريقية المدارية عرف بفضل ايمانه بالاسلام ودخوله فى حضارته أن يضيف إلى تاريخ الحضارة الاسلامية مدينة من أجمل مدائن الاسلام وهى مدينة مراكش .

ويبدو أن صدى المعارك الدائر بين صنهاجة وزناتة قد ذاع صيتها فى المغرب كله فنجد أن صنهاجة الشرق فى المغرب الاوسط بقيادة (بلكين الحمادى) زحفت إلى المغرب الاوسط لمساعدة صنهاجة الجنوب واستطاع بلكين الحمادى الوصول إلى فاس من الخلف ثم عاد أدراجه إلى المغرب الاوسط وكانت بطون صنهاجة المنتشرة فى أنحاء المغرب الاقصى تنضم للمرابطين وتقدم لهم الدعم والمساندة (انظر الجزء الرابع من الموسوعة) دولة بنى زيرى .

وكان أن توقفت حركة المرابطين للزحف شمالا للمرة الثانية حيث كانت الاولى بعد وفاة عبد الله بن ياسين أما الثانية فانه بينما كان أبو بكر بن عمر قائد جيوش المرابطين وامامهم يرقب العمل فى بناء مراكش العاصمة الجديدة بلغه خبر أن قبيلة جدالة وثبت بقبيلة لمتونة فى الصحراء وأنزلت بها مذبحة فقرر العودة مسرعا إلى منازل القبائل الصنهاجية فى الصحراء لنجدة لمتونة وقبل رحيله جمع رؤساء قومه وطلب منهم أن يختار من بينهم رئيسا لهم يقوم بأمرهم فى غيابه فاختاروا ابن عمه يوسف بن تاشفين وكان تاشفين والد يوسف شقيقا ليحيى وعمر بن ابراهيم .

لكن هناك أقوال تذكر أن سبب تقدم وعودة أبى بكر بن عمر إلى الجنوب هو بسبب ثورة قام بها الزنوج وليس جدالة .

كما يبدو أن سياسة المرابطين فى استرضاء قبائل المغرب قد أتت أكلها وأقبل المصامدة على الاشتراك فى الجيش وانخرطت فى سلكه الفرق الزناتية وبعض فرق برغواطة نفسها وبدأت الدولة تتخلص عن الطابع الصحراوى نهائيا وتتخذ طابع الدولة التى قامت على مسرح المغرب .

وكان أبو بكر بن عمر قد ترك ثلث القوات المرابطية مع يوسف بن تاشفين وأخذ باقى القوات ومضى إلى لمتونة وجدالة وراء الصحراء ومنذ ذلك الوقت انقسمت حركة

المرابطين إلى قسمين أحدهما شمالى بقيادة يوسف بن تاشفين فى مراكش وكان نشاطه فى المغرب والاندلس والثانى يعمل فى افريقية المدارية جنوب الصحراء الكبرى ونظرا لان الصحراء تفصل بين القسمين فقد مضى كل من القسمين يعمل بنشاط .

وكان على المرابطين أن يستعدوا للمرحلة القادمة فى الصراع مع زناتة لانه لاتطمئن قلوبهم وهذا العدو يسيطر على مدينة فاس بالاضافة إلى أن المرابطين كانوا يدركون أن مدينة فاس والوادى الذى تقع فيه مركز النقل فى المغرب الاقصى كله كما أن الذى يبسط نفوذه فى تلك المدينة يستطيع أن يتحكم فى السهول الشمالية كلها ولذا كان قرار المرابطين التقدم نحو فاس والسيطرة عليها مهما تكن التضحيات البشرية واستعد كلا الطرفين المرابطون والزناتيون لمواجهة المعركة المقبلة لكن الهزيمة حلت بالزناتيين ودخل المرابطون مدينة مكناسة واستطاعوا فتح الطريق نحو فاس .

وزحف المرابطون للاستيلاء على فاس وتم لها السيطرة عليها وتركوا بها حامية صغيرة وتقدموا صوب الشمال نحو بلاد غمارة للاستيلاء على طنجة وانتهز الزناتيون فرصة تقدم المرابطون شمالا واستطاعوا اقتحام مدينة فاس وقتلوا حامية المرابطين ونكلوا بها أشد تنكيل، لكن المرابطين ضربوا حصارا شديدا حول فاس لكن زناتة قاتلوا المرابطين خارج الاسوار وهزموهم وكادت تضيع جهود المرابطين فى الجزء الشمالى من المغرب وخاصة مدينة فاس، لكن قائد المرابطين اضطر أن يجمع قواته وعاد أدراجه نحو فاس وعزلها من جميع الجهات ودخلتها قوات المرابطين وفرت قوات زناتة إلى المغرب الاوسط كما تم هدم أسوار المدينة .

وهنا للمرة الاولى بعد فتح فاس يعلو نجم يوسف بن تاشفين ويظهر كبطل حربى ومقاتل ممتاز فى احاطة فاس احاطة السوار بالمعصم والشروع فى استرداد البلاد المحيطة بها من أيدى زناتة وبسقوط فاس تنتهى الحلقة الاخيرة من حلقات الصراع بين زناتة

والمرابطين وبسطت صنهاجة الجنوب سيطرتها كاملة على المغرب الاقصى وتفرق شمل زناتة ولم تعد بالمغرب الاقصى قوة تذكر سوى صنهاجة .

وبعد أن قضى المرابطون على قوة زناتة فى المغرب الاقصى كان لابد لهم أن يتتبعوا القوات التى آوت إلى المغرب الاوسط للقضاء عليها نهائيا بدلا من التحرك إلى السهول الشمالية لاتمام سيطرتهم على المغرب الاقصى، لا سيما أن بعضا من بطون زناتة فرت إلى المغرب الاوسط لتعيد تجمع نفسها مرة أخرى للقيام بجولة أخرى فى الصراع مع المرابطين فكان اتجاه المرابطين إلى المغرب الاوسط .

لذا كان الاتجاه شرقا حتى الوصول إلى اقليم الجزائر حيث تم الاستيلاء على وهران وتنس ووادى ملوية ووجدة وكان فى قدرة المرابطين فتح افريقية لكن تم تركها ابقاء لصلات القربى مع صنهاجة الشمال من بنى حماد وبذلك سيطر صنهاجة الشمال على افريقية (تونس) بينما سيطر صنهاجة الجنوب على المغربين الاوسط والاقصى وقد استمر صراعهم فى المغرب عشرين عاما (٤٤٧- ٤٦٧هـ) والذى أطال تلك الفتوحات فترة عشرين عاما أن المرابطين جاءوا من الجنوب وفتحوا الصحراء ثم توغلوا فى المغرب الاقصى وتم فتحه اقليما اقليما ولم يتركوا ناحية فيه الا وبسطوا سيطرتهم الكاملة عليه ومن هنا جاء فتح المغرب بصورة تامة وكاملة وبذلك صار المرابطون سادة المغرب بعد هذا الكفاح الطويل الذى استغرق عشرين عاما من عمر دولة المرابطين التى يطول عمرها لتصل إلى مائة عام منذ خروج عبد الله بن ياسين من رباطه حتى ظهور دعوة الموحدين التى عجلت بقصر عمر هذه الدولة الفتية (٤٤٧- ٥٤١هـ) .

لقد كان خروج المرابطين لفتح المغرب انما للقضاء على البدع والمذكرات التى تقصف بالمجتمع الاسلامى فى ذلك العصر بل هى المرة الاولى التى تخرج فيها قوات

اسلامية منذ الفتح الاسلامى للمغرب لا حبا فى الفتح والغزو أو السيطرة وبسط النفوذ، بل من أجل رفع لواء الدين الاسلامى وتطبيق الشرع والسنة والقضاء على البدع واقامة العدل واظهار السنة فى ربوع المغرب والاندلس .

وقد أحس القوم فى المغرب أثر هذه الاصلاحات التى رفعها المرابطون لاقامة مجتمعهم الجديد، مجتمع خال من البدع والعسف والظلم والجور ولا شك فى أن الغالبية العظمى من الشعب المغربى كانت فقيرة مستضعفة وتسعى إلى تأييد هذه الحركات الاصلاحية التى وضع أساسها عبد الله بن ياسين فقد كان المرابطون يقيمون العدل ويظهرون السنة واحياء الدين وتطهير المجتمع من الفساد وخلعهم لحكم الملوك وقصر الضرائب على الزكاة والعشور فقط. حتى لقد أصبحوا فى نظر الشعب المغربى المنقذين الذين بعثتهم العناية الالهية لانقاذ الناس من المذلة والفقر والعبودية .

وكانوا المرابطون يطبقون فى المغرب الاقصى نفس السياسة التى طبقوها فى الصحراء حيث كان وراء زحفهم أسباب دينية بقصد الاصلاح، بل أن المرابطين لم يضعفوا بسبب مقتل امامهم عبد الله بن ياسين بل انه حين أشرف على الهلاك اجتمعوا واختاروا اماما غير انه استشهد هو الآخر فى ساحة القتال مما اضطر أبو بكر بن عمر أن يقود المجاهدين من المرابطين وأن يمضى فى القتال قائدا عسكريا واماما حتى تفرقت قبائل براغوطة وأعلنوا الطاعة وأسلموا اسلاما تخلصوا بعده من البدع والخمور والمسكرات والمزامير واستأصلوا العقيدة الضالة واستطاع المرابطون بهذا النصر فتح الطريق إلى طنجة وبذلك أصبحوا على مقربة من عداوة الاندلس التى سيلعب المرابطون دورا فيها يسجله التاريخ بحروف من نور فخما واعزازا للدور الاسلامى الخالد فى الاندلس .

ولقد كانت حركة المرابطين ذات دوافع دينية جعلتهم يقومون بهذه الحركة ليكسروا شوكة العناصر الاسلامية التى أدخلت البدع على العقيدة فى المغرب ولتحويل

الزنوج من عبادة الاوثان فى السودان إلى اعتناق الاسلام .

وكان الملثمون عندما خرجوا للغزو يصحبون معهم نسائهم وأطفالهم ومن هنا كان بناء المعسكرات التى أقامها المرابطون مثل مراكش واغمات تبليلا انما كان بقصد العناية بهذه الاسرات المستقرة فى صنهاجة ولئن غلبت البدواة على المرابطين الا انهم نزلوا السهول الزراعية الرعوية وحلوا بها كطبقة حاكمة وجند مسيطر وكانت سيادتهم المحافظة على جماعة الملثمين كطبقة متميزة لاتخالط أهل المدن ولعل هذه السياسة تفسر تشيدهم للحصون قرب المدن للمحافظة على الطرق التجارية مثل حصن تادلا ومدينة النصر قرب مكناسة وحصن الرباط الذى شيدة تاشفين بن على قرب سلا وحصن قلعة مهدى بن توالى وحصن تاودا .

ويبدو أن الاستقرار المرابطى فى المدن والسهول كان فى بداية الامر على حساب القبائل الزناتية خاصة مغراوة وبنى يفرن الذين كانوا أهل السيادة على الدويلات فى سجلماسة واغمات وقلعة المهدى وفاس وهزمهم المرابطون وورثوا ملكهم فى البلاد الغربية .

وقد ذكر المؤرخون أن قائد المرابطين بالمغرب أرسل إلى قبائل لمتونة وجدالة ومسوفة يرغبهم فى الاستقرار فى البلاد التى فتحوها ويشجعهم للهجرة شمالا فأخذت القبائل تتلاحق للاستقرار فانتشرت قبائل صنهاجة فى هذه البلاد المفتوحة .

أما قبائل مغرواة فقد زحفت إلى الصحراء واستقرت جنوبا فى منطقة جدالة بعد أن فقدوا سلطانهم السياسى بعد أن طردتهم لمتونة وغلبتها على أمرها واحتلت ما بيدها من أراضى خصبة وان مغراوة طردت إلى الصحراء وان المهاجرين الجدد احتلوا المنطقة التى كانت جدالة تحتلها من قبل .

وإذا كان المرابطين قد تمكنوا من القضاء على غالبية قبيلة براغوطة على ساحل المحيط الا أن هذه الامارة ظلت تسيطر على اقليم الساحل وتسيطر على مينائى سبتة وطنجة اللذين يتحكمان فى تجارة الاندلس ولها أسطول قوى يسيطر على المضايق وكان لابد للمرابطين من أن يبسطوا سيطرتهم على هذين الميائين لاتخاذهما ملجأ للاسطول المرابطى وتكوين أسطولا يحمى سواحلها ولم يكن الأمر يتطلب الا تجهيز حملة للسيطرة على السهول الساحلية وفتح طنجة وسبتة واستطاعت هذه القوات أن تدخل طنجة عام ٤٧١هـ وقتلوا أميرها ثم اتجهوا شرقا للسيطرة على مدينة سبتة وحاصروها فى البر والبحر واستطاع المرابطون الاستيلاء على سبتة. وتعتبر هذه المعركة من المعارك الفاصلة فى تاريخ المرابطين بل فى تاريخ المغرب فهى أول معركة تخوضها سفن الاسطول المرابطى وبهذا بسطوا نفوذهم السياسى والحضارى فى أقصى الجنوب حيث افريقيا المدارية والصحراء الكبرى حتى ساحل البحر فى أقصى الشمال .

وقد حققوا هذه الانتصارات الواسعة فى تلك الحقبة الزمنية بفضل قائد عظيم أظهرته الاحداث على مسرحها ليكون بطل الفتوحات المغربية والاندلسية والذى سيقع عليه عبء الدفاع عن ديار الاسلام فى الاندلس وليحفظ كرامة الانسان المسلم على أرض الاندلس ذلك هو يوسف بن تاشفين اللمتونى الذى قامت الدولة على أكتافه. والذى لعب دورا بارزا ومؤثرا بل وفعالا فى تاريخ المرابطين. بل به الشخصية الوحيدة فى تاريخ هذه الدول بل هو العمود الفقرى الذى حفظ للدولة كيانها ونفوذها وسيادتها وكان من الشخصيات القليلة فى التاريخ المغربى بل فى التاريخ الاسلامى عامة .

الباب الثامن

يوسف بن تاشفين ودوره فى المغرب

يعتبر يوسف بن تاشفين من أعظم الرجال الذين أنجبهم المغرب الاسلامى بل العالم الاسلامى قاطبة فاذا كان عبد الله بن ياسين صاحب دعوة المرابطين وامامها فان يوسف بن تاشفين هو بانى ومؤسس دولة المرابطين حيث كان له أبعد الاثر فى توجيه تاريخ المرابطين والمغرب وقام بدور أساسى فى بناء المغرب الاقصى واعطائه حدوده الطبيعية التى ثبت عليها التاريخ فهو الذى وحد من الصحراء إلى ساحل البحر المتوسط ومد حدوده من سحل المحيط إلى شرق نهر المولوية وضم اليه اقليم تلمسان والجزء الغربى من المغرب الاوسط حتى مدينة الجزائر .

ولم تذكر المصادر التاريخية شيئا عن حياته فى الصحراء بل انه ذكر لاول مرة باعتباره قائد مقدمة الجيش المهاجم، ولما تم فتح اقليم الواحات ولاه ابن عمه أبى بكر بن عمر على سجلماسة وانه كان متشبعاً بمبادئ الامام عبد الله بن ياسين .

ولقد أصبح اسم المرابطين مرتبطاً بيوسف بن تاشفين وكان ابن تاشفين أسمر اللون متوسط القامة رشيقا وهو وان كان لا يميل إلى الحرب الا انه كان شجاعا ذا عزيمة قوية نشيطا كريما عازفا عن الملذات، عادلا، ظل طول حياته مواظبا على أكل اللحوم وشرب اللبن لايعرف غيرهما غذاء له وقد أحسن إلى الناس وعمل فى سبيل الاصلاح بقدر الطاقة .

ويمتاز يوسف بن تاشفين بالخصائص الأساسية التى تميز بها بناة دولة الاسلام وكان عميق الايمان بالاسلام وفضله ورسالته وشعوره بأنه يجب عليه أن يخدم هذا

الدين ويدافع عنه ويرد كيد الاعداء ويجاهد فى سبيله ويعمل على حماية عالمه من الاخطار والنظرة الثاقبة الواسعة إلى العالم الاسلامى .

ويرجع اليه الفَضل فى فتح اقليم السوس الاقصى، فلما قتل عبد الله ابن ياسين وأجمع شيوخ المرابطين على مبايعة أبى بكر بن عمر وتشعبت وزادت مهامه اشتد اعتماده على ابن عمه يوسف بن تاشفين فقد اعتمد عليه فى قيادة القوات الملثمة المرابطة فى مدينة اغمات .

وعندما حملت الانباء من الجنوب تحفز ملوك الزنوج بقبيلة لمتونة فلم يجد أبو بكر أمامه الا الانحدار جنوبا ليوحد الملثمين والقضاء على القوات التى طعنتهم من الخلف فأخذ أبو بكر لابن عمه يوسف بن تاشفين البيعة على المغرب وفوض اليه أمره وقد أقره شيوخ المرابطين على هذا الاختيار فبرز يوسف بن تاشفين إلى القيادة وآلت اليه قيادة المرابطين فى المغرب فى ظروف عصيبة تتطلب مثل هذا القائد لمصارعة جميع القوى المعادية فى وقت واحد. فقد توافرت فيه الصفات التى جمعت حوله شيوخ قبائل المرابطين أصحاب عبد الله بن ياسين وكان من الشجاعة بحيث كان قراره مواجهة الاعداء جميعا دفعة واحدة تقوم القوات الصنهاجية كلها قومة رجل واحد تجاه الاعداء واليه يرجع الفضل فى فتح فاس واعادتها مرة ثانية من أيدى زناتة اذ اختص نفسه بمحاصرة منطقة فاس وما جاورها لانها قلب المقاومة وبهذا أخذت قلاع العدو تسقط واحدة تلو الاخرى وبدأت القوات المرابطية تأخذ زمام المبادرة بفضل قائدها يوسف الذى استطاع أن يذكى الحمية فى النفوس .

وبعد أن فرغ يوسف من انهاء وجود زناتة فى المغرب الاقصى وخاصة حول فاس

فإن أبا بكر بن عمر كان قد فرغ من القتال فى الجنوب ورد القبائل المتمردة وصارع ملوك الزنوج وعاد إلى المغرب الاقصى مرة أخرى وكانت عودة أبى بكر إلى المغرب عودة طبيعية حيث كان لايزال هو قائد المرابطين وأميرهم وامامهم بعد عبد الله بن ياسين لاسيما بعد أن فرغ من القتال فى الجنوب .

كما أن يوسف لم يكن يفكر فى اغتصاب الحكم من ابن عمه ولاقيادة الجيوش بل كان يعتبر نفسه قائدا من قبل أمير البيت اللمتونى وكان ابو بكر رجلا زاهدا يلبى المرابطون نداءه وكانت عودته إلى المغرب لا طمعا فى سلطة أو قيادة وإنما ليقف على الجهود التى بذلها يوسف ابن عمه .

وقد ترك أبو بكر بن عمر ليوسف أمر المغرب وعاد إلى الصحراء لانه كان رجلا زاهدا فى الدينا عزوفا عن السلطان وانه أحضر شيوخ لمتونة وأعيان الدولة وأمراء المصامدة والكتاب والشهود وأشهدهم بالتخلى عن أمر المغرب من تلقاء نفسه وان كانت النقود ظلت تسك (تضرب) باسمه منذ عودته عام ٤٦٥هـ حتى توفى عام ٤٨٠هـ باعتباره أمير الدولة وحاكمها الأوحد .

فحين تنازل أبو بكر ليوسف بن تاشفين عن حكم المغرب الاقصى كان أبو بكر المرئيس والامير والقائد ولكن فى عام ٤٥٣هـ/ ١٠٦١م اضطر للرجوع للصحراء والمغرب الاقصى لم يتم فتحه بعد، لان النزاع بين قبائل صنهاجة فى الصحراء والغزو الغانى من الجنوب هدد مواطن قبائلهم. فترك أبو بكر يوسف قائدا على المرابطين ليتم فتح البلاد الغربية وخلال غيبة أبى بكر كان يوسف يتصرف كنائب باسم أبى بكر، ولكن بعد تنازل أبى بكر اختلفت العلاقة بين الرجلين ويدل على ذلك أسباب تنازل

أبى بكر وتصرفات يوسف خلال فترة تابعيته ويبدو أن يوسف كان يعمل للاستقلال بالامر والتفرد بما يفتح من بلاد فأخذ فى عام ٤٦٤هـ/ ١٠٧٢م يكون جيشا من السودان والعرب والبربر والروم يكون ولاؤه له شخصيا كما شرع فى استدعاء المرابطين من الصحراء دون علم أبى بكر. هذا فضلا عن أن الجيش الذى تركه أبو بكر تحت إمرة يوسف أصبح ولاؤه ليوسف نتيجة انتصاراته فى المغرب وفتحه البلاد فوجدوا فيه البطل المحارب والقائد القاهر. وفى ضوء هذا يمكن فهم أسباب تنازل أبى بكر لما عاد إلى اغمات مرة ثانية من الصحراء، لقد اضطر للتنازل لما وجد ملكا قد شيد ودولة قد أست فى غيبته ومن صنع غيره فلم يكن أمامه الا التنازل واكتفى بحكم الصحراء ووعده يوسف بألا يبرم أمرا دونه أو يستأثر بخير عليه، وقد استقل يوسف بالمغرب استقلالاً تاما. غير انه حافظ على علاقات مودة بصنهاجة الصحراء حتى وفاة أبى بكر فى ٤٦٨هـ/ ١٠٧٥- ١٠٧٦م واستمرار الهدايا بينهما يشهد بذلك، لكن بعد فترة فى عام ٤٦٩هـ/ ١٠٧٦م جاء ابراهيم بن أبى بكر إلى مراكش مطالبا بحكم المغرب الاقصى فرد بالترهيب والترغيب فرجع إلى صحرائه محملا بالهدايا التى استمرت بعد ذلك عنوانا على حسن العلاقات بينهما وأغلب الظن أن المرابطين كانوا ينظرون إلى الصحراء نظرتهم إلى المناطق المستقلة عنهم اذ كانوا ينفون اليها غير المرغوب فيهم من الامراء مثلما كانوا ينفون هؤلاء إلى ميورقة قبل فتحها .

مهما يكن من شيء، فإن يوسف بن تاشفين يعتبر المؤسس الحقيقى لدولة المرابطين اذ أن اتمام فتح المغرب يرجع اليه فقد وطد نفوذ الملثمين وجعلهم يقيمون دولة بل إن البلاد كانت فى حاجة اليه .

وقد ورث يوسف بن تاشفين عند توليه قيادة المرابطين عام ٤٦٥هـ/ ١٠٧٤م

كل النتائج السياسية التى حققها من قبله فى المغرب عبد الله بن ياسين ويحيى بن عمر وأخيه أبو بكر فاختار لنفسه لقب أمير المسلمين وجعل من سجلماسة قاعدة جنوبية لدولته فأصبحت مركز تجمع الصنهاجيين القادمين من الصحراء. واهتم كذلك بمراكش وسلا فاتسع العمران فيها وأصبحت عاصمة دولة كبيرة وكثرت فيها المساجد والمنشأت وأصلح مدينة فاس بعد دخولها وجعلها مدينة واحدة بعد أن كانت مدينتين ولف حولها سورا حصينا وأكثر من انشاء المساجد فيها وأفلح يوسف فى القضاء على مقاومة القبائل التى كانت تقف فى طريق توحيد المغرب .

كما عمد إلى تنظيم الجيش تنظيما جيدا وجعل الجيش فرقا على رأس كل فرقة قائد من رجاله الذين يثق فى اخلاصهم حتى حقق ما أراد من نصر كما بنى الحصون والقلاع فى أرجاء المغرب الاقصى والاوسط وجعلها تمتد من مراكش جنوبا حتى مدينة فاس فى الشمال ومن تلمسان شرقا إلى طنجة غربا فاستطاع أن يطفئ نار الفتنة وأن ينشر الاسلام فى المغرب خاليا من البدع والضلالات ويقر الامن والسلام فى ربوعه .

وقد حكم يوسف بن تاشفين تلك الاقاليم الواسعة التى لم تجتمع لغيره من أهل المغرب من قبله بالحنكة والكياسة والفطانة والسياسة التى دلت على ملكات ادارية وتنظيمية كبيرة وكان أساس تنظيمه كله العدل أى إنه كان يتوخى بسط لواء العدل فى كل ما طاع له من البلاد والقبائل فكان يختار للولايات والامارات خيرة رجاله من أهل العدل والدين من رجال القبائل الصنهاجية ويضم إلى كل والٍ فقيه أو أكثر لكى تكون أحكام رجاله طبقا للشريعة الاسلامية والسنة النبوية .

بل إنه نظم الجيش وعمد إلى توزيع القيادة على فرسان صنهاجة فاختار أربعة قواد وسيرهم لقتال القبائل العاصية وهم محمد بن تميم الجدالى، عم بن سليمان المسوفى، ومدرك التلكاتى، وسير ابن أبى بكر اللمتونى وعقد منهم خمسة آلاف من قبيلته .

ورفع عن أهل البلاد فى المدن والقرى والقبائل المغارم والضرائب الباهظة التى كان يجمعها الزتانيون منهم وكان يوصى رجاله بالعدل والرفق بالناس وكانت له شخصية مهيبة فرضت نفسها على رجال القبائل الصنهاجية وأهمها لمتونة وجدالة ومسوفة ويليها فى الاهمية والقوة لمطة وجزولة وبنو وراث وتارجا وقد سرت روح الجهاد فى سبيل الدين فى نفوس أهل القبائل هذه كلها .

بل إن أهل الرجل لم يكد يقيم دولته حتى كتب إلى الخليفة العباسى يعلمه بالدخول فى طاعته ويظل برايته لان ذلك كان رمزا على وحدة العالم الاسلامى بل إنه كان يحكمه شعور دائم بضرورة نصرة الاسلام وحماية داره ما وسعه إلى ذلك داخل البلاد وخارجها بالاضافة إلى أنه كان يقرب اليه كبار الكتاب والادباء والعلماء وشجع العلماء والفقهاء وحثهم على نشر العلوم الاسلامية العربية ووضع الامكانيات الواسعة تحت أيديهم لنشر تعاليم الاسلام الصحيحة بين الرعية .

وكان يوسف بن تاشفين سلطان لمتونة لما ملك العدوتين (المغرب والاندلس) فانه قد نزع إلى الدخول فى طاعة الخليفة العباسى تكميلا لمراسيم دينه فخاطب المستظهر بالله العباسى وأخذ عليه بيعته عبد الله بن العربى وابنه القاضى أبا بكر من مشيخة أشبيلية يطلبان توليته اياها على المغرب وتقليده ذلك فانقلبوا اليه بعهد الخلافة له على

المغرب واستشعار زيهم الأسود فى لبوسه ورتبه وخاطبه فيه بأمير المؤمنين تشريفا واختصاصا فاتخذها لقبا له ويقال انه كان دعى له بأمير المؤمنين من قبل أدبا مع رتبة الخلافة لما له عليه قومه المرابطون من انتحال الدين واتباع السنة .

لا سيما أن يوسف كان قد جمع للدولة ثروة طائلة من الزكاة والعشور وغيرها من الدخول وقد عمل على تأليف قلوب زعماء الملثمين وولى رجالها الاعمال واستطاع بهذه السياسة البعيدة النظر أن يستميل الزعماء وأن يكسب ودهم فمالوا اليه ووقفوا إلى جانبه وعمد يوسف إلى مهادنة القبائل المغلوبة على أمرها فكان يستدعى زعماءها ويكرم وفادتهم ويجزل لهم العطاء ويؤلف قلوبهم .

وبذلك استطاع المجاهد يوسف بن تاشفين أن يتم فتح جميع أرجاء المغرب الاقصى وأن يعلى كلمة المرابطين فيه ويرفع من شأنهم وينشر الامن والرخاء فى ربوع البلاد بفضل السياسة الحكيمة التى انتهجها فبدأت الحياة تدب فى شتى مرافق الحياة وبدأت قبائل الملثمين تنتشر فى البلاد وتستقر فيها وبدأت قبائل الملثمين بعد هذا النصر العظيم على قبائل زناتة تشعر بقوتها وبدأت الموارد المالية تتدفق على بيت المال بعد كفاح دام عشرين عاما .

وعلى هذا فقد أتم يوسف بن تاشفين دور أستاذه ومعلمه الاول عبد الله بن ياسين كما انه شارك ابن عمه أبى بكر بن عمر مرحلة الفتح الاولى فى المغرب وأتم بمفرده فتح باقى أنحاء المغرب الاقصى حتى الساحل الشمالى وبذلك فاذا كان الفضل فى دعوة المرابطين وقيام دولتهم فى المقام الاول يعود إلى عبد الله بن ياسين وتعاليمه التى طهرت النفوس، فان الفضل يرجع إلى يوسف فى فتح بلاد المغرب كلها والانتقال

بالدولة من الطور الاول وهو الطور الصحراوى إلى الطور المتطور المستقر الراقى القائم على الادارة والتنظيم وبناء العاصمة واتخاذ الحصون والقصور وبناء الاساطيل وتخليص الدولة من طابعها الصحراوى البدوى إلى السمة المغربية الخالصة .

واذا كان شيوخ المرابطين قد اختاروا أبو بكر بن عمر خليفة لعبد الله ابن ياسين بعد قتله، فإن القوم قد وافقوا على اختيار يوسف وسلموا له بحق القيادة السياسية والزعامة الدينية ووثقوا فيه كل الثقة بأنه القائد القادر على قيادتهم فى الأزمات وتحويل الهزيمة إلى نصر كما حدث فى معركة فاس وهو الذى يرفع لواء الجهاد فى سبيل نصرة الدين الاسلامى .

ولقد قام المرابطون فى المغرب بأعمال رائعة فعلا فقد جعلوا من أنفسهم سداً يحول بين الحكم الفاسد والضرائب الجائرة ولبى الناس معتصمين بالقرآن الكرميم وتمكنوا بذلك عن طريق المدينة الحديثة مراكش أن يقيموا امبراطورية اسلامية ناجحة تسيطر على النصف الغربى والاوسط من المغرب لأن الجهاد كان عصب هذه الحركة والقوة التى دفعتها إلى الامام وكان يوسف بن تاشفين رائدا فى ذلك المضمار .

وانه لم ينته عام ٤٧٥هـ/ ١٠٨٢م حتى وصل يوسف بن تاشفين إلى ذروة قوته فى المغرب، أى انه تمكن من بناء هذه الدولة الكبيرة خلال اثنتى عشرة سنة من العمل الدؤوب وأقامها على أكتاف رجال من صميم المغرب وقيام هذه الدولة يمثل ذروة التطور السياسى فى المغرب منذ الفتح الاسلامى .

ولقد كان قيام دولة المرابطين أقوى التجارب فى المغرب وأنضجها جميعا مما يدل على أن الاسلام عندما دخل افريقية والمغرب أيقظ أهلها ووضعهم فى طريق التقدم

السياسى والاجتماعى حتى وصل بهم إلى هذا المستوى الذى وصل اليه يوسف بن تاشفين بالحركة المرابطية. وقد اشتهر ذكر يوسف بن تاشفين اذ ذاك فى العالم الاسلامى كله بأنه سلطان مسلم عادل ومجاهد ومخلص فى سبيل الله .

وكان الجهاد فى المغرب فى الصحراء قبل ذلك دستور الملثمين ورائد المرابطين .

ولقد كانت رسالة عبد الله بن ياسين هى عدم الخلود إلى الراحه والدعة ولو ركنت إلى الراحة بعد هذا الكفاح لتفرق شملها لأنها كانت تريد أن تبعث الامة الاسلامية بعثا جديدا ، بل إن دولة المرابطين كانت بأفعالها تقول للدول الاسلامية المعاصرة إنها دولة مجاهدة فى سبيل الاسلام وتعمل على رد أعداء الإسلام عن ديار الإسلام .

ومنذ ظهور دولة المرابطين توفرت فى البلاد المغربية حياة مستقرة كما أن مراكش أصبحت مركز الثقل السياسى فإليها يهرع المتعلم طلبا للعلم، والتجار بحثا عن سوق فتفاطرت جموع البربر والعرب والاندلسيين إلى تلك العاصمة .

ولما أتم المرابطون فتح المغرب نظروا إلى قبائل البربر التى فتحوا أرضها على انهم أنصار من الاصل ولم يقم المرابطون باسترقاق القبائل البربرية التى فتحوا أرضها، بل نظروا اليهم كأهل أو جيران .

وتحالف الفقهاء مع المرابطين منذ بداية ثورتهم وما اشراكهم فى الخمس الا مظهر من مظاهر هذا التحالف ولما تم فتح باقى أرجاء المغرب توثقت عرى الحلف فعمل الفقهاء مع الدولة الجديدة واحتلوا المراكز الاساسية فى الادارة .

وقد فرض المرابطون الامن فى أرجاء دولتهم منذ قيامهم وتأقلموا بسرعة مع الحضارة المغربية وقامت نهضة زراعية فى البلاد، وكل هذا كان من العوامل التى ساعدت على قيام صناعات جديدة وتطوير القديم منها وكانت مراكش هى مركز السلطان السياسى ومكان الصناعات الجديدة فقد نقلت الخبرات المغربية إلى هذه المدينة ولكن الدولة الجديدة لم تكن فى حاجة إلى كسب مادى فلم تكن فى حاجة إلى أن تكسب أرضا جديدة أو تمضى فى توسع جديد، انما كان المرابطون يهدفون إلى تنفيذ تعاليم عبد الله بن ياسين فى احياء الإسلام ورده إلى قوته الاولى ومحاربة البدع والفساد وبعث الامة الاسلامية بعثا جديدا .

وكان استيلاء المرابطين على مدينة طنجة وسبتة قد جعلها تطل على سواحل البحر المتوسط وأصبحت لها شواطئ طويلة معرضة لغارات الاساطيل الاجنبية من الفرنجة. ومن هنا بات فى فكر الدولة الجديدة أن تلقى بنظرها إلى ما يجرى فى البحر المتوسط وما خلفه من ديار اسلامية وما يجرى من صراع سياسى وحربى بين المسلمين والفرنجة من أجل السيادة البحرية بل إن الدولة الجديدة بدأت تطل بثاقب نظرة إلى الأندلس، وما يجرى فيه من أحداث مؤسفة بتات تحدق بالمسلمين من كل جانب بهذه الديار وكان ما يجرى فى حوض البحر الابيض المتوسط أو فى الاندلس تهلع له قلوب المسلمين وتنفطر له ديار الاسلام الذين يتابعون بألم وأسى ما يجرى لأخوانهم ولدينهم وتراثهم الاسلامى الخالد. ومن هنا بات قاب قوسين أو أدنى أن تدخل الدولة الجديدة فى المعركة الدائرة رحاها بين المسلمين والفرنجة والتى تنذر أحداثها بنذر خطيرة فى تاريخ المغرب والاندلس. لذا كان الواجب الاسلامى يقتضى التدخل المباشر فى ميدان الجهاد لمدافعة الفرنجة وردهم عن حياض المسلمين سواء فى حوض البحر الابيض أم

فى الاندلس .

لانه لم يكن من الممكن أن تقف مرحلة النضال عند حدود المغرب الاقصى لان قيام الدولة لم يكن فى الواقع الا حركة جهاد مستمرة بدأت مرحلتها الاولى فى الرباط الذى أنشأه عبد الله بن ياسين فى حوض السنغال ثم شملت الصحراء والمغرب وأخيرا الاندلس .

ذلك لانه فى تلك الاوقات العصيبة فان أمر المسلمين فى الاندلس قد وصل إلى درجة من الضعف والانهيار جعلت مصير الاسلام فى شبه الجزيرة فى حظر شديد حيث باتت الاخطار تحدق بالاندلس من الشمال والغرب بعد أن تقاسمت بلاد الاندلس جماعة من ملوك الطوائف أو المستبدين بأقاليمهم حيث كانوا فى الاصل عمال دولة الخلافة القرطبية أو قضاة فى اقاليمهم فقدمهم الناس الولاية حتى تتجلى غمرة الحرب الاهلية التى دارت رحاها حول الخلافة بعد سقوط العامريين ثم حولوا أنفسهم سلاطين صغار لكل منهم بلاط وحاشية .

وقد توج يوسف بن تاشفين عمله باعتباره حامى الاسلام بأن قاد جنده إلى الاندلس. ولقد كان قيام يوسف بن تاشفين بعبوره إلى الاندلس وقام بدور كبير فى انقاذه من الضياع خلال النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى، الحادى عشر الميلادى وكسب للاسلام فى صراعه مع النصرانية على مصير الاندلس انتصارات كبرى جعلته شخصية مشهورة لها مكانها فى تاريخ أوربا والمغرب كله وهو لهذا كله يعتبر من أفذاذ الرجال فى تاريخ الاسلام .

وبما يكن من شئ فإن الاوضاع فى الاندلس تناهت فى السوء وأصبحت الحالة

فيها شاقة عسيرة ووضح للناس أن النهاية آتية لا ريب فيها فتحكمت الذاتية فى أطماع الناس شعبا وحكاما وأصبح الامراء يعيشون لساعتهم لايحسبون حسابا لشعبهم ودينهم وظهرت روح الضعف فى صفوف ملوك الطوائف وانهارت القوى المعنوية للشعب وكاد يفتقد قدرته على المقاومة والنضال .

وكان الفقهاء والمفكرون يشاهدون هذه الفرقة الداهمة فيتألمون لما أصاب المجتمع من انحلال ويصورون هذه الحالة المفجعة بأسلوب مفعم بالألم والحسرة وكتبوا كثيرا إلى الامراء يدعونهم إلى الوحدة وتأليف القلوب لمواجهة ذلك العدو الذى زاد عدوانه وانتشر فى أنحاء كثيرة فى الاندلس. لكن لم يستجب لهم مستجيب الا أن جهودهم لم تذهب سوى فقد أخذوا يوضحون لاهل الاندلس الاحوال القائمة فى البلاد والحالة التى وصل اليها أمرهم من ضعف وانهيار ويلقون الضوء على الفساد. ويهيئون العقول لقبول تحول جديد فى تاريخ البلاد، ويمهدون الطريق لفتح صفحة جديدة فى تاريخ الأندلس أمام زحف المرابطين القادم من المغرب والذين رفعوا راية الجهاد الاسلامى من أفريقيا المدارية عبوراً للصحراء وصولا إلى المغرب وساحل البحر المتوسط ثم الخطوة القادمة مواصلة الجهاد فى الاندلس .

الباب التاسع

جهاد المرابطين فى الاندلس

بعد أن أتم يوسف بن تاشفين فتح بلاد المغرب أخذ يجوب أرجاءه محرضا القبائل على الجهاد فى سبيل الله محرضا لهم الانخراط فى سلك المجاهدين لانه كان يرى وجوب اتحاد القوة الاسلامية كلها خلف قوات المرابطين للقيام بعمل اسلامى واحد فى الدفاع عن حقوق اخوانهم فى الاندلس لانه كان يرفع شعار الجهاد فوق كل شعار لاسيما بعد حالة التردى التى وصل اليها حال المسلمين فى الاندلس .

وانتهز ملوك أسبانيا من النصارى فرصة الضعف والفرقة التى حلت بالمسلمين فعملوا على التوسع على حساب أولئك الامراء الضعاف الذين كانوا يعتمدون على قوات من الجند المرتزقة. وفى تلك الاثناء كان يوسف بن تاشفين بعد العدة للتدخل فى الاندلس لانه كان يسعى لتحقيق أهداف المرابطين فى الجهاد والتمكين للدولة الناشئة والدفاع عن القوى الاسلامية لانه وضع نصب عينيه الجهاد فى الاندلس وهو يسير قواته لفتح سبتة وطنجة وأصبح المرابطون بعد قرب الصلة بين المغرب والاندلس وقد أطلوا على هذه البلاد يشهدون ما يجرى فيها من أحداث ويرقبون المعركة الدائرة بين المسلمين والنصارى .

بالاضافة إلى أن الفقهاء والعلماء كانوا يرحلون من الاندلس إلى المغرب معتصمين بالمرابطين كما كان هؤلاء الفقهاء يرون الاحداث الدامية فى الاندلس لشيوخ المرابطين بل إن بعضا منهم كان يقابل يوسف بن تاشفين ويحضونه على وجوب التدخل بعد أن اشتدت وطأة الفرنجة عليهم .

وكان يوسف يضع أحوال المسلمين فى الأندلس من الاهداف الرئسية للجهاد

ومن هنا أعد العدة للتدخل فى تلك الديار ولوانه كان عازفا عن التدخل فى الاندلس لصرف هذه القوات لغزو افريقية والتوسع شرقا اضافة إلى أن ملوك الطوائف فى الاندلسى أحسوا باستعداد يوسف لدخول الاندلس فكاتبوا يوسف تحت ضغط الفقهاء الذين لعبوا دورا بالغا فى تدخل المرابطين اذ وضعوا قضية الوطن أمام الرأى العام الاندلس ودعوا لإيجاد وحدة بين القوى الاسلامية للوقوف فى وجه الخطر الفرنجى الزاحف لاسيما بعد سقوط طليطلة وازدياد نفوذ النصارى فى الاندلس ومن هنا عملوا على تأليب الرأى العام على ملوك الطوائف ويمهدون لجيوش المرابطين اذا هى تدخلت فى الصراع الدائر على أرض الاندلس حتى يلتف الشعب الاندلسى خلفها لاسيما أن القوى النصرانية تريد القضاء نهائيا على القوى الاسلامية .

وكان المرابطون يعدون العدة لخوض معركة الاندلس والجهاد مهما كلفهم ذلك من أضرار وخسائر اذ قال يوسف بن تاشفين فى هذا الصدد عند السيطرة على الجزيرة الخضراء فى الاندلس «انما كان غرضنا فى تملك هذه الجزيرة أن نستنقذها من أيدى الروم لما رأينا استبدادهم على أكثرها وغفلة ملوكهم واهمالهم للغزو وتواكلهم وتخاذلهم وايثارهم الراحة. ولئن عشت لأعيدن جميع البلاد التى ملكها الروم فى طول هذه الفتنة إلى المسلمين ولاملأنها عليهم خيلا ورجالا لا عهد لهم بالدعة ولاعلم عندهم برخاء العيش انما هم أحدهم فرس يروضه .

وكانت حركة الاسترداد فى عهد «فردناند» قد اتخذت صفة دولية وبدأ النصارى فى كافة أوربا ينظرون اليها كجهاد مقدس وكان الملك المسيحى يريد أن يلعب دورا عاليا ويبسط نفوذه لا على شبه جزيرة ايبريا فقط بل على كل غرب أوربا كلها ومضت حركة طرد المسلمين من ديارهم فى الاندلس حتى بلغت الذروة وأصبح يطالب بإخضاع جميع المسلمين واجلائهم عن الميلاد. فقد كان يعمل على ارهاب القوى

الاسلامية وبث الرعب فى قلوب المسلمين وبثقل على الناس والأمراء فى فرض الجزية والغرامات حتى اذا أضاف الامراء المسلمين وخافوا بطش زعيم النصرانية اضطروا إلى دفع الجزية والاستعانة بالاموال لدفع خطر الفرنجة وقد دفع الجزية صاحب طليطلة وأشبيلية وبطليوس وسرقسطة لأنهم لم يكونوا قادرين على الدفاع عن ديارهم ولم تكن لديهم الكفاءة القتالية ودارت الحرب وبدأ الصراع يشتد بين المسلمين والنصارى وأخذ كل صاحب قوة يجنح إلى استخدام قوته لتحقيق مجده الشخصى وضاع الحماس الدينى وطلب بعض الامراء المسلمين التحالف مع المسيحيين بل أصبحوا تابعين يدفعون الجزية وبلغت حركة طرد المسلمين ذروتها فى عهد «فردناند» وبدا للناس أن أيام المسلمين فى شبه الجزيرة معدودة، ولولا وفاة فردناند عام ١٠٦٥م وتفرق شمل ملكه عقب ذلك لانتهت دولة المسلمين بالاندلس نهائيا .

وفى تلك الظروف لم تستطع القوى الاسلامية أن تنبذ خلافاتها وتوحد قوتها وتنتهز فرصة الانهيار فى المجتمع المسيحى، لكن آلت الزعامة المسيحية إلى الملك ألفونس السادس الذى أخذ يعمل على طرد المسلمين بعد أن جمع ملك أبيه «فردناند» واستطاع أن يجعل الحرب الدائرة فى الاندلس حربا صليبية ترعاها كنسية روما وتجند المسيحيين من أجل المشاركة فيها بل أن البابا فى أوربا قال أن الحرب فى الاندلس لاتقل أهمية عن الحروب الصليبية فى الشرق .

وكانت أضعف الامارات الاسلامية فى الاندلس امارة طليطلة التى يحكمها أبناء «ذى النون» وكانت ولاية واسعة تمتد من حوض نهر تاجة إلى مشارف حوض الوادى الكبير بل كانت هذه الامارة تمثل ربع الاندلس وكان يحكمها أمير من بنى ذى النون يلقب بالمأمون كان يدفع اتاوة سنوية لملك قشتالة وليون المجاورتين له من الشمال والغرب .

وكان الملك «ألفونسو السادس» لما استقر على عرش بلاده بدأ يرمى ببصره إلى طليطلة ليحقق أهدافه فى الاستيلاء عليها وكان من أثر هذه السياسة أن سقطت مدينة طيطلة فى يده وانتزع من صاحبها بعض الحصون المحيطة بها ثم انقض على المدينة وضرب حولها حصارا فلم يكن بدا من التسليم وكان لسقوط طليطلة فى يد ألفونسو السادس أثر عظيم فى حركة طرد المسلمين وإلهاب حماس القوى النصرانية والعمل على القضاء على المسلمين نهائيا من الاندلس، وفت فى عضد المسلمين وبادروا يخطبون ود ألفونسو الذى كان يطمع فى الاستيلاء على قرطبة حاضرة الخلافة بعد أن بدأت الحصون الاسلامية تتهاوى أمامه دون أن يرتفع أمامه سيف واحد وهكذا استولى ألفونسو على ربع الاندلس دون أن يستعمل سلاحا .

ورغم هول الصدمة وشدة تأثيرها فى القوة الاسلامية مما جعل ملوك الطوائف يفيقون من غفلتهم ويدركون أن مصيرهم كلهم مثل طليطلة وصاحبها المأمون بن ذى النون، بعد أن تحولت مملكة قشتالة وليون إلى أكبر دولة فى شبه جزيرة أيبريا بعد استيلائها على طليطلة وانحدرت قواتها إلى الجنوب واستولت على معظم بلاد حوض الواديانة ودخلت قواتها قوربة والاشبونة وشنترين وأخذ ألفونس السادس يتأهب للاستيلاء على بطليوس وأشبيلية ولم يعد يقنع بالأتاوات التى يؤديها اليه أمراءها، كما أرسل إلى كل الامارات الأندلسية نوابا عنه ليفرضوا سلطانه ويرهبوا عدوه وضرب الحصار حول سرقسطة ورفض الاموال السخية وحاصرت قوات قشتالة مدينة غرناطة وبدأت الاحلام تراود النصارى فى أخذ قرطبة حاضرة الخلافة والملك .

بل إن بعض الروايات تذكر أن ألفونسو السادس سار جنوبا إلى أقصى جزيرة طريف فأدخل قوائم فرسه فى البحر وقال هذه إخر بلاد أجدادى .

ومن الغريب أن ملوك الطوائف قد أكسبوا سياسة اغتصاب امارتهم صفة شرعية

نظرا لقعوسهم عن الجهاد وتفرقهم لأن الفرقة كانت ظاهرة شاملة انتابت الشرق الاسلامى كله، لكنها فى الاندلس كانت كارثة، الفرقة فى العالم الاسلامى والوحدة والنهضة تدب فى أوصال أوربا فى القرن الحادى عشر الميلادى وأوائل القرن الثانى عشر وظهرت فى أوربا نهضة عظيمة بدأت تبسط سلطانها على غرب أوربا وتدفع القوى المسيحية المختلفة إلى خوض معركة حاسمة ضد القوى الاسلامية فى الشرق والغرب .

وكانت دعوة المرابطين قد أيدها رجال الدين الذين طالما سمعوا عن بساطة المرابطين وأيدهم الشعب وبدد المعتمد بن عباد الذى خلف أباه المعتضد على عرش أشبيلية شكوكهم حين قال انه لا يرغب فى أن يصفه نسله بأنه الرجل الذى ترك الاندلس فريسة لغير المؤمنين فسوف يلعن اسمى على كل المنابر، أما من ناحيتى فإنى أوثر أن أكون راعى ابل فى افريقيا على أن أكون ملكا فى قشتالة .

وهكذا تم استدعاء المرابطين للاندلس .

وعلى الطرف الآخر كانت قد انهارت القوى المعنوية للشعب المسلم فى الاندلس وكاد يفقد قدرته على المقاومة والنضال نظرا لفساد الحياة فى البلاد لأن الامراء خانوا الامانة على مرأى ومسمع من الناس .

لكن فى هذه الظروف الصعبة التى تمر بها الاندلس اضطر ملوك الطوائف إلى طلب النجدة من يوسف بن تاشفين وتوجه وفد من فقهاء الاندلس ولقى يوسف بن تاشفين واطلعه على خطورة الوضع وشرح أحوال ملوك الطوائف وطلب إلى الامير المرابطى إلى أن يعمل على انقاذ الاندلس وأدرك المجاهد خطورة الموقف ولبى داعى الجهاد الذى قامت حركة المرابطين على أساسه وهو الجهاد فى سبيل عزة الاسلام .

وفى عام ٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م. عبرت قوات يوسف بن تاشفين بقيادة دواد بن

عائشة إلى الاندلس بجيش ضخم استطاع المرابطين الاستيلاء به على الجزيرة الخضراء بعد عبورهم المضيق واحتلت طلائع المرابطين الجزيرة الخضراء وبدأوا يتخذونها معسكرا كبيرا تتدفق اليه بقواتهم كما أخذوا يحشدون القوات ويعدون العدة وأخذت القوات تأمن نفسها وتقيم خطوط الاتصال مع المغرب وبدأت القوات تحتشد عند مدينة سبتة وعلت صيحة الجهاد فى الاندلس وقد عبر يوسف البحر ونزل بالجزيرة الخضراء وخرج اليه أهلها وسرت فى البلاد روح جديدة حيث قام الفقهاء والعلماء وقادة الفكر يجوبون البلاد ويعملون على توحيد الجهود أمام القوات القادمة من المغرب لانقاذهم وانقاذ الاندلس من نير التسلط المسيحى على رقابهم وأرواحهم وممتلكاتهم والذى يعمل على طردهم من ديارهم .

وبدأ المجتمع فى الاندلس وكأنه أفاق من نوم طويل وبدأ ينفض عن نفسه ماتراكم عليها من هموم وبدأت الحياة تدب فى أوصال المجتمع على يد هؤلاء المحاربين الاشداء الذين تاقت قلوبهم إلى الجهاد والاستشهاد، وبدا للناس كأن المعجزة التى طالما انتظروها قد تحققت وباتت كأن الاندلس قد أصبحت يدا واحدة بعد طول فرقة وتحاسد وبدا كأن جهود يوسف قد باتت تؤتى ثمارها المرجوة وأصبح الاندلس كأنه معسكر واحد كبير. وهكذا تحقق الهدف الذى كان يصبو اليه ابن تاشفين وهو حشد القوى الاسلامية وتكتل القوات والوقوف فى خندق واحد حتى انه لم يبق من ملوك الطوائف بالاندلس أحدا إلا بادر بالخروج بقواته وزحفت القوات عليه من أنحاء الاندلس. وأراد يوسف أن يبقى على هذه الوحدة فعاهد ملوك الطوائف على أن يكونوا يدا واحدة وأن تتوحد جهودهم لحفظ كرامة الاسلام والمسلمين فى هذه الديار والوقوف أمام الزحف الجارف والاطماع التى تحرك ألفونسو السادس بعد استيلائه على طليطلة ومحاولة القضاء المبرم على قوات المسلمين .

وجاءت القوات الشعبية من المتطوعين من سائر الجهات وأصبح المعسكر يعج بالمجاهدين والمتطوعين من كل فج وجاءت قوات المعتمد بن عباد والمتوكل بن الافطس وقوات ابن صمادح صاحب المرية وقوات غرناطة والثغر الاعلى وابن ذى النون وبنى عزون؛ مما اضطر يوسف أن يقسم القوات إلى معسكرين: معسكر المرابطين ومعسكر الاندلسيين .

وعلى الجانب الآخر أحس المعسكر المسيحى بأن الخطر الاسلامى يتهدده وان الجبهة الاسلامية قد توحدت ووقع فى الجبهة الاسلامية ما لا تحمد عقباه بالنسبة للقوى المسيحية وكان ألفونسو السادس يشدد الحصار على سرقسطة فاضطر إلى رفع الحصار. وبدأ يحشد القوى النصرانية ويطلب مساعدة الامم المسيحية وترددت أصوات النجدة فى أرجاء البلاد الاوربية وجاء دور الكنسية لكى تذكى الشعور المسيحى وتدفع المتطوعين بالحماس ورفع القس والرهبان والاساقفة صلبانهم ونشروا أناجيلهم وجاءت قوات أوربا من ايطاليا ومن فرنسا خلف جبال البرانس ومن قشتالة وارغونه وجليقة وليون واشترويس ورفع الحصار المسيحى الذى كان مضروبا حول امارة بلنسية الاسلامية .

وتم الاتفاق بين القوى الاسلامية على أن يتجه الجيش المرابطى ومن يرافقه من مقاتلة الاندلس نحو بطليوس فى غرب الاندلس لان ألفونسو السادس بعد أن استولى على قورية والاشبونة وشنترين كان يستعد للاستيلاء على امارة بطليوس وكانت تمثل مكانة فى غرب الاندلس .

وجاءت النذر بأن صداما لابد واقع بين القوى المسلمة المجاهدة التى تدافع عن وجودها ودينها وبين القوى النصرانية التى شدت أزرها كل أوربا وبذلك بلغت القوى المسيحية فى شبه الجزيرة أقصى مداها، وان المعركة التى سوف سيشترك فيها الطرفان

ستكون من المعارك الحاسمة والفاصلة فى تاريخ أوربا بل إن أثرها سينعكس على سير التاريخ بين القوى الاسلامية والقوى المسيحية لعدة قرون .

وكانت القوات الاسلامية قد دخلت أشبيلية وعادت القوات المسيحية إلى سرقسطة وأقام المرابطون وحلفاؤهم بعض الوقت فى أشبيلية وتحركت قواتهم صوب بطليوس وان الاتجاه هو التقدم نحو قورية ثم الانقضاض على طليطلة، لكن القوات المسيحية التى تدفقت سبقت المسلمين نحو قورية وسيطرت عليها .

وجاءت أحداث مغربية أخرت تقدم المسلمين نحو طليطلة والتى فكر المرابطون فى السير اليها مهما تكن التضحيات وطول المسافة والتوغل فى أراضى المسيحيين وبعد خطوط المواصلات واتخذت القوات الاسلامية قرارها بعدم مغادرة مدينة بطليوس واقامة المعسكر بالقرب منها نظرا للظروف التى ألمت بالامير يوسف بن تاشفين وبسبب تقدم القوات المسيحية صوب بطليوس لملاقاة المسلمين اذ أقبل ألفونسو السادس بحشوده وأخذت قواته تتقدم حتى صارت على بعد ثلاثة أميال من معسكر المسلمين فى الزلاقة وكان يفصل بينهم نهر بطليوس. وكان يوسف لا يطمئن إلى ملوك الطوائف كل الاطمئنان على حين كان فقهاء الاندلسيين يشكون فى أهل الاندلس ويحذرون المرابطين مغبة الثقة التامة فيهم وكان يوسف حذرا كل الحذر فى ذلك فكان لا يقبل على المخاطرة بقواته مع قوات الاندلسيين للقاء القوى النصرانية حيث كانوا حديثى عهد بلقاء النصارى لذا كان قراره بفصل معسكره إلى معسكرين عقب رحيله عن أشبيلية وتحركه إلى الشمال الغربى من المدينة قاصدا مدينة بطليوس فى انتظار لقاء الفرنجة لانه لا قدر الله اذا باءت جهود المسلمين بالفشل وأخفقوا فى هزيمة ألفونسو اعتصم المسلمون بقلعة المدينة فلا تكون الخسارة كبيرة فى قوات المسلمين .

القوى الاسلامية تقهر قوات أوربا الصليبية

معركة الزلاقة ودور المرابطين

في صبيحة السبت الثالث عشر من رجب عام ٤٧٩هـ/ أكتوبر ١٠٨٦م على وجه التحديد دارت رحى أعظم معركة فى تاريخ الاندلس حيث كان لها صدى بعيد على مستوى العالمين الاسلامى والمسيحى ووصلت أصداءها إلى كل جهات العالم القديم تلك هى معركة الزلاقة التى وضعت حدا للتقدم السريع للقوات المسيحية لمحاولة طرد المسلمين من الاندلس والقضاء على دولة الاسلام بعد أن تفرقت الاندلس إلى عدة ولايات وملوك طوائف وكان قد نشب صراع عنيف بين القوى الاسلامية والقوى الصليبية فى وادى الزلاقة فى ذلك السهل المتسع جنوب غرب مدينة بطليوس حيث انتهى ذلك الصراع بنصر مؤزر أحرزه المرابطون على قوات ألفونسو السادس حيث كان مصير الاندلس والمغرب معلقا بهذا النصر الذى اضطلع المرابطون بالعبء الاكبر فى احرازه حيث أطبق المسلمون على القوات الصليبية من الامام والخلف فأصبحوا بين شقى الرحى وحاقت الهزيمة بالقوات الصليبية وجرح ألفونسو وفر فى جنح الظلام هربا من ميدان المعركة حيث وقع الرعب فى صفوفهم بسبب الروح الاسلامية الحقة التى كانت تضطرم بها نفوس المجاهدين من المرابطين من الحمية والتحمس للدين الاسلامى ومحاولة صد العدوان عنه والتسابق إلى الاستشهاد والموت فى سبيل الله وفى سبيل الدفاع عن دينه الحنيف وقد اشرك كثير من الفقهاء فى هذه الموقعة يشدون من أزر القوم وعزائمهم ويعظون الناس .

وقد حقق يوسف بن تاشفين من العمل ما جعله يرتفع إلى مرتبة أعظم قواد المسلمين حيث مكن لدولة المرابطين فى نفوس الشعب المغربى والاندلسى بل فى كل

شعوب العالم الاسلامى حيث وصلت اصداء تلك المعركة إلى بلاد المشرق حيث كان لهذا النصر صدى عظيم فى الشعور الاسلامى العام حيث تناقل الناس أخبار معركة الزلاقة فى المغرب والاندلس وعمت الفرحة بلاد المشرق الاسلامى وشبهها بعض المؤرخين بأنها معركة تشبه يوم القادسية فى العراق واليرموك فى الشام ومن أثر ذلك الصدى الواسع فى بلاد المشرق الاسلامى أن الامام الغزالى هنا الامير يوسف بن تاشفين بهذا النصر وكتب الامراء المعاصرون له يهنئونه بالنصر .

وكان لهذا النصر أثره الحاسم فى سير الحوادث فى الاندلس فقد تحطمت القوة الضاربة للقوات الصليبية لمملكة قشتالة وليون وتوقف تقدمها نحو الجنوب وارتد رجالها شمالا للدفاع عن طليطلة بعد أن أبيدت قوات قشتالة وليون واستعاد المسلمون مدينة الاشبونة وشنترين وتوقف تقدم البرتغال فى غرب الاندلس .

وقد أيقن أهل الاندلس بأن نصر الزلاقة يرجع الفضل فيه إلى يوسف بن تاشفين والمرابطين فوثقوا فيه وتألق نجمه وعلا ذكره فى الأندلس كما علا من قبل فى المغرب. وقد هز هذا النصر مشاعر يوسف بن تاشفين فأرسل الكتب إلى المغرب يشرح فيها سير المعركة وقد قرئت هذه الكتب على منابر جميع المساجد ببلاد المغرب وقد كانت خسارة المسيحيين يوم الزلاقة فادحة جدا .

وقد حاربت فى معركة الزلاقة مجموعات كبيرة من السودانيين وكانت جزءا من جيش المرابطين وحاربت كفرقة مستقلة هامة وقد اعتمد المرابطون على هذه الفرقة ورئيسها كان من أبناء السودان البيض وحمل السودانيون فى معاركهم بالاندلس السيوف الهندية وغيرها من آلات الحرب وتميزت الفرقة السوداء باستعمالها للطبول عندما كانت تسير إلى المعركة أو أثناء اشتباكها مع العدو وتلك عادة فى كل السودان وفى جميع أدوار تاريخه وقد تحدث أبو عبد الله البكرى عن اشتراك ملوك التكرور

أنفسهم مع المرابطين في حروبهم في الاندلس وقد أشار بصفة خاصة إلى معركة الزلاقة هذه التي انتصر فيها يوسف بن تاشفين على جيش ألفونسو السادس. وهذا يدل دلالة قاطعة على عمق الشعور الاسلامي لدى السودانيين ودفاعهم عن ديار الاسلام في الاندلس التي هي ديارهم .

فقد أصبح هذا الانتصار العظيم في الاندلس مناراً للمرابطين وقائدهم وللمبادئ التي دعا اليها امامهم عبد الله بن ياسين وأصبح يوسف أجدر الامراء لقيادة المرابطين وزعامتهم وأيقن الناس أن المرابطين قادرون على تحقيق الامن والامان لشعب الاندلس واعادة الطمأنينة إلى نفوسهم بعد أن ارتفعت روحه المعنوية وأيقن الشعب أن العدو النصراني يمكن أن يقهر وأن يرد على أعقابه بعيدا عن ديار المسلمين واحتل المرابطون وقائدهم مكانة رفيعة في نفوس الشعب الاندلسي .

وكان لانتصار الزلاقة أثر معاكس في نفسية المعسكر المسيحي اذ تركت تلك المعركة جرحا غائرا في نفسية قائدهم ألفونس السادس الذى كان الزهو والغرور قد اختمر في رأسه بضرورة طرد المسلمين من الاندلس نهائيا واتخذ لقب ذى الملتين وصار يكاتب امراء المسلمين قائلا من الامبراطور ذى الملتين (الاسلام والمسيحية) وبدأت تراوده الآمال التي راودت أباه من قبل وهي طرد العرب من الاندلس نهائياً، لكن تلك المعركة قد خلفت ظنه بعد أن تقابل في ميدان القتال مع عصبة مجاهدة مؤمنة برسالة الاسلام عاملة في ميدان الجهاد ووقفت ضد أطماعه في أن يبسط ظله على شبه الجزيرة كلها، لكن هذا النصر جعله يحس انه أمام جبهة متحدة من المغرب والاندلس وهي تقف له بالمرصاد وتهدده تهديدا خطيرا، بل انه أيقن تمام التيقن بأن المعسكر الاسلامي سوف يسترد كل ما استولى عليه من قلاع وحصون وانهم ربما ينقضون على طليطلة ويخلصونها من يده، بعد أن بدأ الامراء المسلمون الذين كانوا يدينون له

بالطاعة يتألبون عليه ويكفون عن دفع الجزية التى كانوا يدفعونها فى صغار وذلة .

أما المعسكر الصليبى فى أوربا بزعامة بابا كنيسة روما فقد كان لنصر الزلاقة رد فعل عنيف عنده اذ بدأت القوى النصرانية المختلفة تعقد العزم على مدافعة المسلمين والاستعداد للمعركة القادمة والعمل على طرد المسلمين من الاندلس نهائيا .

وبدا للناس كأن معركة الزلاقة لم تكن حاسمة فى تاريخ الاندلس لأنها لم تقض على القوى النصرانية قضاءا نهائيا فقد أخذت القوى المسيحية تسترد قوتها وتعمل على مواصلة العدوان والثأر لمعركة الزلاقة من المرابطين وأخذ ألفونسو ينظم قواته ويزيل ما لحق بجيشه فى موقعة الزلاقة وأخذ يعاود الهجوم من جديد وأخذت قواته تهدد أشبيلية وتثير الذعر فى نفوس أهلها .

ويبدو أن يوسف بن تاشفين لم يستطع أن يستفيد من ذلك النصر العظيم الذى حازه ولو أن أمراء الاندلس وقفوا إلى جواره وأمدوه بكل قوتهم لتقدم إلى طيطلة واستولى عليها وهذا ما كان يخشاه ألفونسو السادس وأعاد الميزان إلى نصابه فى الاندلس ، لان الانتصارات العسكرية مهما عظمت فانها تظل غير ذات قيمة عملية كبيرة اذا لم تستغل سياسيا وعسكريا .

وبعد المعركة بفترة قصيرة توفى الامير أبو بكر بن عمر زعيم المرابطين وابن عم يوسف بن تاشفين عام ٤٨٠هـ فقد بلغت يوسف هذه الوفاة فأراد أن يرجع إلى المغرب وعاد يوسف وترك ميدان المعركة فجأة دون أن يتعقب العدو المهزوم ويجهز عليه قبل أن يجمع صفوفه وذلك لان يوسف كان أميرا من الامراء الذين يخضعون للزعيم أبو بكر وانه لم يزل أميراً من قبل أبى بكر بن عمر وأراد العودة لأخذ البيعة لنفسه بدلا من أن تؤول لغيره من الامراء، ثم يجد نفسه معزولا عن المغرب والاندلس لاسيما أن ابراهيم ابن أبى بكر بن عمر قد طمع فى أن يكون الملك له بعد وفاة أبيه منتهزا فرصة

وجود يوسف وغيابه بالاندلس واشتغاله بالصراع مع المسيحيين فى الاندلس. فلما علم يوسف بذلك هرع إلى المغرب ليقطع على ابراهيم خط الرجعة وقد يكون ذلك السبب المباشر لعدم ملاحقة قوات يوسف لألفونسو السادس والقضاء عليه نهائيا مما جعل لمعركة الزلاقة صدى دون استعادة طليطلة عاصمة الخلافة الاموية القديمة وعاصمة القوط .

وكان يوسف بن تاشفين قد أدرك أثناء المعركة أن أمراء الاندلس لا أمل فيهم بعد أن تركوه فى ميدان معركة الزلاقة وحيدا أمام قوات ألفونسو كما لمس بنفسه مدى الفرقة بين صفوف زعماء الطوائف، لذلك ما كادت تنتهى المعركة حتى جمعهم وأمرهم بالاتفاق حتى لاتضيع ثمار النصر الذى أحرزه المرابطون فى تلك المعركة وعاد يوسف بن تاشفين إلى المغرب فتنفست مملكة قشتالة وليون الصعداء وبدأ أمراء الطوائف يتصلون ببعضهم متخوفين على بلادهم من وجود المرابطين أما يوسف فكان يشعر بأنه لابد من العودة للأندلس لاستكمال النصر، لكن يوسف ترك بلاد الأندلس وهو مطمئن على خطواته فى البلاد لاسيما انه لازال مستوليا على الجزيرة الخضراء صلة الربط والصلة بين المغرب والاندلس ومن ثم بدأ يعد العدة لجولة أخرى فى الجهاد لا تقل عن معركة الزلاقة .

لكن أثناء وجود يوسف فى المغرب وبعد أن تمت البيعة فقد بدأت الاوضاع تضطرب فى الاندلس وكانت تهدد بالقضاء على الجهود التى بذلها المرابطون فى وقف الزحف المسيحى وكان يوسف يرى انه لابد من التدخل حتى لاتضيع الجهود التى بذلها الا انه لم يكن له وضع قانونى فى البلاد فهو ليس الا ضيفا حل على البلاد وهو لايسيطر الا على الجزيرة الخضراء. لكن يوسف كان عليه أن يواصل المعركة وأن يخف إلى الجهاد وانه لابد أن يعبر البحر الاندلسى وكانت أهداف يوسف هذه المرة

تختلف عن المرة الاولى، حيث لم تتح له سابقا فرصة الاستفادة من الانتصار الذى حققه وكذلك حتى ينشئ فى الاندلس دولة الوحدة الاسلامية التى حطمها الصراع بين دويلاتها المتنافسة (ملوك الطوائف). بعد أن انصرف كل أمير إلى بلده وأصبحت البلاد فى حالة لا تمكنها من الدفاع عن نفسها .

وكان أن رحل المعتمد بن عباد إلى المغرب لمقابلة يوسف بن تاشفين ليطلع يوسف على الاوضاع السيئة فى شرق الاندلس خاصة ان المعتمد بن عباد أمير شرق الاندلس كان أكثر الامراء خوفا من الخطر النصرانى المحدق من الشرق وكان يخشى أن يصبح أول ضحية للمعركة القادمة. وفى ذلك فانه قال قولا يذكر له قبل رحيله إلى المغرب حيث قال «رعى الجمال خير من رعى الخنازير» وهذا التصريح يدل بوضوح على تفضيل عرب الاندلس للسيادة الاسلامية بطبيعة الحال .

وكان عبور يوسف للمرة الثانية إلى الاندلس فى عام ٤٨١هـ. وكان أن حل واستقر فى الجزيرة الخضراء حيث كتب لملوك الطوائف يدعوهم لتوحيد الجهود لتخليص بعض المعاقل النصرانية فى الجنوب الشرقى من البلاد. وقد لبى أمراء الاندلس نداء يوسف للاشتراك فى المعركة القادمة بعد أن رأوا بسالته فى معركة الزلاقة السابقة حيث أطبق المسلمون على حصن لبيط الذى اعتصم به القشتاليين الذين كانوا يخرجون من حصنهم ويسلبون وينهبون ما تصل اليه أيديهم من أملاك المسلمين وقد ضيق المسلمون الخناق على الحصن، حتى لم يبق من الفرسان غير بضع مئات أوشكوا على الموت جوعا وعطشا وقد انسحب المسلمون تاركين الحصن الذى حطمه ألفونسو وقضى على حصن لبيط، لكن يوسف لم يكن همه فى هذا العبور الثانى الفتح بقدر ما كان توحيد القوى الاسلامية فى الاندلس بل فى المغرب والمجتمع الاسلامى لمواجهة الصراع المسيحى لاستعادة ما كان للمسلمين من قوة وسيادة. لكنه أدرك أنه لا يمكن

الاعتماد على ملوك الطوائف فى مواجهة العدو وانه لابد أن يضطلع بالجهاد اعتمادا على قواته وحدها وأن يحقق الاهداف التى وضعها أمامه عبد الله بن ياسين بعد أن رأى استحالة توحيد قوى ملوك الطوائف ولم يكن خط الجهاد الاسلامى الذى تربى عليه يسمح له أن ينسحب من الميدان ويترك أهل الاندلس يقعون فريسة فى أيدى العدو .

يوسف بن تاشفين وعزل ملوك الطوائف وتوحيد الاندلس :

لقد تبين ليوسف بن تاشفين بعد حصار حصن لبيط أن ملوك الطوائف غير مخلصين فى جهادهم ضد العدو الذى يتربص بهم ويريد أن يلتهم كل الاندلس بعد أن لاحظ سابقا انهم تخلوا عنه فى صراعه مع ألفونسو السادس فى معركة الزلاقة وانهم لم يقاوموا هجوم الفرنجة بل أن بعضا منهم طلب العون من ألفونسو السادس. بل انهم تركوا ألفونسو يهدد اماراتهم ويطلب الجزية المتأخرة عندهم عندما علم بعودة يوسف إلى المغرب فلم يوجد بينهم أدنى اتحاد ووحدة ولم تبد منهم بادرة لمواجهة الخطر وحماية الجبهة الاسلامية، بل إن كل أمراء الاندلس لم يعد بقدرتهم قوة لوقف تقدم النصارى جنوبا وشرقا بل انهم وقفوا موقفا يتسم بالجبن والخوف وعدم صون كرامتهم ودينهم الاسلامى الحنيف .

ومن هنا فقد تأكد لابن تاشفين أن هؤلاء الامراء ليسوا بقادرين على صون كرامة بلادهم ومواطنيهم بل أصبح متأكداً له انه لم يعد يؤتمن جانبهم. ومن هنا عقد المرابطون العزم على تصفية ملوك الطوائف ومواجهة مصير البلاد فعزل هؤلاء الملوك الذين نكصوا على عهدهم بل إن منهم من تحالف ضد ابن تاشفين وخانوا أمانة الاسلام واجب ومن هنا حق عليهم العقاب .

ولقد لعب الفقهاء وعلماء الدين الاسلامى دورا كبيرا فى خلع ملوك الطوائف بعد أن أدرك الفقهاء أن أمراء الاندلس لم يعد يرجى منهم خيرا بعد تركهم يوسف

يواجه حربا ضد النصارى وحيدا ولم يتردد فقهاء الاندلس الذين بدأ الشعب الاندلسى يتطلع اليهم باعتبارهم القادة الحقيقيين والذين يحسون بمشاعر الشعب وغضبهم وكرههم لاعمال الامراء وبعد أن أفتى علماء المشرق بضرورة خلع هؤلاء الملوك الذين خانوا الأمانة وتهاونوا فى حق شعوبهم وتخاذلوا فى الدفاع عن المقدسات والحرمات الاسلامية ومن ثم فلابد من خلعهم وتخليص البلاد من شرورهم وقيام المرابطين بعد توحيد القوى الاسلامية فى المغرب والاندلس بعبء الدفاع عن العقيدة الاسلامية والجهاد فى سبيل رفعة الدين الاسلامى واعلاء راية التوحيد .

وكان للمرابطين ما أرادوا فقد استولوا على طليطلة ثم غرناطة والبيرة ومالقة ثم استولوا على أشبيلية ثم قرطبة والمرية ثم بطليوس ثم استولوا على قرمونة ورندة وشلب ويابرة كما استولوا أيضا على السهلة وممسية ودانية وشاطبة وبلنسية واستطاع المرابطون تحت قيادة داود ابن عائشة وسير بن أبى بكر وأبو عبد الله محمد بن الحاج وغيرهم من قواد المرابطين الاكفاء الذين وضع يوسف بن تاشفين كل ثقته بهم وأخذ يوجههم للاستيلاء على امارات الاندلس واستطاعوا أن يبسطوا لواء المرابطين على هذه الولايات التى كانت تخضع لامراء متعددين ولكن منذ تلك الفترة فان هذه الامارات أصبحت تخضع لادارة مرابطية واحدة وتم للمرابطين ما أرادوا من توحيد الجبهة الاسلامية الاندلسية وتوحيد الشعب الاندلسى تحت قيادة مرابطية .

ولقد كان الموقف السياسى والعسكرى فى الاندلس يقتضى من المرابطين الحذر والحيطة قبل القوات المسيحية التى كانت ترقب الموقف عن كثب ولاترغب التدخل فى القتال فى معركة الزلاقة ومحاصرة حصن لبيط .

وكانت احدى القوى الاندلسية (إمارة أشبيلية وكذلك امارة طليطلة والمعتمد بن عباد) قد استنجدوا بألفونسو السادس لانقاذهم من أيدى المرابطين لكن القوات المرابطين بقيادة الامير ابراهيم بن اسحاق اللمنونى كانت بالمرصاد

والترقب والحيطة بحيث ما كادت هذه القوات تتقدم جنوبا بقيادة «البرهانس» حتى التحمت معها قوات المرابطين ونشبت معركة حامية الوطيس لا تقل أهمية عن معركة الزلاقة وأوقع المرابطون هزيمة قاسية بقوات ألفونسو وهزمت أيضا قوات قشتالة ووحدوا القوى الاسلامية الاندلسية ووقفوا بالمرصاد للقوات المسيحية التى تلقنت درسا قاسيا وتفرق شملها ولم تدرك عاقبة التدخل بعد أن منيت بتلك الهزيمة وقهرت قوات ألفونسو .

ونتيجة ذلك وقع عبء القتال والجهاد الاسلامى على عاتق القوات المرابطية التى بدأت نظرتها للحياة فى الاندلس تأخذ بعدا جديدا فى ميدان الجهاد وبدأت معركة الجهاد تدخل طورا جديدا لا يقل عن الاطوار السابقة التى قاد فيها المرابطون حركة الجهاد فى المغرب والاندلس والذين رأوا انه لكى يوطدوا نفوذهم فى الاندلس بعد عزل ولاة الطوائف فإنه لابد من التصدى للقوى الصليبية بعد أن فرض الاندلس على المرابطين مسئولية ثقيلة فقد كان عليهم أن يواصلوا الحرب والجهاد وحدهم على جبهة عريضة شمال خط الواديانة لانهم دخلوا الاندلس مجاهدين كما فعلوا سابقا فى المغرب وكان عليهم أن يستمروا فى هذا الصراع .

وبهذا اتسعت دولة المرابطين اتساعا جعل منها دولة كبرى تمتد فى قارتين وكان على المرابطين أن يواصلوا جهادا دينيا. واذ كان المرابطون قد أسقطوا ملوك الطوائف الا أن شرق الاندلس كان يتعرض أيضا للخطر من جانب القوى المعادية واسترد المرابطون بلنسية بعد أن كان قد سيطر عليها السيد القمبيطور (القشتالى رودر بجودى بيار) واستعاد المرابطون عددا من المدن فى شرق الاندلس منها المنارة والسهلة، وربيطر وانتصرت قواتهم بقيادة القائد المرابطى تميم بن يوسف بن تاشفين على قوات قشتالة

وقتل في هذه المعركة عددا كبيرا من قوات النصارى منهم سبعة من الاكناد وقد سميت معركة «الاكناد السبعة» وبذلك امتدت دولة المرابطين من المحيط الاطلسى غربا حتى حدود دولة بنى حماد شرقا ومن بلاد النيجر جنوبا حتى نهر ابرو فى الاندلس شمالا (نهر تاجة) .

وقد استطاع المرابطون بعد كفاح طويل فى شرق الاندلس دام أكثر من عشر سنوات أن يحرزوا العديد من الانتصارات وأن يحرروا العديد من المدن وأن يعيقوا تقدم القمبيطور وأن يحرزوا فى معركة «بلنسية» نصرا مدويا وظفرا اسلاميا لا يقل عن نصر الزلاقة وكان لنصر بلنسية وسقوط تلك المدينة فى أيدى المرابطين أثرا بالغا فى سير معركة الجهاد فى شرق الاندلس اذ انهارت الجبهة النصرانية فى شرق الاندلس وأوغلت قوات المرابطين فى تلك الانحاء. ولقد كان تعاون «بنو هود» فى شرق الاندلس مع المرابطين له من الاثر الكبير فى توطيد النفوذ الاسلامى ونجاح حركة الجهاد الاسلامى فى شرق الاندلس، لذا أبقى يوسف على بنى هود بعد أن ثبت تعاونهم الوثيق معه ودورهم فى المساعدة لصد عدوان الفرنجة والوقوف بالمرصاد لكل حركة معادية للاسلام بعد أن وطدوا أقدامهم فى تلك المناطق الشرقية وشغلوا بالجهاد وبذلك فقدت حركة استرداد الاندلس بطليها ألفونسو السادس والقمبيطور فى سنوات متلاحقة واتحدت كلمة المسلمين فى الاندلس .

يوسف بن تاشفين وبناء الدولة الجديدة فى المغرب والاندلس :

عبر يوسف بن تاشفين من المغرب إلى الاندلس للمرة الرابعة والاخيرة عام ٤٩٧هـ/ ١١٠٣م. ليضع الاسس القوية والثابتة لبناء الدولة الجديدة التى توحد بين

المغرب والاندلس بعد أن أرسى دعائم وأسس الوحدة القوية الاسلامية التى تستطيع أن تقف فى وجه الزحف الصليبى بعد أن كان قد رأى أن الحرب المقدسة قد آتت ثمارها المرجوة وأنها قد تضيع من أيدى المسلمين نظرا لحركة الاسترداد التى قادها ألفونسو السادس والقمبيطور والتى ظلت طوال عشرين عاما كاملة استطاعت القوى الاسلامية بقيادة المرابطين أن تحقق الاهداف التى بدأت تتطلع اليها آمال المسلمين فى بقاع العالم الاسلامى فقد تحطمت أحلام القوى المسيحية وأصبح يوسف بن تاشفين أعظم شخصية فى المغرب الاسلامى. لكنه رأى أن العمر قد تقدم به لاسيما انه قد تجاوز المائة عام ومن ثم أخذ البيعة من كبار المرابطين لابنه على بتوليته العهد احساسا منه بقرب الخاتمة وانه عاد إلى المغرب عام ٤٩٨هـ فمرض ومات بمراكش عام ٥٠٠هـ/ ١١٠٧م. وخلفه ابنه على وبوفاة يوسف بن تاشفين اختفت شخصية من أجل شخصيات التاريخ الاسلامى. وقد تجاوز سنه المائة عام وترك ثروة طائلة وكان الامام الغزالى العالم الاسلامى المشهور قد سمع عنه فرأى فيه البطل الذى يود أن تحققه الايام وأراد أن يراه ولكنه سمع بوفاته وهو لا يزال فى الاسكندرية فعاد من حيث أتى.

واستطاع يوسف أن يؤسس دولة مرابطية موحدة بين المغرب والاندلس. وقد اعترف الخليفة العباسى فى بغداد بيوسف بن تاشفين عاملا له فى المغرب والاندلس واعترف يوسف بالخلافة العباسية معتزا بتبعيته لها وكتب يوسف إلى الخليفة ينوه بالدور الذى اضطلع به فى معركة الجهاد وتردد اسم يوسف مقترنا باسم الخليفة العباسى على منابر الاندلس والمغرب كما نقش اسم الخليفة على السكة وبذلك تكون دولة المرابطين قد جمعت بين المغرب والاندلس واعتراف الخلافة العباسية بها وبذلك طويت صفحة حافلة بالجهاد الاسلامى قادها الزعيم الدينى يوسف بن تاشفين وقد

كان يوسف من صناع التاريخ فى المغرب الاسلامى فقد أعاد إلى الاذهان سيرة موسى بن نصير وعبد الرحمن الناصر وغيرهم من أبطال الاسلام الذين لعبوا دورا كبيرا وبارزا فى تاريخ المغرب، نعم كان يوسف بن تاشفين الشخصية التى دفعت بها العناية الالهية لكى يلعب دورا حاسما فى الوقوف فى وقف حركة الاسترداد فى الاندلس ومحاولة اطفاء الانوار الاسلامية فى الاندلس. نعم كان يوسف معجزة حققها عبد الله بن ياسين باعث دعوة المرابطين ومخرج فكرة الجهاد الاسلامى فى حركة دامت خمسين عاما، اذ استطاع الدين الاسلامى الذى تعلمه يوسف وتعاليم عبد الله بن ياسين أن تجعل هذا الرجل الصحراوى بطلا من أبطال التاريخ الاسلامى قاد معركة الجهاد طوال خمسين عاما صارع فيها أقوى رجلين فى الاندلس هما ألفونسو السادس والقمبيطور والبابوية المسيحية فى روما والقوات الاوربية الاخرى التى وقفت خلفها تشد من أزرهما فى الصراع الدائر على أرض الاندلس، لكن شخصية يوسف المجاهدة الزاهدة المتقشفة العادلة الصادقة استطاعت أن تلعب دورها الذى دفعه القدر لكى يقوم به وقد راعته العناية الالهية خير عناية فى ذلك .

البحرية الاسلامية فى عهد المرابطين

سيطر المرابطون على جميع بلاد المغرب الاقصى ما عدا بعض الثغور الشمالية ، لذا كان عليهم لكى يوطدوا أقدامهم فى المغرب أن يتجهوا صوب اقليم الساحل لاتمام فتحه والاستيلاء على موانيه الهامة مثل سبتة وطنجة فقد كان هذان الميناءين فى الواقع مفتاح المغرب وهمزة الوصل بين المغرب والاندلس وكانت تسيطر عليهما امارة بحرية قوية هى امارة البرغواطين التى استطاعت بعد سقوط الخلافة الاموية اقامة امارة لهم بطنجة وسبتة .

ورغم قضاء المرابطين على غالبية براغوطة الا أن هذه الامارة ظلت تسيطر على اقليم الساحل وتشرف على منطقة المضايق وتتحكم فى تجارة المغرب والاندلس ولم يكن من المعقول أن يترك المرابطون هؤلاء الحكام يتحكمون في الساحل. لكن دراية المرابطين بالشئون البحرية قليلة فى ذلك الوقت لهذا لم يتمكنوا من احتلال هذين الثغرين. لكن كانت الظروف السياسية تحتم على المرابطين فتح طنجة وسبتة وبسط نفوذهم على اقليم الساحل أو اقليم الريف. ومن ثم شرع يوسف بن تاشفين فى اعداد أسطول لهذا الغرض كما ساعدته أساطيل جيرانه من الاندلس واستطاعت قوات المرابطين دخول طنجة ٤٧١هـ. ثم انهم بعد فتح طنجة اتجهوا صوب الشرق وأطبقوا على مدينة سبتة وحاصروها من البر واشتركت بعض سفنهم فى حصارها من البحر وقد أفلح المرابطون فى الاستيلاء على سبتة وقتل المعز بن سقوت وتعتبر هذه المعركة من المعارك الفاصلة فى تاريخ المغرب والمرابطين اذ انها أول معركة يخوضها أسطول المرابطين كما انها كانت بداية انشاء أسطول مرابطى قوى، اذ كان بسط النفوذ المرابطى على هذه الموانئ الشمالية خطوة ايجابية فى بناء أسطول مغربى قوى اذ انهم استفادوا من دور صناعة السفن فى طنجة وسبتة .

وهكذا رأينا ابن تاشفين بعد أن فتح مدينة سبتة وطنجة يحاول احياء البحرية الاسلامية التى كانت قدر درست معالمها وذهبت ريحها ويبد أن جهود المرابطين فى احياء البحرية كللت بالنجاح وسنرى كيف أن فتح بلاد الاندلس قد أعاد إلى الاذهان جهود موسى بن نصير فى احياء البحرية الاسلامية فقد استطاعت الاساطيل المرابطية عام ٥١٧هـ أن تشترك فى حرب نظمتها القوى الاسلامية فى المغرب لمهاجمة النورمان واشتركت القوى الاسلامية فيما يمكن أن تسميه حربا صليبية وكانت

الحروب الصليبية قد بدأت فى المغرب قبل أن تبدأ فى الشرق .

وقد استفاد المرابطون من خبرة أهل السواحل المشتغلين بركوب البحر كما أفادوا من دور الصناعة المنتشرة فى هذه الموانئ فبدأ يبنون أسطولا فى عهد يوسف بن تاشفين وهو لم يزل أميرا على المغرب ويبدو أن النواة الاولى لاسطول المرابطين قد اشتركت فى حصار سبتة ومد يد العون للقوات البرية التى كانت تقاتل البرغواطى .

وقد أدرك يوسف بعد انتصاره فى معركة سبتة أهمية العامل البحرى فى كسب المعارك فبدأ يهتم بأمر الاسطول ويوليه عناية خاصة وقد استعان ببحارة من الاندلس كما استعانوا بدور صناعتها فى تدعيم الاسطول وتنظيم أفراده وقد استطاع الاسطول الجديد أن يساعد القوات المرابطية وهى تجتاز البحر لاول مرة إلى الاندلس كما انهم وضعوا أيديهم على أهم الموانئ فى حوض البحر الابيض الغربى واستولوا على دور صناعة ذات شهرة فى فنون البحر وصناعة السفن وهكذا ظهر الاسطول المرابطى كعنصر فعال فى حركة الجهاد من أجل السيطرة على الاندلس فاشترك الاسطول المرابطى فى الاستيلاء على بلنسية ضد القمبيطور وان السفن البحرية عاونت القوات البرية فى شرق الاندلس. كما أن الاسطول زاد قوة فى عهد ابنه على بن يوسف وأن الاسطول كان يتألف من سفن عدة وكان له نشاط فى معركة البحر الابيض المتوسط. وظهر الاسطول المرابطى فى عهد على بن يوسف فى معركة ميورقة حيث أنزلت بالفرنجة هزيمة ساحقة .

وقد كان أول عمل اهتم به يوسف بن تاشفين بعد دخول المرابطين سبتة هو

اصلاح أحوالها سفنها ولقد اهتم المرابطون ببناء أسطول النقل لا بناء سفن القتال لانهم كانوا يرنون بأبصارهم إلى الاندلس ومن هنا كان اعتمادهم على سفن النقل للربط بين العدوتين (الاندلس والمغرب) لان الغرض الاساسى من الاسطول فى تلك المرحلة كان نقل الجنود والمعدات وحفظ المواصلات بين المغرب والاندلس. وعندما عبر المرابطون إلى الاندلس بعد سيطرتهم على الجزيرة الخضراء استطاعوا احراز النصر على قوات ألفونسو السادس فى معركة الزلاقة المشهورة غرب الاندلس فى عام ٤٧٦هـ/ ١٠٨٦م فان ذلك النصر مكنهم من بسط نفوذهم ولا شك انهم استفادوا بما كان فى الاندلس من امكانيات مادية وكفاية بشرية فى الشئون البحرية فأولوها عنايتهم وقد أشار الادريسى الذى كان معاصرا للمرابطين إلى دور صناعة السفن التى أقامها المرابطون فى طرطوشة ودانية وقصر ابن دانس وشلب التى كانت محاطة بغابات تصلح أخشابها لبناء السفن، والذين استطاعوا خلق قوة بحرية منظمة وموحدة وقيادة بحرية حكيمة ماهرة استطاعت أن تقود الاساطيل المرابطية إلى النصر الحاسم فى معظم المعارك التى خاضتها القوات البحرية المرابطية فى صراعها مع الاوربيين لاسيما النورمانديين فى صقلية .

وقد أشار ابن خلدون إلى قوة الاسطول المرابطى ودوره فى حركة الجهاد الاسلامى فى غرب البحر المتوسط. اذ كان الجانب الغربى من هذا البحر موفور الاساطيل ثابت القوة وكانت لهم به كرة فقد كان الاسطول به لعهد لمتونة من بنى ميمون وانتهى عدد أساطيلهم إلى المائة فى بلاد المغرب والاندلس .

وقد زاد عدد القطع البحرية المرابطية فقد جهز على بن يوسف بن تاشفين ثلاثمائة سفينة لانقاذ جزيرة ميورقة من هجوم النورمانديين والفرنجة. كذلك فان

الاساطيل المرابطية قد استخدمت في بعض العمليات في جزر البليار في عام ٥٠٩هـ وكذلك في جزيرة صقلية عام ٥١٦هـ.

وقد اشترك الاسطول المرابطى فى صد غارات الامم الاوربية على جزر البليار حيث اشتركت أساطيل من جنوه وبيزا وبرشلونة وفرنسا وناربون فى الهجوم على جزيرة يابسة فاستولت عليها ثم اتجهت القوى الاوربية إلى محاصرة ميورقة كبرى هذه الجزر وضربت حصارا حول عاصمتها مدينة ميورقة لكن حاكم الجزيرة كتب إلى الامير على بن يوسف بن تاشفين الذى أمر بتجهيز ثلاثمائة قطعة بحرية وذلك لمنازلة العدو وفك الحصار عن جزيرة ميورقة، فلما شعر العدو الاوربى بخروج ذلك الاسطول المرابطى فك التحالف الاوربى حصاره للجزيرة فلما وصل الاسطول المرابطى وجد المدينة خالية فعمرها قائد الاسطول المرابطى وجلب لها من كان قد فر إلى الجبال فاستوطنوها وعمروها وسكنوها وانصرف الاسطول إلى مكانه .

وهكذا بسط المرابطون نفوذهم على جزر البليار دون قتال وذلك عام ٥٠٩هـ/ ١١١٦م فى عهد يوسف بن تاشفين وقد تعاقب على حكم هذه الجزر بعد ذلك عدد من المرابطين حتى آل حكم الجزر هذه إلى آل غانية حيث تولوا الحكم عام ٥٢٠هـ/ ١١٢٦م القائد المرابطى محمد بن على بن غانية المستوفى مؤسس أسرة بنى غانية التى ظل حكم هذه الجزر من بعده فى أسرته .

ولم يقتصر نشاط الاسطول المرابطى على محاربة أطماع الايطاليين والفرنسيين والقطلانيين بل حاول أيضا وقف أطماع النورمانديين فى السيطرة على سواحل دولة بنى زيرى طمعا فى احتلال عاصمتهم المهدية، فقام أبناء صنهاجة من الزيريين بطلب

النجدة من أبناء عمومتهم المرابطين، فقام الامير على بن يوسف بن تاشفين بأمر قائد أسطوله أبى عبد الله بن ميمون بالتوجه إلى صقلية عام ٥١٦هـ/ ١١٢٢م بشن غارة واسعة على جزيرة صقلية استولت على بعض المدن واستطاعت أن تكبد النورمانديين خسائر كبيرة. وقد أدرك الملك «روجار الثانى» ملك صقلية أن المرابطين هم وراء هذه الحملة البحرية الا انه كان يعمل ألف حساب لقوة المرابطين فيعدل عن خططه بمهاجمة المهدية عاصمة بنى زيرى. وقد ظل روجار الثانى لا يفكر فى الهجوم على سواحل افريقية الا بعد سقوط دولة المرابطين وقيام دولة الموحدين، حيث استنفر روجار الثانى أهل بلاد الروم قاطبه ضد بنى زيرى واستطاع الاستيلاء على المهدية عاصمتهم عام ٥٤٣هـ/ ١١٤٨م أى بعد سقوط دولة المرابطين بعامين فقط .

ولقد كان سقوط دولة المرابطين سببا فى اندحار القوة البحرية المرابطية وظهور الاساطيل الاوربية بصورة قوية فى بداية عهد الموحدين .

وكان المرابطون بعد أن بسطوا نفوذهم على جزيرة ميورقة بأوا يدخلون طورا جديدا من أطار قوتهم البحرية وتفوق هذه القوة البحرية على معاصريها من الدول الاوربية والاسلامية فأعدوا عدتهم للدخول فى أى صراع بحرى كاشتراك أسطولهم فى معركة المهدية وظهرت سفنهم فى مياه صقلية ودخلت ميدان البحر الابيض الشرقى وبدأت تصارع أساطيل البيزنطيين والنورماند وقامت بالغزو فى جزر البحر المتوسط وجنوب ايطاليا، بل وصلت إلى بلاد الشام ومشاركة صلاح الدين الايوبى فى حصار موانى الصليبيين فى الشام وأغاروا على شواطئ فرنسا الجنوبية وأصبحت الدول الاوربية تخشى الاسطول المرابطى فى حوض البحر المتوسط، بعد أن أصبح ذلك الاسطول قوة هائلة متفوقة على غيرها من الاساطيل وبدأ الاعداء يعملون له ألف حساب كما ظهرت

شهرة قادة هذا الاسطول وبدأ المؤرخون يتحدثون عن بلاء وشجاعة أفراد القوات البحرية المرابطية .

كما ان نمو البحرية المرابطية وظهورها فى ميدان الصراع الدولى قد ساعد على ازدهار التجارة الخارجية فى عهد المرابطين حتى أصبحت دولة المرابطين تنافس جمهوريات ايطاليا والنورماند كما أن أسطولهم قام بدور عظيم فى تأمين تجارة المغرب الذاهبة إلى الاندلس وإلى الاسواق العالمية الاخرى ذلك لان البحرية المرابطية القوية كان فى مقدورها أن تعلن حربا ضد القراصنة .

وقد ارتبطت نهاية دولة المرابطين بالاسطول اذ عندما حاول تاشفين ابن على بن يوسف بن تاشفين الفرار من المغرب إلى الاندلس فإنه استعان بالاسطول المرابطى للفرار الذى كان يقوده فى ذلك الوقت أبو الحسن على بن عيسى بن ميمون. الا أن الموحدين حالوا دون وصوله إلى الاسطول حيث تردى من حافة احدى الجبال فمات .

وقد قام المرابطون بأعمال حربية وبحرية مجيدة تذكر لهم بكل فخار ومن ذلك سلسلة الرباطات والمحارس التى انتشرت فى أيامهم على طول السواحل المغربية والاندلسية ولعل من أهمها المحارس التى بنيت فى طنجة وسبتة وكان المحرس أو الطالع العظيم الذى بنوه فى سبتة يشرف على حركة الملاحة فى مضيق جبل طارق وهذا الطالع من أعجب الطلائع لكونه يكشف ويشرف على العدوتين الاندلسية والمغربية وقد تحكم فى حركة المرور فى المضيق من باديس فى بر الريف ومن مالقة شرقا إلى ما وراء طريف غربا .

وهنا يحق لنا أن نسأل كيف تم للمرابطين بناء أسطول بحرى فى هذا الوقت القصير وهم قوم بدو صحراويون ليست لهم خبرة بركوب البحر فليس ببعيد أن يكون المرابطون قد استطاعوا بعد أن بسطوا سيطرتهم على الساحل المغربى والاندلسى أن يكون لهم أسطول يضارع الاساطيل المعاصرة قوة وعدة وعتاد ولا شك أنهم استعانوا بالاسطول الاندلسى وأسطول بنى غانية فى جزر البليار الذين كان لهم شأن فى المدافعة عن المسلمين فى البحر المتوسط ضد القراصنة الذين كانوا يتعرضون لسفن المسلمين بالسلب والنهب والاغارة على الموانئ الاسلامية .

وهكذا قدم المرابطون خدمات جليلة للبحرية العربية الاسلامية سواء فى المغرب أو الاندلس طوال فترة حكمهم القصيرة. وقد ترك ظهور دولة المرابطين أثرا بعيدا فى توازن القوى العالمية فى غرب البحر الابيض المتوسط اذ ظهر فى ذلك الوقت النورمان وبدأوا يمكنون لانفسهم فى الوقت الذى عمدت فيه أساطيل جمهوريات ايطاليا إلى تهديد حرية الملاحة فى هذه المنطقة وراحت مملكة قشتالة وليون تبسط نفوذها فى الاندلس وكانت البابوية قد نهضت ترفع الصليب وتنبه الاذهان لمعركة صليبية وبذلك اهتم المرابطون بالبحر واستطاعوا أن يؤخروا سقوط شبه جزيرة أيبريا فى أيدى القوى المسيحية بضعة قرون. واتخذ المرابطون من موانئ الاندلس قواعد لاسطولهم الناشئ الذى أخذ ينشط فى حوض البحر الابيض المتوسط ويظهر تفوقه ويغير على بلاد الفرنجة محاولا أن يستعيد السيادة الاسلامية التى كان قد انتهى أمرها واشترك الاسطول المرابطى فى العديد من الغزوات .

بل لقد لعبت دولة المرابطين دورا بالغ الاثر فى الحروب الصليبية اذ أن دخولهم إلى الاندلس قد نجح فى الحيلولة دون قيام الممالك المسيحية الاندلسية فى أن تساهم

فى الحملات الصليبية التى كانت تتجه إلى بلاد الشام للاستيلاء على بيت المقدس حيث شغلت هذه الامارات بالدفاع عن نفسها أمام الوجود المرابطى الذى بسط على المغرب والاندلس. بل إن ظهور المرابطين فى تلك المرحلة التاريخية فى المغرب العربى والاندلس قد حال دون اشتراك القوى الاوربية بكل ثقلها فى الحرب الصليبية فى الشرق وقد تكون مدافعة المرابطين للخطر الصليبى واقتسام القوى الاوربية بين الشرق والمغرب قد أدت خدمات جليلة للشرق الاسلامى، كما انه أثار مشاعر المسلمين فى الشرق حيث أدركوا أن القوى الاسلامية المغربية الاندلسية استطاعت أن تحقق انتصارات باهرة فى معركة الزلاقة وغيرها من المعارك الاخرى التى خاضها جند المرابطين فى الاندلس، بل إن بعض المرابطين رحلوا بعد الحملة الصليبية الاولى إلى بغداد وخطبوا فى الناس ينتهضون الهمم ويلهبون الحماس فى النفوس ويدعون إلى الجهاد فى الشرق كما دعوا اليه فى المغرب. وهكذا قدم المرابطون الخير كل الخير للعالم الاسلامى .

الدولة بعد يوسف :

تولى أمور المرابطين بعد يوسف ابنه على والذى من حسن حظ الامة الاسلامية أن ابنه كان على شاكلته من ناحية صدق الايمان والاخلاص للإسلام وكان حسن التكوين والتدريب حيث شب أميرا عالما مجاهدا يتميز بالعدل والصلابة فى الحق وحسن الخلق ويتمتع بثقافة عالية وسار على نهج أبيه فى كل ميادين العمل وكان أهم ميدان له هو الجهاد فى الاندلس. وقد ورث على بن يوسف دولة موطدة الاركان

(١) كانت هذه القوات القليلة العدد اضافة جديدة للقوات المرابطية الضخمة التى كانت ترابط فى مختلف بلاد الاندلس التى تخضع للحكم المرابطى ومن هنا لم تكن هذه القوات الا دعما للوجود العسكرى المكثف .

فعمل على تثبيتها رغم الاخطار التى تتهددها لاسيما من ناحية أمراء إسبانيا المسيحيين. وقد انتهز فرصة الخلاف الذى وقع بينهم وعبر إلى الاندلس عام ٥٠٠هـ/ ١١١١م على رأس سبعمائة فارس [١] واستولى على طليطلة ومدريد ووادى الحمارة ثم عاد إلى افريقيا بعد أن ترك بالاندلس جيشا اسلاميا ضخما. لكن سرعان مانشب الخلاف بين المرابطين والمسيحيين مما دعا على بن يوسف إلى أن يعود إلى الاندلس عام ٥١٥هـ/ ١١٣٤م ولكنه لم يلبث أن عاد إلى المغرب وترك أخاه تميم بن يوسف.

وبينما كان على بن يوسف يواصل جهوده فى المغرب والاندلس بدأت الاخطار تحدق بالدولة من قبل الذين يدعون لدولة الموحدين والذين عملوا ضد المرابطين واجتهدوا فى تشويه سمعتهم وقد نجحت دعايتهم بالاضافة إلى قيام ثورة فى قرطبة على المرابطين وعجز تميم بن يوسف عن سحقهم فى الوقت الذى كانت فيه ثورة الموحدين فى المغرب على أشدها فانتهز المسيحيون الفرصة وهاجموا المسلمين وتوفى على بن يوسف عام ٥٣٧هـ/ ١١٤٢م بعد أن حكم سبع وثلاثين عاما قضاها فى مواجهة المشاكل فى المغرب والاندلس .

وتولى ادارة شئون البلاد من بعده ابنه تاشفين بن على بن يوسف وقد ورث هذا الملك العريض والحافل بالمشاكل والمصاعب وكان شابا حسن الاستعداد ولكن الظروف التى تولى فيها كانت عسيرة تحتاج إلى رجل ذى تجربة واسعة، ذلك لان محمد بن تومرت استعمل أساليب غاية فى العنف والقسوة والبعد عن المألوف فى محاربة المرابطين معتمدا على قبائل أكبر وأضخم وأقوى من قبائلهم حيث ناصرته صنهاجة ودرعة وغيانة .

وقد اضطر المرابطون إلى توجيه كل قواهم إلى صراع الموحدين فى المغرب دفاعا عن كيانهم وبهذا حرم الاندلس من جهود المرابطين وتوفى تاشفين بن على بن يوسف عام ٥٤٠هـ/ ١١٤٥م وتولى بعده ابنه ابراهيم ابن تاشفين ثم اسحق بن على بن يوسف الذى عزل فى نفس العام الذى توفى فيه أخيه ابراهيم. وقد تلاقت الدولتان المرابطية والموحدية فى النصف الاول من القرن السادس الهجرى ولو تأخر ظهور دولة الموحدين نصف قرن من الزمان لتعاقبتا على الجهاد ولكن هكذا شاءت الاقدار وخسر المسلمون من هذا التعاصر الشئ الكثير ولكن كان ظهور المرابطين فى المغرب العربى سببا فى ظهور فكرة المغرب الموحد فى دولة واحدة على أيدى المرابطين أولا ثم الموحدين بعدهم .

ويعتبر قيام دولة المرابطين رسوخا للدين ولدور البربر الذين أصبحوا أصحاب الكلمة فى المغرب حيث قامت دولة المرابطين فى وقت انتهى فيه نفوذ العرب فى المغرب وافريقية بانتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر وسقوط الدولة الاموية فخلا الجو أمام البربر وانتهى الامر بأن أقاموا خلافة مغربية فى عهد الموحدين عندما اتخذوا لقب أمير المؤمنين، كما أن قيام الدولة وتوسعها فى الاندلس يمثل ظاهرة فريدة فى تاريخ المغرب الاسلامى .

الباب العاشر

مآثر المرابطين فى المغرب والاندلس

لعب المرابطون فى المغرب الاسلامى (المغرب والاندلس) دورا كبيرا فى صد الهجوم الصليبى المنطلق من شمال الاندلس دورا لا يقل عن الدور الذى لعبه - الايوبيون والمماليك» فى صد الهجوم الصليبى على بلاد الشام، بل إن قيامهم بالواجب الاسلامى فى غرب العالم الاسلامى فى صد هجمات الإسبان والبرتغاليين فى بلاد الاندلس كان له دور فى ابطاء الهجوم الصليبى على بلاد الشام بل الاقلال من قوة الهجوم الصليبى لاحتلال الديار المقدسة فى الشام بل إن هناك بعض المرابطين الذين قدموا إلى الشرق الاسلامى لشد أزر اخوانهم فى العقيدة للدفاع عن المقدسات الاسلامية، ومن هنا لم تكن مآثر المرابطين تقتصر على المغرب الاسلامى بها أن أثر قيامها على مسرح الاحداث السياسية ترك تأثيرا على مجرى الاحداث السياسية فى العالم الاسلامى بأسره فلم يكن ظهور دولة المرابطين التى كانت أقصر دولة فى تاريخ المغرب حيث إنها ظهرت كقوة سياسية منذ أن أخذ يوسف بن تاشفين بزمام الامور عام ٤٨٠هـ/ ١٠٧٨م وانتهت عام ٥٤٠هـ/ ١١٤٥م ومن هنا فان عمرها الزمنى لم يزد عن ستين عاما منذ أن بسطت ألويتها على المغرب والاندلس اضافة إلى أنها لم تزد عن المائة عام منذ تولى أمرها أبو بكر عمر اللمتونى وتلك الفترة الزمنية القصيرة حققت فيها دولة المرابطين العديد من الانجازات السياسية والعسكرية والاقتصادية والثقافية مما ترك بصمات واضحة قوية فى هذه المجالات .

فلقد تركت دولة المرابطين أول مظهر حضارى هو تغير الحياة الاقتصادية والحضارية وسيادة المرابطين خلال القرن السادس الهجرى الحادى عشر متخذين من

المغرب الاقصى مركزا للنشاط الاقتصادى فى الاندلس أيضا ذلك لان أندلس ما قبل الزلاقة ليس بعدها ومن هنا كانت الاهمية العظمى للانتصار المرابطى فى الزلاقة اذ تيسر السيطرة السياسية للمرابطين على الاندلس فالزلاقة أصبح يؤرخ بها وبعدها ضم المرابطون الاندلس إلى دولتهم .

ولقد كان من أثر قيام دولة المرابطين فى المغرب والاندلس أن بدأ الاندلسيون فى القرن السادس بالهجرة إلى البلاد المغربية حيث خضع القطران لحكومة واحدة وهذه الهجرة حلقة فى سلسلة بدأت منذ فترة قبل ذلك بدافع التجارة أو العلم أو الحجج، غير أن حركة الجلاء اتخذت صورة جماعية فى الاندلس خلال عصر ملوك الطوائف نتيجة سقوط مدينة فى حرب داخلية أو عدوان خارجى أو هربا من الظلم أو أعباء الضرائب أو الصراع العنصرى. ولكن منذ الدولة المرابطية توفرت فى البلاد الغربية حياة مستقرة أفضل من الاندلس كما أن مراكش أصبحت مركز الثقل السياسى فإليها يهرع المتعلم لتولى حظه وبرع التجار بحثا عن سوق فتقاطرت جموع الاندلسيين إلى البلاد الغربية خلال القرن السادس الهجرى .

ولقد استطاع المرابطون القضاء على هذه الدويلات وتلك الدول فى محاولة لوضع حد لآثارها على الاقتصاد المغربى، الا أن المرابطين أنفسهم لم يلبثوا أن أصبحوا فى الدور الثانى خطرا جديدا على النشاط الاقتصادى بما فرضوا من ضرائب باهظة على الزراعة والصناعة والتجارة الامر الذى شل هذا النشاط إلى درجة كبيرة. ولئن أتيح للمرابطين أن يضعوا حدا للفوضى التى حدثت فى وجود دول الطوائف الاندلسية ودويلات زناتة وكذلك فإنهم عجزوا عن القضاء نهائيا على زحف نصارى أسبانيا جنوبا وسيطرة القوى الاوربية على البحر المتوسط. ومع أن المرابطين تدخلوا فى الاندلس تلبية لدعوة الاندلسيين وحاولوا وقف تقدم نصارى إسبانيا وقد نجحوا فى ذلك بعض

الشئ ومع انهم بذلوا جهودا مضنية لتعمير المدن التى هجرها أهلها مثل قرطبة وباجة وشلب فان كل هذه الجهود قد ذهبت أدراج الرياح.

لقد كانت سيطرة المرابطين على الاندلس ذات طابع معكوس اذ انقلبت الاوضاع وأصبحت الغلبة من نصيب أهل المغرب وكتب لهم السياد على الاندلس وأصبحت شئون تلك البلاد تصرفها حاضرة واحدة هى مراكش. بل إن مراكش بسطت نفوذها حتى اقليم السنغال والنيجر وجمعت بين المؤثرات الاندلسية والمغربية والسودانية وألفت بين التراث الاندلسى والمغربى والسودانى وطبع ذلك المزيج من المؤثرات الحضارية بطابع اسلامى وثقافة اسلامية أخذت من كل جانب بقسط وصاغتها فى قالب الثقافة الاسلامية مما جعل التأثير الحضارى بين البيئات الثلاث. وحدة شكلت مجتمعا جديدا يختلف اختلافا واضحا عن غيره من المجتمعات السابقة .

ومن هنا فانه يتبين لنا أن الدولة المرابطية كانت أمينة على تراثها القبلى عاملة على أن تؤلف بين قلوب الامراء والاشراف وشيوخ القبائل والعشائر حتى يظل تحالف القوى الثلاث (المغرب- الاندلس- السودان) قويا متماسكا لا يتفرق شمله وربما قد أثارت هذه السياسة أهل الاندلس الذين كانوا يطمعون فى بسط نفوذهم فى الدولة الجديدة ولاسيما من الناحية الثقافية والفكرية .

وقد تأثرت دولة المرابطين بهذه الروح المتعاونة تأثرا عظيما حتى لقد كان نظام الحكم فى عهد المرابطين نظاماً لامركزى يتمتع فيه حكام الاقاليم بسلطة محلية مطلقة سواء فى الاندلس أو المغرب والسودان لاتربطهم بولى الامر الا رابطة الولاء من ناحية ورابطة القرابة من ناحية أخرى وقد كان أمير المؤمنين يعين هؤلاء الامراء لفترات محدودة ويضعهم تحت الاختبار وقد استخدم المرابطون رجالا من غير قبيلة صنهاجة واستعانوا فى المغرب بأهل الاخرى التى دانت لهم بالطاعة كما استعانوا بالاندلسيين

الوافدين على المغرب والمقيمين فيه بعد الوحدة .

فقد تدفقت ثقافة الاندلس على بلاد المغرب وعملت على خلق تراث فكرى كما أن هذه الثقافة الاسلامية استطاعت أن تجعل المرابطين يشاركون العالم الاسلامى ثمار هذه الحضارة التى جمعت تحت ظلالها البيئات الاسلامية الثلاث الاندلسية والمغربية والسودانية .

ولقد كان المرابطون يعتمدون على رجال الدين بل ينظرون اليهم نظرة تقدير واجلال واحترام ومن هنا فانه يمكن القول أن الدولة كانت دولة الفقهاء المرابطين، الذين كانوا يعتمدون على الفقهاء والقضاء فى تطبيق مبدأ الشورى وقد أجرى يوسف بن تاشفين عليهم الارزاق وكان على بن يوسف أكثر من أبيه برا بالفقهاء والعلماء بل انه انصرف إلى تحالفهم ومجالستهم وكان القضاء يحكمون وفق الشرع فلم يكن عليه سلطان لغير قانون السماء لايخالفه ولايخرج عليه، ومن هنا ارتفع شأن القضاء وزاد قدرهم وعظم سلطانهم والتف الناس حولهم، بل ان القاضى كان يتدخل فى كل صغيرة وكبيرة فى شئون المدينة، وكان أمير المؤمنين يعين كبير القضاة فى بلاد الاندلس والمغرب والسودان .

وهكذا كان لدولة المرابطين دور واضح فى مفهوم الحكم والقضاء والثقافة الاسلامية وظهور أنماط ثقافية ذات أبعاد واحدة جمعت أقطارا واسعة، لكنها متوحدة المصدر، ذلك لان التقاليد الاسلامية السمحة التى بها عبد الله بن ياسين جعلت من المرابطين حكاما يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وينادون بالمساواة بين الناس ويجلون العلماء والفقهاء والقضاء .

ثم ألم يكن للمرابطين أكبر الأثر فى دعوتهم التى خرجوا من أجلها يبشرون بمبادئ الدين الاسلامى الحنيف وتخليصه من البدع والضلالات والخرافات بل تطهير

المجتمع الاسلامى ورفع صيحة الامر بالمعروف والنهى عن المنكر فى المغرب والاندلس تلك ميزة من مميزات دعوة المرابطين الداخلية بالاضافة إلى تخليص شعب الاندلس والمغرب مما يعانيه من بؤس وشقاء وظلم الحكام والقضاء على كل الموبقات التى كادت تقصف بالمجتمع الاسلامى فى ذلك العصر .

كذلك عندما تحقق نصر المرابطين فى الزلاقة فان أهل الاندلس قد شهدوا عن قرب عدل المرابطين وتمسكهم بالكتاب والسنة وعملهم على احياء الدين وكيف انهم ينشرون مبدأ المساواة بين الناس ويخففون عن كواهلهم أعباء الضرائب الفادحة التى فرضها عليهم الامراء .

لقد قام المرابطون بواجب الجهاد فى سبيل الله ورفع لواء الدين الاسلامى. وجعل هذا الهدف المرابطين قوة يخشى بأسها فى المجتمع العربى فى القرنين الخامس والسادس الهجرى، وقد ظهرت روح الجهاد فى كفاحهم فى المغرب الاقصى والاندلس فقد أدرك ابن تاشفين أن نجاح دعوة الجهاد يقتضى تنظيم قوى المرابطين فى كفاحهم لجمع وحدة المغرب والاندلس فقد كان توحد قوى المغرب واخضاع قبائله تحت قيادة لمتونة ويوسف بن تاشفين هى بداية الاستعداد والانتصار فى معركة الزلاقة فقد كان تحالف والتحام صنهاجة ولمتونة ولمطة وغيرها من قبائل الملثمين قد مكنت ليوسف الانتصار حيث أسدت هذه القبائل للمرابطين دورا كبيرا فى حركة الجهاد الاسلامى كما أن أبناء السودان لهم دور كبير فى تحقيق أهداف الجهاد الاسلامى بما لعبوه من تضحية وفداء فى معركة الزلاقة .

وقد كان من الطبيعى بعد أن خضعت الاندلس للسيادة المرابطية وتعددت الجيوش المرابطية المشتركة فى معركة الجهاد أن تتوحد قيادة هذه القوات وان يعقد لوائها لقائد واحد هو حاكم الاندلس من قبل أمير المسلمين فى مراكش .

وكانت مآثر المرابطين واضحة جلية فى فن بناء الحصون والقلاع وشحنها بالجنود والعتاد والاطعمة وترتيب العساكر بها حيث كانت فلسفة بناء الحصون منذ انطلاق الدعوة فى جنوب الصحراء الكبرى حيث كان بناء الحصون أول عمل من أعمالهم وما بناء مدينة مراكش الا لكى تكون حصنا لتحقيق الاهداف العسكرية للمرابطين ومن هنا كان بناء سلسلة كبيرة من الحصون، كما أن على بن يوسف تابع سياسة والده وأحس أن الحصون السابقة لم تحقق الهدف فى حماية أمن الدولة لذا استعان ببعض أهل الاندلس لبناء عدة حصون وقلاع، وكانت هذه الحصون والقلاع عبارة عن خط دفاع أول عن الدولة حيث كانت من الصعوبة الوصول اليها لان بها أبراج مراقبة وبها من الاطعمة والعتاد والافراد ما يمكنها من مقاومة الحصار لفترة طويلة ولقد كانت أعداد هذه الحصون تزيد عن عشرين حصنا بل أن بعضا منها لازال باقيا فى المغرب الاقصى .

كما أن الدعوة الدينية التى قامت على أساسها دعوة المرابطين قد أشاعت فى الناس روح الامانة والثقة وكان الامراء والسلاطين والملوك قدوة للرعية والولاة ورجال الادارة والعمال. وقد كان يوسف بن تاشفين أمير المسلمين نفسه زاهدا فى طلب الدنيا متورعا متقشفا على ما فتح الله عليه، كما أن المرابطين لم يفرضوا على الناس الا ما أمر الله تعالى به واجبه فى الكتاب والسنة من الزكاة والعشور وجزية أهل الذمة واخماس الغنائم من المشركين ومن هنا انتشر الرخاء وأصبح الناس فى المغرب والاندلس والصحراء يعيشون عيشة ميسورة فى ظل الحكم المرابطى الذى جاء الموحدون لينقضوا عليه .

ولقد قدم المرابطون للحضارة الاسلامية الشئ الكثير الذى لازالت آثاره خالدة فى حضارة الاسلام فقد حافظوا على حضارة المغرب الاوسط والاقصى من الضياع ووقفوا

بالمرصاد لكل من يحاول أن يعبث بتلك الحضارة بل انهم صانوا التراث وقربوا العلماء رالفقهاء ورجال العلم وتألق فى عهد المرابطين نجم جامعة فاس ومسجد القرويين الذى لازال دوره حتى كتابة هذه السطور حيا فى عالم المغرب العربى وافريقيا بعد أن ورثت جامعة فاس جامعة القيروان بعد الغزو الهلالى لتونس، كما أن سيطرة المرابطين على الاندلس قد كانت سببا فى ظهور حضارة مغربية أندلسية حيث اختلطت المؤثرات الاندلسية بالمؤثرات المغربية وساعد ذلك على تقدم الفن والثقافة والحضارة والعلوم فى المغرب. وقد عمل سلاطين المرابطين على تشجيع العلماء الاندلسيين فى القدوم إلى المغرب ووفدت منهم طائفة كبيرة فى عهد الامير على بن يوسف بن تاشفين إلى مراكش حيث أشاعوا نوعا من ألوان الحضارة الاندلسية كالادب والعمارة والفنون والصناعات والفقهاء والعلماء بل وفد إلى المغرب الاطباء والفلاسفة ولقى هؤلاء تشجيعا من أمراء المرابطين حيث أقاموا صرح حضارة مغربية متطورة تأخذ بأسباب التقدم فى جميع المجالات حيث لقى تشجيع المرابطين ازدهارا لكل هذه العلوم. كما انه على الجانب الآخر قدم المغاربة إلى الاندلس يحاضرون فى مدارسه ومعاهده وجلسوا للدرس والتدريس وتحلق الطلاب حول علماء المغرب الذين عادوا بعد ذلك إلى بلادهم بذخيرة علمية عظيمة ينتفع بها الناس وقد ظهر المغرب كمركز من مراكز نشر الثقافة والحضارة الاسلامية بل ان المبدعات الفكرية والثقافية والعلمية تفوقت على ما كان يصدر فى بلاد المشرق الاسلامى وبدأ علماء المغرب ينافسون علماء المشرق فى كل المجالات وأصبحت مدرسة مراكش كعبة العلم والعلماء يقصدها العلماء فى عهد المرابطين من كل فج عميق ليمارسوا نشاطهم العلمى والفكرى والثقافى كما أن مدارس الاندلس نهضت نفس النهضة بل أكثر من المغرب وشهدت مدرسة قرطبة ظهور العديد من العلماء والفلاسفة والاطباء .

كما خطت العلوم العربية خطوات واسعة الانتشار وظهرت فى بلاد الاندلس طائفة كبيرة ممن فهموا أسرار اللغة العربية وبرعوا فيها، وكما ارتفع شأن العلوم العربية حظيت العلوم الدينية بالرعاية الكاملة وزاد الاهتمام بالفقه والشريعة وعلوم القرآن الكريم والحديث والشعر والادب وتفوقت علوم الفلسفة والطب وبدأت العلوم العقلية تزدهر فتركت بصماتها واضحة جلية فى شعب المرابطين الذين أقبلوا على النهل من الثقافة الجديدة والتى لم تكن متاحة لهم فى بلاد المغرب واستفادت من الحضارة الاندلسية الوافدة على المغرب وبذلك لم يتخلف المرابطون أبناء المغرب العربى عن مسايرة التطور واللحاق بركب التطور الاسلامى بل انكبوا على الثقافة والعلم وأخذوا منها بنصيب وافر. وأقبل الجميع على العلوم الاسلامية ينهلون منها كل منهل حتى انه لم يمض نصف قرن من الزمان على توحيد المغرب والاندلس حتى بدأت ثمار الحضارة الاسلامية التى جمعت بين تقاليد الاندلس والمغرب والسودان تؤتى أكلها شهية للشعب المسلم الذى فاقت حضارته العربية الاسلامية حضارة المشرق، ولم يكن العلماء وأفراد الشعب وحدهم الذين أقبلوا على ينابيع الحضارة الاسلامية بل شاركها فيها الامراء والنبلاء والسلاطين بل إن هناك بعضا من الامراء رحلوا إلى مصر ومكة المكرمة وبغداد للاستزادة من علوم الدين الاسلامى واللغة العربية والعلوم العصرية كالفلك والطب والهندسة والفلسفة والعلوم الصناعية والزراعية .

لقد كان من أهم مآثر المرابطين انهم صنعوا وحدة المغرب الاقصى على الاساس الذى يثبت به التاريخ فقد ظلت المغرب منذ ذلك الحين تشمل البلاد الممتدة من ساحل البحر المتوسط إلى وادى درعة وامتد شرقا من المحيط الاطلسى إلى شرق نهر المولوية ولقد وحد المرابطون هذا المغرب سياسيا ثم دينيا فقد قضوا على بقايا المذاهب المنحرفة وقطعوا دابر المذهبين الاباضى والشيعى بل إلى المرابطين يرجع الفضل فى

الوحدة العقائدية السنة التى تميز المغرب الاقصى .

وأتم المربطون وحدة المغرب الاقصى الثقافية فكان قيام عبد الله بن ياسين بحركته الدينية فقد عمل على نشر الاسلام والقرآن ولغة القرآن وثقافة هذه اللغة وذلك وبعد أن تحولت الحركة إلى حركة سياسية ووحدوا المغرب كما أن العصر المرابطى يعتبر العصر الذهبى للتراث الفنى فى المغرب والاندلس. ففى الاندلس أوقفوا التقدم النصرانى بانتصارهم فى معركة الزلاقة عام ٤٧٩هـ/ ١٠٨٦م وكسروا بذلك الموجة التى كان يقودها ألفونسو بانتصارهم عليه فى معركة افراغة بعد ذلك بثمانية وأربعين سنة ٥٢٨هـ/ ١٣٤م ولم يكن ألفونسو الاول بأقل خطرا من ألفونسو السادس اضافة إلى انتصار المرابطين فى مواقع أخرى مكن لهم الثبات فى شرق الاندلس .

كل ذلك أدى إلى ثبات جبهة الاسلام فى الاندلس بعد أن أوشكت على الانهيار قبل دخولهم واذا كان عمر الاسلام قد امتد بعد ذلك نحو أربعة قرون فى الاندلس فان الفضل كل الفضل فى ذلك يعود إلى الدور المجاهد الذى بذله المرابطون .

وخلال هذه القرون الاربعة التى أضافها المرابطون إلى عمر الاسلام فى الاندلس كتب أهل الاندلس صفحات خالدة فى تاريخ الاسلام .

بل أكثر من ذلك فقد توالت على الجامعات الاندلسية البعثات الاوربية لتلقى العلوم والفنون والصناعات حتى أن ملوك انجلترا أرسلوا البعثات لدراسة نظام الدولة والحكم وآداب السلوك وكل ما يؤدى إلى سير الامور فى الدولة والسير بها فى مضمار الحضارة والتقدم .

ومهما يكن من أمر فان القرن الخامس الهجرى وأوائل القرن السادس قد شهدا ظهور نهضة ثقافية شاملة عمت بلاد المغرب والاندلس على الكتب الاسلامية .

ولقد تركت المؤثرات المختلفة بصماتها على الثقافة الاسلامية فى عصر المرابطين وبدأت المؤثرات الفنية الوافدة من الشرق والمغرب والسودان تتفاعل فى مدرسة الاندلس. وبدأ يظهر فن اسلامى أندلسى رفيع المستوى وبدأت الصلة بين المغرب والاندلس تتضح آثارها وبدأ زعماء البربر يفدون على قرطبة واشتد تأثير الاندلس فلم يعد قاصرا على مدن الساحل الافريقى واقليم الريف بل نفذت تلك المؤثرات الاندلسية إلى اقليم الصحراء جنوبا بعد أن تخطت اغمات ومراكش وظهر الصناع الاندلسيون فى تلك البقاع واستفادت الصحراء والمغرب من خبرتهم ومهارتهم فى بناء المساجد والحصون وغيرها من المؤسسات التى لم تكن معروفة بهذه الصورة من الروعة سابقا .

وقد تأثر على بن تاشفين (٥٠٠- ٥٣٧هـ/ ١١٠٦- ١١٤٢م) فقد تتلمذ على الحضارة العربية وأمعن فى الاستعانة بالاندلسيين فى شتى المجالات فانتشروا فى طول البلاد وعرضها واستفادت منهم مدن المغرب ومؤسساته وأصبحت المؤسسات الادارية والحكومية فى مراكش وفاس وتلمسان تضارع مؤسسات قرطبة وطليطلة وأشبيلية وكان الفن فى عهد المرابطين هو فن أندلسى على أرض مغربية .

وقد شهدت دولة المرابطين (الاندلس والمغرب والصحراء) فى عهد يوسف بن تاشفين وعهد على ابنه أمنا واستقرارا وطمأنينة ساعدت على ازدهار الحضارة الاسلامية .

وهكذا أهدى الفكر العلمى الاسلامى فى تلك العصور الزاهرة إلى الانسانية كثيرا من مظاهر التقدم والرقى والحضارة والرفاهية بل أكثر من ذلك فان مساجد فاس لم تكن مخصصة للعبادة فقط بل كانت دار علم .

بل إن أقدم جامعة فى العالم ليست فى أوربا كما كان يظن العالم يتلقى فيها الطلبة من كافة البلاد مختلف العلوم التى لم تكن قاصرة على علوم الدين والقرآن

والحديث والتفسير والفقه وانما كان يدرس فيها علوم الرياضة والفلك والجغرافيا وقد أطلق على هذا المسجد اسم «جامعة القرويين» وهى أول جامعة اسلامية كانت تدرس فيها مختلف العلوم لكافة المراحل .

بل فى افريقيا فى مدينة فاس عاصمة المغرب وقد تخرج فى هذه الجامعة الأم عشرات من الطلبة الاجانب الاوربيين من غير المسلمين .

ويسجل التاريخ للمسلمين انهم كانوا أصحاب رسالة ومن أسباب النهضة العلمية فى أوربا. وهكذا أصبحت مدينة فاس من أهم مراكز الفن والعلوم فى المغرب فى عهد المرابطين .

وقد تركت دولة المرابطين التى لم يصل عمرها الزمنى إلى مائة عام وهى فترة قصيرة فى عمر الدول بصماتها واضحة جلية فى جميع المجالات بل إن تلك المآثر الحضارية تعدت حدود دولة المرابطين إلى أرجاء أخرى من العالم الاسلامى ولولا ظهور دولة الموحدين وانقضاضها بعنف على دولة المرابطين ٤٤٨- ٥٤٠هـ/ ١٠٥٦- ١١٤٥م لكانت المآثر الحضارية والثقافية والسياسية والعسكرية أكثر تأثيرا فى تلك البقاع التى ظهرت فيها دولة المرابطين وهكذا شهد عام ٥٤١هـ/ ١١٤٥ انطواء صفحة جليلة فى تاريخ المرابطين فى المغرب الاسلامى .

خلفاء المرابطين

أبو بكر عمر اللمتونى

٤٤٨- ٤٨٠هـ- ١٠٥٦- ١٠٧٨م

يوسف بن تاشفين

٤٨٠- ٥٠٠هـ- ١٠٧٨- ١١٠٦م

على بن يوسف بن تاشفين

٥٠٠- ٥٣٧هـ- ١١٠٦- ١١٤٢م

تاشفين بن على

٥٣٧- ٥٤٠هـ- ١١٤٢- ١١٤٥م

ابراهيم بن تاشفين بن على

٥٤٠هـ- ١١٤٥م

الجزء الثالث

ظهور دولة الموحدين على مسرح الأحداث في المغرب والأندلس

الباب الحادي عشر

ظهور دولة الموحدين على مسرح الأحداث

دور الفقيه محمد بن تومرت

كان النجاح الذى حققته قبيلة لمتونة بقيام دولة المرابطين تلك الدولة القوية التى لعبت دورا هاما بفضل الدور الذى لعبه عبد الله بن ياسين دافعا لكى تتحرك إحدى قبائل الجبل وهى قبيلة المصامدة لكى تتحرك هى الأخرى لإقامة كيان سياسى على غرار دولة المرابطين . وكان يوسف ابن تاشفين مؤسس دولة المرابطين قد أدخل المصامدة فى طاعته وساد بلادهم . وكانت قبائل المصامدة تسيطر على اقليم السوس الاقصى وتكون كتلة قوية المراس صعبة المقاومة وكانت قبائل المصامدة تكره زناتة وتتوق إلى حليف تشد أرزه وقد وجدت ذلك الحليف فى قبائل المرابطين الزاحفة من الواحات ويروى المؤرخون أن المصامدة لم يقاوموا المرابطين بل ساعدوهم فى القضاء على زناتة ولن يتسير ذلك للمرابطين إلا بعد استرضاء قبائل المصامدة ، لذا يعتبر استرضاء المصامدة عملا سياسيا ممتازا .

ولقد كان ذلك باعثا حرك فى نفوس المصامدة الرغبة فى انشاء دولة لهم فهم قبائل ضخمة قوية يشكلون معظم سكان المغرب الأقصى وتمتد ديارهم من شمال المغرب الأقصى إلى جنوبه ولم تكن تلك الجموع إلا فى حاجة إلى شخصية قوية قيادية قادرة على توحيد الصفوف والقيادة وقد أتاحت الظروف لظهور تلك الدولة على مسرح الأحداث السياسية فى المغرب والأندلس لكى تخلف دولة المرابطين فى الزعامة بفضل ظهور شخصية فقيه مصمودى من قبيلة هرغة التى تسكن فى نواحى جبال الأطلس العليا فى سهل السوس وهى قبيلة من قبائل البربر المقيمة فى جبال الأطلس المراكشية .

وقد أصبحوا بمثابة الخلية الأولى التى تدعو إلى صفاء التوحيد الإلهى من الشوائب . بعد أن فقد المرابطون المجاهدون تقشفهم وحياة الصحراء ولم يستطيعوا الصمود أمام تأثير الحضارة الأندلسية ومن هنا استطاعت دولة الموحدين أن تخلف المرابطين فى حكم المغرب والاندلس وقد قامت هذه الدولة على أساس دعوة دينية إصلاحية طابعها التجديد والعظمة وهدفها تحقيق وحدة إسلامية شاملة .

ومؤسس هذه الدعوة هو الفقيه عبد الله بن محمد بن تومرت الهرغى المصمودى السوسى وواضح من اسمه أنه من قبيلة هرغة إحدى بطون مصمودة التى كانت ديارها تقع فى بلاد السوس بجبال الأطلس الجبلية الضاربة بالمغرب الأقصى . هذه القبيلة التى عرفت فى تاريخها الطويل بشدة مراسها وكرهها الشديد لبدو الصحراء الذين يغيرون على مواطنها وكان قد أخضعها المرابطون بعد فتح المغرب واستكانت للغلبة ولكنها ظلت تضمر الحقد والكراهية للملثمين وتتلمس السبل المؤدية إلى الثأر مما نالها من أذى والخلاص مما تتردى فيه من مذلة وخضوع .

وقد ولد محمد بن تومرت الهرغى فى عام ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م على وجه التقريب فى بيت يغلب عليه طلب العلم . وكانت ولادته فى قرية اجليز الصغيرة إحدى قرى جبال الأطلس فى الجنوب الغربى من السوس وكان أبوه زعيم هذه القرية ورئيسها وكانت قبيلة غنية قوية فعرف منذ صغره بغيرته الدينية وكان كثير التردد على المسجد مقبلا على مجالس العلم فيه فسرعان ما كسب سمعة بين مواطنيه أهلته لزعامتهم .

ولكن كان لابد أن تستند خلافتهم أيضا على الأسس الشرعية اللازمة كالنسب النبوى أو الأصل العربى فقالوا بانتماء كل من المهدى وخليفته عبد المؤمن إلى الرسول ﷺ عن طريق الادارسة واتخذوا اللون الأخضر شعارا لهم كى يظهروا ميلهم إلى الدعوة العلوية . وقد أشار تلميذه أبو بكر الصنهاجى إلى نسبه بأنه شريف حسنى رغم أن

هناك بعض الشكوك فى ذلك النسب . وإن كان ابن خلدون يذكر أن الإمام المهدى صاحب دولة الموحدين ينتمى نسبه إلى أهل البيت وأن القدح فى النسب جاء من حسد بعض الفقهاء على شأنه لانهم رأوا فيه متبوع الرأى مسموع القول . وقد نادى فى قومه ودعا إلى جهادهم فاقتلع الدولة من أصولها وكانت له قوة وشدة وشوكة واعز أنصارا وحامية .

وقد بايعه أنصاره على الموت ووقوه بأنفسهم حتى علت كلمتهم وسيطروا على العدوتين وقد رأس هذا الرجل سائر المصامدة ودانوا باتباعه والانقياد إليه وإلى جماعته من هرغة حتى أتم أمر الله فى دعوته ومهما يكن النسب العلوى الحسنى فلم يكن أمر المهدى يتوقف عليه ولا اتباعه الناس بسببه وإنما كان اتباعهم له بعصبة الهرغية والمصمودية ومكانه منها ورسوخ شجرته فيها .

كذلك يروى ابن الأثير عن الأصل العربى القرشى فيروى أن ابن تومرت حينما سأل عبد المؤمن عن نسبه فى أول لقاء لهما أخبره بأنه من قيس عيلان ثم من بنى سليم وأن سليم وقيساً ينتميان إلى مصر التى منها قريش . كذلك يروى المؤرخون أن عبد المؤمن بن على كان يقول لمن يذكر له اسم قبيلة كومية البربرية التى ينتمى إليها وهى من بطون زناتة بنواحى تلمسان أنا لست منهم وإنما نحن لقيس عيلان ولكومية علينا حق الولادة بينهم والمنشأ فيهم وهم الأخوال وقد حرص مؤرخو هذا العصر على اثبات هذا الأصل العربى فى كتاباتهم فأطلقوا على عبد المؤمن كنية القيسى بدلا من الكومى كذلك استغل الموحدون هذا النسب العربى القرشى فى اخضاع القبائل العربية المقيمة فى افريقية (تونس) وبهذا يكون ابن تومرت من أصل مرموق .

واتجه ابن تومرت إلى الدراسة والعلم فدرس فى بلده الصغيرة أولا ثم فى مراكش ورحل ابن تومرت المصمودى إلى الاندلس والشرق واغترف من معين الثقافة الإسلامية فى المدرسة النظامية ببغداد ثم عاد إلى المغرب يأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وباطنها

التعصب المصمودى وكره للمرابطين وتشويه لدعوتهم ولتاريخهم المجيد .

ومن ثم أخذ يهاجم أمراء العصر ونقم على أهل الدولة ما نقم من أحوالهم وخالف اجتهاده فقهاؤهم حتى علت كلمته على الكلم وأخذ يشدد على المرابطين ويتهمهم بأنهم مسؤلون عما حل بالمجتمع من مصائب وأعلن عليهم حربا لا رحمة فيها ولا هوادة وقد توسل بوسائل كثيرة لكسب الأنصار لدعوته الجديدة فادعى الانتساب إلى بنى هاشم (ابن خلدون لا يشك فى النسب) واتخذ لنفسه اسم محمد بن عبد الله العربى القرشى الهاشمى الفاطمى المحمدى ووصل نسبه بعبد الله بن الحسن بن على بن أبى طالب بل لقب نفسه بالمهدى وظل يؤلب قبائل المصامدة ويوغر صدورهم على الدولة المرابطية التى دافعت عن العقيدة الإسلامية وأقامت أعز دولة فى الأندلس والمغرب والصحراء واستطاع بعد جهاد طويل أن ينال من الدولة وهو فى سبيل ذلك يكفر المرابطين ويتهمهم بالزندقة ومن هنا ما كاد يرفع علم المقاومة ويحمل لواء الجهاد حتى كانت قبائل المصامدة من خلفه وتتبنى حركته وتشد أزره وتنصره وكان قد أعلن للناس أنه المهدى المنتظر الذى بعث لانقاذ المجتمع بل ذهب إلى أكثر من ذلك فى القول أنه الإمام المعصوم .

ولا شك فى أن محمد بن تومرت كان رجلا غير عادى الذكاء ولكن مواهبه الحقيقية كانت سياسية لا علمية وكان العلم بداية وطريقا يوصله إلى تحقيق غاياته السياسية وكلما سار فى الطريق شوطا اتضحت مكانته الحقيقية بين شعبه بعد أن أصبح لا يميل إلى الاجتهاد ولا يأخذ إلا بالكتاب والسنة والإجماع وأقبل يدعو إلى التشدد وكسر قوارير الخمر بل أخذ ينعى على المرابطين ظهور نسائهم وجهر ينقدهم واتخذ له حلقة فى قسطنينة وأقبل عليه الناس يتعلمون منه ونصرته قبيلته وبذلت له المساعدة . بعد أن وضع كل ما حصله من علم فى خدمة غاياته السياسية فقد استطاع اسقاط دولة كبرى هى دولة المرابطين وإقامة كيان سياسى دينى فريد فى تاريخ الإسلام

هو دولة الموحدين ، ولقد كان ذلك الرجل زاهدا لا يتمسك بأى مظهر من مظاهر الجاه أو السلطان وأنه كان يسعى لإقامة دولة للشعب المصمودى بعد أن أقنعهم بأنه المهدى المكلف بحركة إعادة المسلمين إلى العقائد الأولى الصحيحة المبنية على الإسلام والسنة وأنه صاحب الحق دون غيره فى تفسير الشريعة .

وفى حوالى عام ١١٢٥ م شيد ابن تومرت الرباط وفشل المرابطون فى الوقوف أمامه بصورة سريعة كما أن الفكرة التى كان يتبناها وهى فكرة الموحدين قد لقيت تأييدا كبيرا بين القبائل الجبلية المعادية لصنهاجة .

وقد دخل هذا الرجل التاريخ فى صورة فقيه يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وهى بداية تتفق مع خطته التى رسمها لنفسه وهو الظهور بمظهر المصلح الدينى الثائر ذلك لأنه عندما يصل إلى تلمسان فيلتقى بعبد المؤمن ابن على من قبيلة كومية الصغيرة فيرتبط الرجلان برباط قوى فيصبح عبد المؤمن كبير تلاميذ فقيه السوس ومن تلمسان سار ركب الفقيه من السوس إلى وجدة ثم فاس ثم إلى مراكش وينشر صيته فى تلك المدينة وهاجم المرابطين فى المدينة وكان نقد ابن تومرت للمرابطين على غير حق ولكنه كان لايخاف السلطة وكان يرى أن الأمير مسئول أمام الله عن الفساد وأنه باستطاعته أن يرد المعاصى فلما دخل مراكش وغظ على بن يوسف وأمره بالمعروف ونهاه عن المنكر بشدة ثم التحم مع الفقهاء المالكيين المحيطين بعلى بن يوسف فى مناظرة عنيفة استخدم فيها علم الكلام وتعاليم المدرسة النظامية ببغداد وانتصر عليهم لكن العلماء حرضوا على بن يوسف على اخراجه من المدينة وبعد اخراجه أعلن حربا ضد المرابطين ومن ثم بدأت حملاته تشتد ويرمى المرابطين بالزيغ والمروق على الدين لان الناس فى تلك العصور يستهويهم مثل هذا الشخص سواء أكان على حق أو باطل لأن الفكرة العامة كانت أن رجال الدولة دائما على باطل ومن ثم فان كل ناقد لهم يكون على صواب لان الأمراء المرابطين بدأوا يستبدون ببعض الأطراف ويهددون الدولة بالانقسام والزوال .

وبعد أن تأكد ابن تومرت من تكوين جماعة قوية من الاتباع انتقل بهم إلى موقع فى قلب جبال الأطلس قريبا من منابع وادى « نفيس » فاجتمعت له القبائل تنصره ويعلمهم ودخلوا فى بيعته وكان معظمهم من بنى حفص ومن الموقع الحصين الذى أخذه له ولاتباعه أخذ يناوش النواحى القريبة منه من البلاد الخاضعة للمرابطين وفى نفس الوقت يرتب أنصاره ويقبض بيد من حديد على أنصاره فانه بواسطتهم يستطيع السيطرة على قبائلهم مما جعل منه رجلا مطلعا على كل شئ لهذا نرى أصحابه ينفذون أوامره مهما بلغت من رهبة شديدة فى النفوس ومهما بلغت من الصعوبة أو القسوة ولهذا نجد أن هذا الرجل يصبح سيدا مطاعا ومرهوبا من جماعة كبيرة من المصامدة تطيعه طاعة عمياء وتخاف منه خوفا شديدا وهذه المكانة الرفيعة التى وصل إليها جعلته على حق فى أن يتخذ لنفسه لقب الإمام المهدى بعد أن رأى تعاليم الإسلام الأول التى هى تعاليم حكومة الرسول ﷺ التى أقامها بالمدينة المنورة هى التى يجب أن يسير عليها دون سواها . بعد أن أنكر المذاهب كلها وحارب الفرق التى قسمت العالم الإسلامى إلى فرق متعددة ومالت نفسه إلى تبسيط الدين الإسلامى ليكون فى متناول العامة فلا يكون فهمه على العلماء وحينئذ يسهل توحيدهم فى جهة واحدة ولذا أطلق على كل من آمن بدعوته اسم الموحد وأصبحوا جميعهم موحدين .

وكان اتخاذه المقام الجديد فى وادى نفيس فى قرية « تتهمل » على حدود الجبل الشرقى تشرف على السهل فى وادى نفيس فجمعت بين حياة السهل الذى يرغب فى سحقها وحياة الجبل التى تعود عليها والتى يريد نصرتها ومنذ أن استقر فى هذه القرية دخل فى الدور الايجابى حين بدأ حربه المقدسة ضد المرابطين وأخذ فى تنظيم جماعته على نموذج ما فعل محمد ﷺ فكان هو القائد الروحى والقائد العسكرى والفقيه والقاضى وجعل جماعته طبقات وجعل مجلس العشرة وهم أول تلاميذه وأكثرهم حماسا فى نصرته وهم الذين يتناولون أسرار الجماعة العليا وينتهون إلى القرار الذى يسير عليه رئيسهم وكانوا هؤلاء بمثابة مستشاريه .

وكانت الطبقة الثانية هى « مجلس الخمسين » وهم شيوخ القبائل والبطون وكان الطلبة هم الطبقة الثالثة والصفوة المثقفة من أتباعه ويأتى بعدهم الحفاظ وهم صغار الطلبة الذين لم يصلوا بعد إلى درجة خاصة من العلم وأخيرا الطبقة الخامسة وهم أتباعه الخصوصيون ، ثم تأتى بعد ذلك خمس طبقات أخرى تضم جميع من آمن بدعوته وأخيرا يأتى الجند . وكانت هناك قوانين تنظم العلاقة بين هذه الطبقات وهى قوانين صارمة يقوم المهدى نفسه بمراعاتها بدقة تامة وكانت هذه القوانين عبارة عن تقاليد بربرية مدعمة بالتعاليم والشرع الإسلامى والسنة النبوية وكانت الفروض الروحية واجبة على الجميع والإهمال فيها يعرض المهمل لعقوبات مختلفة تصل إلى حد الاعدام بعد أن استطاع ابن تومرت أن يحكم سيطرته على جماعته وأن الخطوة القادمة لابد أن تكون حاسمة فى تحقيق حلمه السياسى الكبير الذى ظل عدة أعوام يدعو له لكى تظهر قبيلة مصمودة على مسرح الأحداث السياسية فى المغرب الأقصى وليكون لها الدور فى مستقبل الحركة التاريخية والسياسية فى تلك البقعة من العالم الإسلامى توطئة لتوحيد العالم الإسلامى تحت راية الموحدين وهو الحلم الذى بدأ يتحرك لتحقيقه فى الصدام مع المرابطين وجها لوجه .

الصدام الموحدى مع المرابطين :

استطاع ابن تومرت وهو لايزال فى جبال أطلس أن ينظم شبه حكومة تقوم على مصاريفها موارد محدودة وفى حدود هذه الموارد ينظم جيشه ويدربه كما استطاع بخطاب ملتهب من خطبه ووعظه ألقاه باللغة البربرية أن يلهب مشاعر جيش ذوى الحمية والهمة وقادهم نائبه عبد المؤمن لمحاربة المرابطين المتهمين بالشرك . ولم تلبث الوقائع أن دارت بين الموحدين والمرابطين ولكن نتائجها لم تكن فى صالحه .

ذلك لانه فى أوائل عام ٥٢٤ هـ / ١١٢٩ م قرر محمد بن تومرت قائد الموحدين وفيلسوف دعوتهم وفقيه عقيدتهم أن يتحدى قوة المرابطين عندما شعر أن

لديه قوة ضخمة تزيد عن الأربعين ألف جندى من الموحدين تصور أنه قادر بهذه القوة على تحدى قوات المرابطين وكانت دولة المرابطين فى ذلك الوقت تحت قيادة على ابن يوسف بن تاشفين وكانت الدولة لاتزال فى قوتها وتستطيع أن تتحدى القوة الموحدية الناهضة ولم تكن قوات الموحدين توجه لعلي بن يوسف بل كانت موجهة إلى كل المرابطين على وجه العموم وكان على رأس هذه القوات تلميذه الوفى عبد المؤمن بن على ، ولم تكن قرارات الموحدين فى تلك الأونة فى مواجهة المرابطين تقدر قوة المرابطين فقد أخطأ ابن تومرت التقدير لان هذا الجيش الموحدى لقى هزيمة قاسية وفقد جل قادته الكبار وكانت صدمة شديدة لمحمد بن تومرت إذ هلك فى تلك المعركة صفوة رجاله المخلصون وقد سميت تلك المعركة معركة البحيرة لكن الدماء سالت فيها مكونة بحيرة من الدم بعد أن لم ينجو من هذه الأعداد الموحدية إلا أعداد قليلة كان على رأسهم عبد المؤمن بن على الذى استطاع أن ينجو من المعركة بأعجوبة وكانت نجاة عبد المؤمن ابن على سببا فى أن يتناسى ابن تومرت أحزانه على قادة الموحدين .

لكن لم تمض إلا فترة وجيزة على تلك الهزيمة القاسية التى هزت وجدان ابن تومرت وقد فارق بعدها الحياة فى ١٩ رمضان عام ٥٢٤ هـ / ٢٦ أغسطس ١١٣٠م. وكان ابن تومرت بعد أن هزم فى أول لقاء معهم قد أحس بالخوف بعد فقده لمعظم قواته بأن يكروا عليه فيقضون على دعوته وهى لم تزل بكراً ومن ثم بدأ فى تحصين مدينة اغمات والمدن التى كان قد استولى عليها قبل هذه المعركة من المرابطين ولكنه لم يكد يمضى فى ذلك حتى نزل به المرض فاعتزل فى قريته فمات بعد أن أسلم قيادة الحركة لعبد المؤمن بن على وقد كان فقيرا وحيدا دون أن يترك عقبا له .

وكان عبد المؤمن بن على وأبو حفص عمر الهنتاتى ثانى شخصية فى الدولة الموحدية خاصة وهو رئيس قبيلة هتاتة أقوى قبائل المصامدة وبقية قادة الحركة الموحدية قد أخفوا خبر موته ثلاث سنوات فلم يعلنوه إلا عام ٥٢٧ هـ . وبعد أن استطاع عبد المؤمن بن على أن يكسب ثقة قبيلة أبى حفص وعلى رأسهم شيخها الذى كان أحد

الشيوخ الأقوياء وبعد أن تأكد أن السلطة كلها قد انتقلت إليه ومن ثم أظهر نفسه بصفته منفذا لإرادة المهدى من تومرت الذى كان قد أوصى أن يصبح عبد المؤمن خليفة له . وظهرت هذه الإرادة فى شكل قرارات اتخذها مجلس العشرة وثم بعد ذلك مجلس الخمسين واتخذ له لقب خليفة تشبها بالخليفة الراشد الأول أبى بكر الصديق .

وكانت تلك المصادمات القوية التى حاول الموحدون القيام بها بقيادة عبد المؤمن بن على فى أواخر أيام محمد بن تومرت من أجل الاستيلاء على مراكش عاصمة المرابطين لكنهم ارتدوا على أعقابهم بعد أن منوا بخسائر كبيرة . وكانت قوات المرابطين التى حققت هذه الانتصارات الرائعة بقيادة الزبير بن على بن يوسف بن تاشفين وكان والى المدينة من قبل والده أمير المؤمنين .

وكان لقب الموحدين الذى أطلقه ابن تومرت على أتباعه قد أطلق اثناء الاستعداد لهذه الغارة إذ أنه كان يحسب أنهم يستطيعون دخول مراكش والقضاء على المرابطين بسهولة فسماهم الموحدين ولم تكن ذات معنى لان كل المسلمين موحدون . وقد سماهم بصورة رسمية زيادة فى حماسهم وبذلك سمى جيشهم بجيش المؤمنين وسمى عبد المؤمن بن على بأمير المؤمنين . بل أن تلك التسمية أراد بها ابن تومرت أن يوهم الناس أن دعوته تتجه إلى احياء عقيدة التوحيد . ومن هنا فان الصورة التى انتهجتها تلك الحركة التى قادها ابن تومرت هى صورة دولة قبلية مصمودية لانها دعوة أزكتها العصبية القبلية .

وللحقيقة التاريخية دون تجنى على دعوة ابن تومرت أنه كان يعرف تمام المعرفة أن المرابطين لم يكونوا أقل جهادا من رجاله فى سبيل إعلاء كلمة الدين الإسلامى فى المغرب والأندلس وأن جهادهم فى الأندلس صورة مشرفة لهم لكن ذلك الرجل كانت العصبية القبلية تملك عليه كل فكره بغض النظر عن نظرته الدينية وعلم المناظرة والكلام الذى تعلمه على أيدى المعتزلة فى بغداد إلا أنه كان مصموديا من

أخمص قدميه إلى قمة رأسه وأن حافزه إلى العمل والحركة كان الرغبة فى تجميع المصامدة وتوحيد قوتهم لإنشاء دولة مصمودية على غرار الدول التى قامت على أكتاف القبائل مثل صنهاجة ولمتونة والقبائل التى قامت على أكتافها دولة الادارسة وبنى رستم وغيرها من دول المغرب .

وأنه إذا نظرنا إلى العمل الكبير الذى بذل فيه ابن تومرت جهودا جبارة منذ عودته إلى المغرب من زيارته للمشرق الإسلامى والاندلس إلى وفاته لأدركنا أنه كان رجلا من الرجال القلائل الذين دخلوا التاريخ بل صنعوا لأنفسهم مكانة تاريخية فى بلاد المغرب رغم ما ارتكب من أخطاء وما قام به من أعمال تتسم بالعنف والقتال والتصفية الجسدية البشعة وقد استطاع ذلك الرجل أن يقوم بالعديد من الأعمال التى تتلاءم مع طبيعة العصر حتى استطاع أن يصل إلى تلك النتيجة المرجوة فى تلك الفترة القصيرة نسبيا من الزمن . بل أنه كان يستغل أبشع الاستغلال ثقة عوام الشعب فيه وظنهم فيه ولى من أولياء الصاحين بل أنه المهدى المنتظر الذى يقيم العدل ويزيل المفاسد ويقيم دولة الدين والعدل والإيمان والمساواة وأنه قادم لكى يملأ الدنيا عدلا وطمأنينة وسلاما وأمنا بعد أن ملئت جورا ، بل إنه الإمام المعصوم الذى دعا الموحدين إلى المحافظة على عقيدتهم فى المهدى المعصوم على اعتبار أن ذلك كان الأساس العقائدى للدولة الموحدية كلها .

ولقد كان ابن تومرت واسع النشاط بل كان ذا قدرة غير عادية بل خارق الذكاء وإلا فكيف تيسر له أن يقيم دولة واسعة موحدة الأركان وضع أساسها لمن حملوا راية التوحيد من بعده ولقد كان حسن الاختيار حين وضع ثقته فى عبد المؤمن بن على الذى رأى فيه أنه الرجل القوى القدير بقيادة الموحدين والقادر على أن يتحرك برجال مصمودة نحو هدفهم المنشود فى إقامة دولة والقضاء على الكيان السياسى لدولة المرابطين التى قدر للموحدين القضاء عليها فى عنفوان قوتها وهى تخدم قضايا الإسلام فى الأندلس وتصون دياره من النصارى .

الباب الثاني عشر

عبد المؤمن بن على والكيان السياسى للموحدين

بعد موت محمد بن تومرت مؤسس كيان الموحدين الدينى والقبلى والسياسى فان القيادة انتقلت إلى عبد المؤمن بن على صديقه وتلميذه الأول وعمل هذا على البقاء على جميع التنظيمات التى أقامها المهدى فقد وضعها معه ، كما أنها وافقت على تنصيبه قائد دينيا وسياسيا وروحيا للموحدين . وقد ساعدت التكوينات السياسية أو التنظيمية التى أقامها ابن تومرت على بناء قوة سياسية تتركز فى يد المهدى ومن يرشحه للخلافة من بعده فالقول بالتوحيد والمهدية وعصمة الإمام وغيرها من الأمور التى رفع الموحدين شعارها واتهام المرابطين بالبعد عن الدين الإسلامى والمروق وشرعية قتالهم لم تكن إلا هدفا للبناء السياسى لقبيلة المصامدة .

وعبد المؤمن خليفة المهدى والذى حمل هذا اللقب من قبيلة زناتة بل إن قبيلته فرع من زناتة هى قبيلة كومية التى ليست من قبائل المصامدة الكبرى وهى من الفروع التى كانت تسكن غرب تلمسان وبدأت صداقته مع ابن تومرت إثر عودة الأخير من رحلته إلى بلاد المشرق حيث لقيه إثر عودته فى طريقه إلى المغرب وكان أن اتصل ابن تومرت بالثعالبة عرب الجزائر الذين كانوا أولى قبائل العربية التى ناصرت الدعوة الموحدية وأهدت له حمارا فارها كان يركبه حيث أنه كان يسعى على قدميه وقد أهداه المهدى بدوره لعبد المؤمن موضحا لمريديه أن عبد المؤمن هو الذى ستقوم الدولة وتتسع على يديه وقد ربطتهما صداقة حميمة حيث رأى ابن تومرت فيه خليفته فعمل على دفعه لمكان القيادة .

وقد عمل صاحب الدعوة على أن يكون عبد المؤمن صورة حقيقية له لأن عبد المؤمن لم يكن صاحب كفاءة قيادية أو دينية ولم يكن يملك من المواهب التى تؤهله

لكى ينشئ دولة ، ولكن ابن تومرت أعده الإعداد اللازم للقيادة والزعامة والرياسة وعلمه فأحسن تعليمه ودربه أحسن تدريب وأمر أتباعه بإطاعة عبد المؤمن فى كل مايقوله وأن يقتدوا به فى كل ما يفعله وقد كان عند الأخير استعداد لكى يتقن كل مايقال له من تعليم وتدريب فعرف كيف ينهض بالخلافة وينظم الدولة ويسير بها إلى الطريق الذى رسمه لها ابن تومرت وأن يخطو بها خطوات ناجحة لكى تتبوأ القيادة والزعامة السياسية فى عالم المغرب العربى والأندلس .

وقد احتاج عبد المؤمن بن على إلى فترة زمنية طويلة لكى يثبت دعائم الكيان السياسى لدولة الموحدين فإذا كان ابن تومرت كما سبق القول قد مات عام ٥٢٤ هـ وأعلنت وفاته رسميا على أتباعه عام ٥٢٧ هـ فانه خلال هذه السنوات لم يقم بأدنى عمل عسكرى أو عمل يذكر له سوى تنظيم البيت الموحدى من الداخل استعدادا للتصادم مع المرابطين ولم تمض على وفاة ابن تومرت عشرة سنوات إلا وكان عبد المؤمن قد بدأ التصادم الفعلى القوى مع المرابطين حيث اشترك عام ٥٣٣ هـ / ١١٣٩ م فى معركة حاسمة مع تاشفين بن على بن يوسف وقد شغل طوال هذه الأعوام بالاستيلاء على حصون مرابطية صغيرة تقع فى الطريق إلى مراكش عاصمة المرابطين وبدأ يهاجمهم وإن كان لاينزل إلى سهولهم ولكنه يتحرش بهم للقدوم إليه فى معاقله الجبلية وكانت وسيلة ذلك الغارات الصغيرة الموفقة التى تدفع بأعدائه إلى تعقب المغيرين للانتقام منهم حيث يقطنون القمم الجبلية .

وقد أبدى المرابطين بسالة كبيرة فى الدفاع عن الأراضى التى تقع فى قبضتهم مما اضطرهم إلى توجيه كل قواهم إلى صراع الموحدين فى المغرب دفاعا عن كيانهم وبهذا حرم الاندلس من جهودهم الإسلامية المجاهدة ولكنهم رغم الظروف الصعبة التى أحاطت بهم فإنهم نجحوا فى الوقوف بحزم وقوة أمام الزحف المكثف لقبائل المصامدة التى كانت قواتها تزيد عن سبعين ألف رجل . وكانت خطة عبد المؤمن تعتمد على

عدم الدخول فى قتال مباشر مع المرابطين فى مراكز سلطانهم فى سهل مراكش وما يليه شمالا فاتخذ تخطيطا حربيا يساعده على تحقيق الانتصار بأقل أعداد بعد أن كاد أن يقتل فى معركة البحيرة عام ٥٢٤ هـ وهو الآن يقاتل نفس العدو بعد مضى عشرة سنوات ولابد أنه استفاد من التجارب السابقة فنجد أنه يسير جيوشه شرقى جبال درن ويخترق ممر تازا ويصعد شمالا إلى تلمسان وقد تمكن بذلك من بسط سلطانه على مساحة واسعة فى المغرب الأوسط وفى عام ٥٣٧ هـ / ١١٤٢ م مات على بن يوسف بن تاشفين وخلفه ابنه تاشفين بن على وكان شابا صغيرا قليل الخبرة ولكنه كان شديد الحماس للدفاع عن دولته التى أقامها أسلافه .

لكن نفوذ الموحدين انتشر على الجزء الجنوبى الغربى من مراكش وأخذ يزحف نحو الريف فى الشمال وكان ذلك أيام تاشفين بن على الذى جمع المرابطين لمعاونته بعد أن ناصرته بعضا من القبائل من زناتة بل ناصره أيضا بعض آل حماد ولكن عبد المؤمن انتصر عليهم فى عام ٥٣٨ هـ / ١١٤٣ م وذلك قرب تلمسان .

ولقد كان موت تاشفين بن على على أيدى الموحدين قد وضع نهاية لدولة المرابطين وذلك عندما حاول السلطان المرابطى تاشفين بن على بن يوسف بن تاشفين ان يستعين بالأسطول المرابطى للفرار إلى الاندلس فرحل إلى وهران بالجزائر وأقام هناك ينتظر قائد أسطوله أبا الحسن على بن عيسى بن ميمون الذى وصل إليه فى عشر سفن حربية فأرسى قريبا من معسكره غير أن الموحدين بقيادة عبد المؤمن بن على أحاطوا بالمدينة من كل جانب ولجأ تاشفين إلى ربوة هناك مشرفة على البحر حتى إذا غشى الليل خرج تاشفين من الحصن راكبا فرسه فتردى من بعض حافات الجبل فمات فى ١٧ رمضان عام ٣٩ هـ / فبراير ٢١٤٥ م . وقد مات هذا الشاب صريعا وهو يحارب الموحدين ويدفعهم عن وهران وبموته سقطت وهران وتلمسان وأخذ كيان دولة المرابطين يتداعى تحت ضربات عبد المؤمن وقواته . وعثر الموحدون على جثة تاشفين فقطعوا

رأسه وبعثوا بها إلى قرية « تبنمال » موطن الدعوة الموحدية فبعث فى أهلها الحماس وكان ذلك إيذانا بمولد دولة الموحدين وبموت تاشفين خلفه ابنه ابراهيم بن تاشفين وقد قتل هذا عام ٥٤٠ هـ وهو يقاتل الموحدين فآلت زعامة المرابطين إلى عمه اسحاق بن على بن يوسف وفى عهده تحول عبد المؤمن إلى فاس وحاصرها تسعة أشهر وكان حصارا شديدا أو حربا طويلة دافع فيها المرابطون عن فاس دفاعا شديدا وباسلا لكن فى شهر محرم ٥٤١ هـ / يونيو ١١٤٦ م دخل عبد المؤمن مراكش وقتل اسحاق بن على بن يوسف وجماعة كبيرة من زعماء المرابطين وقتل من أهلها أعداداً كبيرة وبانتهاء دولة المرابطين بعد دخولهم مراكش أصبح الموحدون سادة المغرب الأقصى وجزء كبير من المغرب الأوسط .

وبذلك تنتهى هذه الدولة المجاهدة حيث كان المرابطون قوما مجاهدين عرفوا جيدا المعانى النبيلة لمعنى الرباط والمرابطة فى سبيل الجهاد لله . وكان التفافها حول ذلك مما جعل لها اسما علما لهم ، كما صارت كلمة مرابط وسام شرف عسكرياً يمنحه كل سلطان مرابطى لأتباعه المجاهدين الذين جاهوا فى سبيل الله حق الجهاد لكن جاءت العصبية المصمودية بقيادة محمد بن تومرت لتقضى على دولة فتية لم يمهل لها الزمن لكى يحصد العالم الإسلامى ثمار جهدها الحربى فى المغرب والأندلس .

وبعد أن سقطت مراكش فى أيدى الموحدين وجعل سلطانهم إلى ساحل البحر المتوسط وشمل المغرب الأقصى كله من البحر المتوسط إلى وادى درعة إذ إن المدن والقبائل فى المغرب كله حتى طنجة وسبتة فى الشمال سارعت إلى الدخول فى طاعة الدولة الجديدة وكان لما قامت الدولة الموحدية أن سيطرت قبائلهم على ما فى قبضة المرابطين من سهول ، بيد أن نزعة المصامدة إلى الاستقرار دفعت جموعهم إلى استيطان المدن وكانوا عندما يفتحون بلدا يأمرون بعض الموحدين بعمارته والاستقرار فى قراه ويبدو أن سياسة عبد المؤمن ومن خلفه من الموحدين اتجهت إلى توطين قبائل

الموحدين البادية فقد تم استدعاء بعض القبائل للسكنى فى مراكش ووسع المدينة لاستيعابهم كما أن بعضا منهم سكن فاس .

وكان لهذه السياسة الموحدية وتلك النزعة الاستقرارية أثر كبير فى غلبة العناصر البربرية فى مدن البلاد الغربية وبعض البلاد الشرقية وتوضح هذه الهجرة المصمودية من الريف إلى المدن النهج الذى سلكه الموحدون فى تعيين أئمة الحواضر الكبرى كفاس وخطبائها . وبفضل العدد الكبير الذى نقل إلى تونس استطاع حفصيو تونس تأسيس دولتهم التى تعتبر امتدادا للدولة الموحدية .

وقد سار الموحدين فى سياسة التوطن هذه التى ظهرت بدايتها مع المرابطين خطوات واسعة فلا عجب أن زادت نسبة البربر فى مدن البلاد الغربية وخير مثل على ذلك مدينة فاس ولكن ليس معنى هذا خلو أرياف البلاد العربية من المصامدة .

عبد المؤمن بن على بين أعوام
٥٤١ - ٥٥٨ هـ - ١١٤٦ - ١١٦٣ م

فى عام ٥٤١ هـ صار عبد المؤمن خليفة مراكش والمغرب وبعد بضعة شهور صار مسيطرا على الأندلس أيضا لانه حل محل المرابطين فى هذه الأقطار بصورة سريعة . وكان نفرا من رؤساء الأندلس الإسلامى قد انتهزوا فرصة انشغال المرابطين بحرب الموحدين فى المغرب وسحبهم لمعظم قواتهم الحربية فثاروا عليهم وطرد الولاه الذين يحكمون من قبلهم وأعلنوا أنفسهم حكاما مستقلين فى بلادهم . وعاد الاندلس مرة أخرى موزعا بين أمراء محليين ولذا يطلق على الفترة من عام ٥٣٩ - ٥٥٢ هـ وهى فترة الصراع بين المرابطين بالموحدين بفترة ملوك الطوائف الثانية فى الأندلس .

وكان عام ٥٢٢ هـ هو بداية توحيد الاندلس مرة أخرى تحت قيادة موحدية

واحدة إذ استطاع الموحدون استعادة المرية من أيدى النصارى بعد سقوطها أثناء الصراع بينهم وبين المرابطين وبعودة المرية إلى السيادة الإسلامية توحد الأندلس تحت قيادة الموحدين وكان ملوك الطوائف قد بدأوا يتطلعون إلى الموحدين بعد سقوط المرية فانضم إليهم على بن عيسى بن ميمون قائد أسطول المرابطين فمكن ذلك الموحدين من أن يصبحوا أصحاب قوة بحرية وبرية عظيمة وقد قام عبد المؤمن بمحاصرة أشبيلية برا وبحرا حتى فتحها عام ٥٤٧ هـ ثم سار إلى المرية وقرطبة فكان ان استسلم أغلب ملوك الطوائف بعد أن دخل بعض منهم فى طاعة الموحدين دون حرب ولكن بعضا منهم دخل فى حرب معهم من أجل التسليم ولقد وجه الموحدون اهتمامهم بغرب الأندلس منذ عام ٥٤١هـ/١١٤٦م وكان غرب الأندلس محط اهتمامهم طوال الحكم الموحدى للبلاد فقد كانت أشبيلية هى عاصمتهم فى الأندلس وفى تلك المناطق خاضوا معاركهم الكبرى ولقد كان عليهم الاهتمام بشرق ووسط الأندلس لكن لم تكن الأوضاع السياسية تساعدهم على ذلك ، لكن غرب الأندلس شهد معاركهم الباهرة وثبت جبهة الإسلام قوية فى تلك الأماكن . وتذكر بعض المصادر أن عبد المؤمن لم يلق صعوبة فى ضم الأجزاء الغربية والوسطى من الأندلس إذ كان من الطبيعى لهذه القوة الموحدية الفتية أن ترنو بأبصارها شمالا عبر المضيق نحو الأندلس وشرقا عبر المغرب العربى الكبير كى يتم لها توحيد المغرب الإسلامى وتكتيله ضد القوى الصليبية فى البر والبحر . وقد سارع امراء مناطق غرب ووسط البلاد بإعلان ولائهم وانضمامهم إلى الموحدين .

وكانت ولاية (جريز أو شريش) فى طليعة هذه الولايات (٥٣٩ هـ/ ١١٤٤م) ولذا سمى أهلها بالسابقين الأولين ، كذلك انضم عام ٥٤٠ هـ/ ١١٤٥م أمير البحر على بن عيسى بن ميمون قائد أسطول المرابطين الذى كان قد استقل بمدينة قادس عقب سقوط دولتهم كذلك انضمت أشبيلية إلى الموحدين وسافر وفد من أعيانها

برئاسة القاضى أبى بكر بن العربى المعافرى إلى العاصمة مراكش لمبايعة الخليفة عبد المؤمن بن على .

أما الأقليم الشرقى للأندلس فقد عارض أمراؤه فكرة الوحدة مع المغرب وأعلنوا استقلالهم بإماراتهم ومثال ذلك مدينة المرية التى استقل بها أهلها من رجال الأسطول وغزاة البحر وكونوا فيها إمارة بحرية مستقلة وصاروا يغيرون منها بأساطيلهم على شواطئ إسبانيا المسيحية وفرنسا وإيطاليا . ولقد تكالبت على هذه الإمارة البحرية أساطيل برشلونة ومونبليه وجنوا وبيزا بالإضافة إلى جيوش قشتالة وقطلونيا ونفارا وجليقة واشتوريش ، التى حاصرت المرية من البر والبحر مدة ثلاثة أشهر ثم احتلها عنوة عام ٥٤٢ هـ / ١١٤٧ م وسلمتها لملك قشتالة وليون ألفونسو السابع الملقب بالسليطن وكان ذلك أسوأ ما نجم من أعمال امراء الطوائف فترة الانتقال من المرابطين إلى الموحدين هو سقوط المرية فى يد ألفونسو السابع ابن ريمودنا الملقب بالسليطن . غير أن هذا الاحتلال الصليبى لم يدم أكثر من عشر سنوات إذ تمكنت جيوش الموحدين من استعادة المرية عام ٥٥٢ هـ بعد أن صمد الموحدون لاسترجاعها .

وقد حاول ألفونسو السابع الدفاع عنها قدر ما استطاع وكان يعاونه فى حرب الموحدين زعيم الأندلس وهو « محمد بن سعد مرادينش » وكانت قوات الموحدين بقيادة ابن الخليفة عبد المؤمن وهو « أبو سعيد عثمان بن عبد المؤمن » الذى كان حاكم أشبيلية مما جعل ابن مرادينش يساعد قوات الموحدين عندما شاهد بسالتهم فى الدفاع عن المرية وعندما تحقق النصر وكانت استعادة المرية بداية توحيد بقية الأندلس الإسلامى تحت سلطانهم فجعل عبد المؤمن ابنه أبا سعيد بن عثمان واليا على الأندلس جميعه وفى عام ٥٥٥هـ/١١٦٠م أمر عبد المؤمن ببناء حصن ومدينة على سفح جبل طارق سمى حصن الفتح . وقد عبر عبد المؤمن بن على إلى الأندلس وكان له فى جبل الفتح استقبال مشهور وتمت له السيطرة على الاندلس عام ٥٥٦هـ/ ١١٦١م.

وعاد عبد المؤمن إلى افريقيا (المغرب) ليقضى على الشبح الأخير لدولة المرابطين فاتجه إلى تلمسان ووهران واستولى عليها ، ثم استدار ليحطم الحماديين ولكنه لم ينجح فى ذلك إلا بعد استعداد دام سبع سنوات وكان الحماديون قد أصبحوا على درجة من الضعف بعد أن كان عبد المؤمن يشعر أن الخطر يأتى من الشرق فقد كانت هناك ممالك صنهاجة التى تعادى ذلك التحالف بين زناتة ومصمودة بالإضافة إلى عمليات التخريب التى يقوم بها البدو وفى عام ١١٥٩ م دخل عبد المؤمن تونس لينضم بذلك المغرب كله تحت لواء حكومة بربرية واحدة وأصبح الآن المغرب قوة عظيمة للعالم الإسلامى وعالم البحر المتوسط بعد أن احتل الموانئ الواقعة فيما بين طرابلس وتونس حتى يطمئن السيطرة على تجارة البحر المتوسط وكان الموقف مهيئاً للتدخل من قبل الموحدين فلم يتوان عبد المؤمن على أن يقضى أولا على المملكة الحمادية . وكان الدافع إلى التحرك للاستيلاء على هذه المناطق من المغرب وقد شغلته عقب دخول مراكش فقد ترامى إلى سمعه أن النورمان قد استولوا على المهدية من أيدى امراء بنى زيرى . فسار عبد المؤمن بن على بجيش موحدى ضخم استولى على تلمسان وبقية المغرب والأوسط ثم دخل افريقية والقيروان ثم قصد إلى المهدية واسترجعها من أيديهم عام ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م . وهى سنة توحيد المغرب كله من المحيط الأطلسى إلى فقصة تحت لواء واحد ولم تلبث طرابلس أن دخلت فى طاعتهم ومعنى ذلك أن الخلافة الموحدية شملت المغرب العربى كله فجمع بذلك المغرب والأندلس تحت لواء الموحدين .

وقد ساعدته الظروف السياسية السائدة فى تلك البلاد على أن يتشجع إلى ضمها ذلك لان الصراع الناشئ بين القبائل العربية التى هاجرت إلى افريقية والدولة الزيرية بشعبيتها فى القيروان والقلعة إلى انحلال الدولة حتى غدت السلطة الزيرية اسمية فتمكن النورمانديون من الاستيلاء على بعض ثغور افريقية مثل صفاقس وسوسة والمهدية واستقل شيوخ العرب كل بناحيتهم . وكان أن شهد عام ٥٤١ هـ / ١١٤٦

م تحرك الجيوش الموحدية إلى المغرب الأوسط بقيادة عبد المؤمن بن على واستولت قواته على بجاية ثم تقدمت قوات الموحدين بقيادة عبد الله بن عبد المؤمن والتى كانت أعدادها تزيد عن ثلاثين ألف فارس واستطاع الاستيلاء على تلك المناطق . لكن الهلاليين أنصار المرابطين قاوموا قواته وعند نهر ستيف دارت الموقعة وانتصر الموحدون على الهلاليين . أما فى الشرق فلم تكن هزيمة نهر ستيف لتضع حد الغارات الهلالية وإن كان الخليفة قد قنع بتنصيب وال على باجية ، فإن زناتة التى كانت تقطن المغرب الأوسط ظلت تحاول أن تقتطع طرابلس وتونس ، أما طرابلس فقد سكنها الهلاليون واختلطوا بالأهالى وأصبح أثرهم ظاهرا فى هذا الجزء من العالم الإسلامى .

ولما عاد عبد المؤمن بن على إلى افريقية فى عام ٥٥٣ هـ / ١١٥٨ م بجيوش من الموحدين وقبائل العرب لمحاربة بطون رياح والذين سبق لهم ايقاع الهزيمة بجيوش الموحدين بقيادة عبد الله بن عبد المؤمن حول تونس وتمكن عبد المؤمن بسهولة من دخول المدينة ثم حاصر المهدية واستولى عليها وافتتح جميع بلاد افريقية وأدخل فى طاعته أهالى المنطقة الممتدة من برقة شرقا إلى بلاد نول من السوس الأقصى غربا وأحضر أمراء العرب وأحلفهم على مصحف عثمان بن عفان على السمع والطاعة والاشتراك فى الجيوش الموحدية للجهاد فى الاندلس ومما يذكر للقبائل العربية بالفخر انهم لم يقاوموا جيوش عبد المؤمن المتقدمة شرقا بل ساعدتهم وكان وصوله إلى تونس معلنا نهاية الفوضى إذ أعطى الحماية لجميع السكان ولم تحل عام ٥٥٥ هـ/ ١١٦٠ م حتى كان عبد المؤمن قد مد رواق الدولة الموحدية إلى حدود طرابلس ومكن لسلطان الموحدين بها وقد تم له ذلك فى نفس السنة وبذلك تكون هذه السنة تاريخا فاصلا فى تاريخ المغرب كله فهى السنة التى تحققت فيها وحدة المغرب السياسية ودخل كله من حدود طرابلس إلى المحيط فى دولة واحدة يحكمها خليفة واحد فى مراكش . وفى ذلك الحين كانت تلك الخلافة الموحدية المغربية أقوى الدول الإسلامية وأوسعها سلطانا ، فان الدولة العباسية كانت قد هبطت إلى درك سحيق من الضعف .

وبعد أن توطدت دولة الموحدين فى المغرب فان امراء الاندلس استنجدوا به مرة ثانية بعد أن هاجم ابن مردانش وهو أسبانى من أصل مسيحى فصمم على الذهاب إلى هناك ولكن قبل أن يرحل استوثق من الهلاليين بأن يبذل لهم الوعود والهدايا وكانت أواخر أيام عبد المؤمن قد شهدت أمر ثائر يسمى ابراهيم بن همشك وعاونه فى ذلك جده محمد بن سعد بن مرادنيش ونفر من رؤساء الجند فى الأندلس واستطاع عبد المؤمن أن يقضى على حركات التمرد ويثبت أقدام دولته هناك وانتصر على الثورة ودفع ابن مردانش إلى الشرق وأخذ منه غرناطة واسترد حصن رياح القدح الذى كان قد أقامه عام ١١٥٠ وأسكن فيه بعض فرقه المحاربة بعد أن أوصى ابنه بنقل عرب تونس إلى المغرب كي يخلق قوة احتياطية تستطيع أن تنتقل بسرعة إلى الاندلس ليعملوا ضد ابن مردانش حيث كان عبد المؤمن قد قرر ترحيل ألف من كل قبيلة من قبائل العرب بعيالهم إلى المغرب من عرب رياح وبنى عدى وبنى جشم وكانوا من الكثرة هادفا أبعادهم عن تونس واستقرارهم بغرب عاصمته مستقلا شجاعتهم وحبهم للجهاد فى الاندلس ويبدو أن عبد المؤمن تمكن من كسر شوكة القبائل العربية فى تونس وأن نصره عليهم كان ساحقا .

وكان عبد المؤمن قد عاد إلى المغرب وعندما وصل إلى سلا نزل به المرض ولم تزل العلة تثقل به حتى قضى نحبه فى ٢٧ جمادى الآخرة عام ٥٥٨ هـ / يونيو ١١٦٣ م وبينما كان عبد المؤمن مقيما فى مدينة سلا والجيوش تحتشد والأساطيل تستعد لنقلها إلى الاندلس فاجأه الموت بعد فترة مرض قصيرة فلم يمهله حتى يحقق عزمه ونقل جثمانه إلى مدينة تيتملل بجبال أطلس حيث دفن بجوار أستاذه ابن تومرت عام ٥٥٨ هـ / ١١٦٣ م .

حكم عبد المؤمن بن على أربع وثلاثين عاما تعتبر فاتحة عصر الازدهار فى التاريخ المغربى ، لقد ورث عبد المؤمن عن محمد بن تومرت قوة عسكرية وسياسية

ضخمة فعرف كيف يستخدمها فى انشاء أكبر دولة عرفها تاريخ المغرب فى العصور الوسطى فقد امتدت من خط الواديانة فى الأندلس إلى وادى درعة فى جنوب المغرب وترامت من المحيط إلى أحواز طرابلس وقد أبدى الرجل نشاطا واسعا وذكاءٍ كبيراً فى نشأة هذه الدولة حقا أن الرجال الذين تولوا قيادتهم كانوا من خيرة شعوب العالم الإسلامى وأقواها وأشدها إصلاحا للدين فى ذلك الوقت وقد تيسر ذلك لعبد المؤمن بمواهبه التى عرف بها أن يستفيد من مواهب زملائه من كبار أصحاب محمد بن تومرت وكانوا جميعا رجالا ذوى ملكات وإخلاص وقد اعتمد عليهم وعلى أبنائهم والذين يرجع إليهم الفضل فيما وصلت إليه دولة الموحدين من قوة واتساع .

وهكذا كانت السنوات هذه التى قضاها عبد المؤمن فى توحيد دعائم الدولة الموحدية التى امتدت هذا الامتداد الواسع العريض السابق الإشارة إليه والتى ضمت إليها مساحة واسعة من الأراضى والأقاليم لم يقدر لدولة مغربية سبقتها أن بلغت مثل هذا الاتساع والمساحة والقوة ومن هنا وضع عبد المؤمن قواعد وأركان دولة قوية بعد أن كان محمد بن تومرت قد مهد الطريق لقيام هذه الدولة وبذلك يكون عبد المؤمن بن على الذى حكم أربعة وثلاثين عاما العمود الفقرى الذى قامت عليه الدولة ولولا الجهود الجبارة التى قام بها ما كانت قد ظهرت على سطح الأحداث السياسية فى المغرب دولة الموحدين ولما قدر لها أن تقضى على دولة المرابطين .

الموحدون بعد عبد المؤمن بن على
أبناء وأحفاد عبد المؤمن
أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن
(٥٥٨ - ٥٨٠ هـ / ١١٦٣ - ١١٨٤ م)

قبل أن يموت عبد المؤمن كان قد جمع مشيخة الموحدين وهى التى تمثل هيئة قيادتهم وقد تألفت هذه المشيخة من أهل عشرة أدايت عشرة وهيئة الخمسين (ايت خمسين) وكانت مشيخة الموحدين عصب قوة الدولة والذين كانوا يسيطرون على قبائلهم ومعهم طائفة العلماء والذين كان منهم أبو حفص وأبو يحيى أبى بكر ، وأبو ابراهيم اسماعيل الهزرجى ، وعمر ابن عبد الله المعروف بعجراز تاج وغيرهم وأخذ منهم البيعة لابنه أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن . ولم يكن يوسف هذا بأكبر أبناء عبد المؤمن ولكنه كان أصلحهم وذلك بإجماع رجال مشيخة الموحدين ولذا اعتلى أبو يعقوب عرش الموحدين دون صعوبة وكان ذلك فى عام ٥٥٨ هـ / ١١٦٣ م وبذلك كان رئيسا لدولة تمتد من حدود مصر الغربية حتى المحيط الأطلسى بل تمتد أيضا إلى الاندلس فتضم كل الأراضى التى لم تستطع أيدى الإسبانيين السيطرة عليها .

وكان أبو يعقوب يوسف عندما تم اختياره من قبل مشيخة الموحدين لم يصل إلى ثلاثين عاما من العمر لكنه خلال هذه السنوات كان قد تمرس على العديد من الأعمال والمهام التى تؤهله لقيادة دولة بهذا الاتساع حيث كان قد قضى سنوات طويلة فى الاندلس حاكما لأشبيلية من قبل والده فتدرب على قيادة الأمور بالإضافة إلى علمه الغزير وثقافته الإسلامية الواسعة وعمق فى الإيمان وقدرات عسكرية لكنه لم يكن يملك من المؤهلات السياسية ما تمكنه من قيادة دولة واسعة كدولة الموحدين وكان قد تأثر برقة الحياة فى الاندلس وحضارتها ومعيشتها بعد أن درس على كثير من

علماء الأندلس فى اللغة والنحو والقرآن الكريم والأحاديث النبوية والفلسفة فزالت عنه جفوة البربر وكان أعرف الناس بكلام العرب وأحفظهم لأيامها فى الجاهلية والإسلام وعدد من أبطال الفرسان مما ساعد على مبايعة أهل المشيخة وأخوته له وكذلك رؤساء القبائل العربية .

ولقد حرص الخليفة الجديد على الاستمرار فى سياسة والده التى ترمى إلى اصطناع العرب والاستعانة بهم في حروبه بالاندلس . كما أنه بذل أقصى جهده فى القيام بأمرها وسايس الأمور فى حزم واجتهاد وقوة فوفق فى المحافظة على الميراث الضخم الذى آل إليه في دولة واسعة كدولة الموحدين تتكون من أقاليم واسعة لم يسبق دخولها تحت لواء دولة من قبل مثل الاندلس أو المغرب الأقصى أو المغرب الأوسط أو افريقية (تونس) .

ولقد واجه أبى يعقوب يوسف العديد من الثورات والمشاكل حيث لم تخلو سنة من سنوات حكمه من قيام ثائر فى ناحية من نواحى الدولة وكان عليه ألا يتأخر فى الإسراع للقضاء على الفتنة أو الثورة والمحافظة على النظام والعدل والأمان فى ربوع الدولة الواسعة .

وكانت أول القلاقل والثورات التى واجهته هو تعرض دولته لخطر خارجى قادم من الشرق من قبل مصر حيث وفد جماعة من الأيوبيين مع جندهم بقصد ضم تونس وبرقة وطرابلس للحكم الأيوبى بزعامة صلاح الدين الأيوبى ولقد كان دافع الأيوبيين إلى الاتجاه غربا نحو تونس وبرقة وطرابلس هو نجاح الغزو الأيوبى الذى قام به توران شاه بن أيوب شقيق صلاح الدين فى فتح اليمن ومحاولة تقى الدين بن شاهنشاه تقليده فى فتح المغرب ولكنه تراجع حينما أدرك أن الذى يحول بينه وبين تحقيق أمله المنشود عاملان الأول الموحدون الذين بسطوا سلطانهم على المغرب والأندلس والثانى القبائل العربية التى تبسط سيطرتها على هذه المناطق ولكن ثورة العرب الهلاليين

جعلت هذا الطرف الشرقى من الدولة مصدراً للقلاقل والاضطرابات وقد بذل يوسف جهدا كبيرا فى القضاء على الفتن التى قامت هناك لكن الحملة الأيوبية قد تركت صداها بين قوات الايوبيين والذين عرفوا خبر تقى الدين الأيوبى من الغاء هذه الحملة فقد تحرك نحو جبال نفوسة أبو عربى وهو من أصل أرمنى ويكنى قراقوش يريد السيطرة على تونس وضمها للديار المصرية ونزعها من أيدى الموحدين . وكان قراقوش الأرمنى قد تحرك معه (ابراهيم بن قرايكن) ومعهما جمع من الجنود إلى المغرب وانقسما إلى مجموعتين كل مجموعة مستقلة عن الأخرى بما تغزوه وتملكه . وتمكنت المجموعة الأولى بقيادة قراقوش الأرمنى من الاستيلاء على دولة بنى خطاب الهواريين فى بلاد فزان وعاصمتها زويلة والتحالف مع عرب دياب وفتح جبل نفوسة وجعل هذه المناطق تخرج عن طاعة دولة الموحدين وتمكنوا من الاستيلاء على طرابلس وأقام دولة تخرج عن نطاق حكم الموحدين ولا تخضع للحكم المصرى الأيوبى فى القاهرة ، أما المجموعة الثانية بقيادة ابراهيم بن قرايكن فقد دخلت فى طاعة الجيش الموحدى .

وقامت كذلك فتن كثيرة فى الاندلس أثارها محمد بن سعد بن مرادنيش كبير ثوار شرق الأندلس وقد تولى قتاله أخوه أبو يعقوب أبو سعيد وأبو جعفر من أبناء عبد المؤمن وقد تمكنا من ايقاف خطر ابن مرادنيش عام ٥٦١ هـ / ١١٦٦ م أى بعد ثلاث سنوات من وفاة عبد المؤمن وولاية ابنه أبى يعقوب يوسف لكن أبى يعقوب أحس أن الخطر الحقيقى فى الاندلس لابد من القضاء عليه ووقف تقدم القوى المعادية للإسلام لاسيما إمارة ليون وقشتالة وكذلك إمارة البرتغال التى كانت تتحرك لتصبح قوة فى غرب الاندلس وكانت تخضع لحكم (ألفونسو ايزوكى) وتطلق عليه المصادر العربية « ابن الرنق » .

وقد سار أبو يعقوب على سياسة عدم مواجهة القوى المعادية مجتمعة لكنه عمل على سياسة فرق تسد حين كان يتحالف مع الطرف القوى للقضاء على الطرف

الضعيف ثم الانقضاض عليه ولذا نجد أنه تحالف مع « فرناند الثانى » ملك ليون وقشتالة للقضاء على ثورة ابن مرادنيش صاحب مرسية فى شرق الاندلس واستطاع القضاء عليه بعد حرب طويلة ومضنية .

لكن العلاقات الموحدية مع ليون وقشتالة بدأت تسوء بعد وفاة فرناندو الثانى وتولى ألفونسو الثامن عرش هذه البلاد وكان يخشى قوة وخطر المسلمين وكان أبو يعقوب يدرك خطر التحالف بين هذه الدولة وبين البرتغال فكان عليه أن يستعد لدرء خطر البرتغال والقيام بحملة إسلامية موحدية لضرب الاندلس لوقف الزحف الصليبى والقضاء على خطر البرتغال وكان لابد من المواجهة العسكرية الحاسمة والاشتباك معهم فتوجه نحو شنترين أكبر قواعد البرتغال فى غرب الاندلس وكان البرتغاليون قد استولوا عليها عام ٥٤١ هـ / ١١٤٦ م عام سقوط دولة المرابطين وأدرك حاكم البرتغال خطر المسلمين عليه فحصنها وزودها بالرجال والعتاد لكن الموحدين على كثرة جيوشهم كانت مواهبهم محدودة فى ميدان القتال العسكرى عكس المرابطين الذين كان بينهم قواد عظماء وكان الاستيلاء على مدينة شنترين معناه السيطرة على وادى التاجور فى غرب الأندلس ولكن الخليفة الموحدى أخطأ فى تقسيم قواته إذ أرسل ابنه اسحاق لغزو مدينة اشبونة وشن الغارات على أنحائها ويتحرك إليها بقوات الاندلس فقط وأن يكون رحيله نهارا فسار إليهم ورحل ليلا ، فاتبعته القوات الموحدية ، حيث أصدر غير الخليفة أمرا برفع الحصار والانتقال إلى مدينة اشبونة وصدر هذا الأمر فجأة ودون ابلاغه إلى بقية الجنود بالطرق التى تقتضيها النظم العسكرية . وجاء صباح اليوم التالى وفوجئ الجنود برجال الخليفة يرحلون على عجل ليجد الخليفة نفسه وحيدا بدون جنده بعد أن فروا من حوله وظنوا أنها الهزيمة وتبادروا إلى الفرار وانتهز العدو الفرصة واستغل المسيحيون الفرصة وهاجموا بقية معسكر الخليفة الضخم ونزلت به خسائر فادحة وحمل الخليفة الجريح فى محفة وعاد الجيش أدراجه وبعد ليلتين من السير مات الخليفة أبو يعقوب يوسف فى ٧ رجب ٥٨٠ هـ / ١١٨٤ م وهكذا واتته منيته نتيجة

لهذه الاصابة القاتلة أثناء حروبه مع البرتغاليين فى غرب الاندلس .

وهكذا نرى أن الموحدين اعتمدوا على العرب اعتمادا كبيرا فى الجيوش المحررة للاندلس وأسندوا إليها حماية المدن الاندلسية من أعدائها حتى أن الدولة الموحدية نوهت بدورهم فى الجهاد فى الاندلس وحمايته بل أكثر من ذلك فانه فى عام ٥٦١هـ / ١١٧٧ م اختار الموحدون شيخا من شيوخ الموحدين ليكون واليا على أشبيلية فاصطحب هذا معه أعداداً كبيرة من العرب والموحدين لحمايتها وتمكن بمساعدتهم من هزيمة حكام شنترين وإجبارهم على رد ما سبق أن سلبوه من مدينة طليطلة وكذلك أسر بعض جنودهم .

كذلك فان الخليفة الموحدى الذى قتل فى غرب الاندلس (أبى يوسف ابن عبد المؤمن) تمكن من الاستفادة بالقبائل العربية الموجودة فى المغرب ضمن الجيش الموحدى فى الجهاد فى الاندلس والاستقرار فى أراضيها .

ولقد كانت وفاة أبى يعقوب يوسف من أثر اصابته فى حصار مدينة شنترين أنه كان غيورا على ديار الإسلام مجاهدا فى الاندلس وكانت الأنباء التى تواترت إليه أن الأحوال قد ساءت من جديد فى الاندلس إذ تمكن القشتاليون بمساعدة ألفونسو الثامن ملك أرغون الاستيلاء على « تونكة » ثم أخذت ضربات مسيحى الأندلس تتوالى على إمارات المسلمين فعزم أبو يعقوب على الجوار إلى الاندلس فأخذ فى استدعاء العرب من (تونس) افريقية فوفدت عليه القبائل فى جيش عظيم وبعد أن جهز الجيش بالمجانيق والسلاح والخيول والأموال اللازمة ميز أبو يعقوب الموحدين والعرب فى جمادى الآخرة عام ٥٧٩ هـ / ١١٨٤ م تمهيدا للغزو ومن ثم تتابعت الوفود العربية والذين أيدوا حملته هذه بثلاثين ألف من الفرسان والمشاه .

توفى أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن وهو فى سن السابعة والأربعين من عمره وكان رجلا شهما نشيطا بذل قصارى جهده فى فترة حكمه التى تقدر باثنين وعشرين

عاما هجريا وإحدى وعشرين عاما ميلادياً فى القيام بالمهام الملقاة على عاتقه باعتباره خليفة دولة الموحدين ومن ثم خطا خطوات واسعة بالدولة نحو التقدم والازدهار وكان له وزنه التاريخى والسياسى فى المغرب بل هو من السلاطين والخلفاء القلائل الذين لعبوا دورا هاما على مسرح الأحداث السياسية كما أنه قام بالعديد من الأعمال التى تذكر له بالفخار والإعجاب حيث أدخل العديد من النظم الإدارية والصناعية والزراعية والحربية والعسكرية .

بالإضافة إلى أنه كان رجلا بعيد النظر لانه رأى أن يركز حملاته على الجبهة الغربية البرتغالية لانها كانت أقرب وأشد الممالك الأوربية وطأة على المسلمين ثم لانها كانت معبرا إلى قلب مملكة قشتالة التى كان ملكها ألفونسو الثالث قد أخذ هو الآخر يغير على الأراضى الإسلامية المتأخمة له .

الباب الثالث عشر

الدولة الموحدية فى عصر ازدهارها

أبو يعقوب يوسف المنصور

(٥٨٠ – ٥٩٥ هـ / ١١٨٤ – ١١٩٩ م)

بعد وفاة أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن تم أخذ البيعة لابنه أبى يوسف يعقوب المنصور من شيوخ الموحدين ووفود كل بلد بحضور شيوخ العرب وموافقتهم وبعد أن تولى أبو يعقوب الحكم (٥٨٠ – ٥٩٥ هـ/ ١١٨٤– ١١٩٩م) كان أول من بايعه أعيان تلمسان ومن معهم من العرب بقصر مصمودة . ولقد سار على سياسة أبيه وجده فى ضرورة توحيد المغرب الكبير وتدعيم أركان الدولة وقضى على ثورات افريقية ونظم أمورها وتعتبر سنوات حكمه البالغة خمس عشر عاما العصر الذهبى للدولة الموحدية لانها وصلت إلى قمة تطورها السياسى لأنها تعتبر الدولة الكبرى فى العصور الوسطى .

ولقد أولى المشكلات التى واجهته مثل ثورة افريقية والقبائل العربية كل الاهتمام حيث استطاعت هذه القبائل بمساعدة بنى غانية والممالك هزيمة قوات الموحدين هزيمة قاسية كان لها صدى بعيد فى بلاد المغرب والاندلس لدرجة أن عم الخليفة والى تادلا وأخاه أبا حفص والى مرسية قاما بإسقاط دعوته ومناداة كل منهما بنفسه خليفة للموحدين فأمر الخليفة باعتقالهما وقتلهما ولم تمض ثلاث سنوات على توليه شئون الخلافة الموحدية إلا والخليفة المنصور أبى يعقوب يقوم بجمع قواته ويخرج بنفسه لملاقاة الخارجين على الدولة فتوجه من تونس إلى القيروان حيث التقى بالأعداء وأوقع بهم فى ٩ شعبان ٥٨٣ هـ / ١٨١٧ م هزيمة قاسية وهرب ابن غانية جريحا حتى مات . ثم استولى المنصور على قفصة وقابس ثم اتجه إلى بلاد الجريد متتبعا العرب وبنى غانى بلدا بعد بلد حتى ألجأهم إلى الصحراء .

ولقد كانت تحت أمرة الخليفة حشود من الجند القوى القادر على كسب المعارك فقد كانت جيوش الموحدين تعج بحشود من أبناء خيرة القبائل المغربية من المصامدة والصنهاجيين بل الزناتيين أيضا ثم أضيفت إلى هؤلاء حشود من العرب الهلاليين الذين انضموا تحت لواء الدولة الكبيرة وكذلك قوات أندلسية ذات قدرة ومهارة قتالية فائقة لان شعب الاندلس ظل قويا مؤمنا بحقه فى بلاده بالإضافة إلى أن الموحدين انشئوا قوة من الحرس للخليفة من السودان وكان هؤلاء السودان قوة عسكرية لها خطرها أثناء الحرب .

وقد حاربت دائما فى قوة وحماس وإخلاص ودافعت عن الخلفاء حتى الموت . ويذكر أن الخليفة أبا يعقوب يوسف المنصور من القواد العسكريين الموحدين القلائل الذين استطاعوا أن يقودوا هذه الجيوش قيادة سليمة حكيمة وكان الرجل رجلا حازما موهوبا فى شئون الإدارة والقيادة العسكرية وكان شديد الإيمان بغية الدفاع عن القضايا الإسلامية فى الاندلس والجهاد فى سبيل الله فانتقل هذا الإيمان إلى رجاله وقواده من الموحدين .

كما أن الخليفة المنصور قد قام بنقل العرب إلى المغرب الأقصى وهو يعرف أنهم أهل إفساد لكن صنيعه هذا قد أدى إلى استكمال عروبته وصبغه بالدماء العربية حيث سبق أن قامت الدولة الادريسية بإدخال الحضارة الإسلامية والدماء العربية إليه .

وقد استغرقت الحرب مع البرتغال فترة طويلة اضطرت الخليفة إلى أن يعمل على تحصين البلدان الغربية الاندلسية التى كانت عرضة لغارات هذا العدو برا وبحرا عن طريق الوادى الكبير واهتم الخليفة بصفة خاصة بمدينة أشبيلية حاضرة الموحدين المفضلة بالأندلس .

الصراع مع بنى غانية المرابطين :

لم تلبث أن قامت ثورة فى المغرب الأوسط ضد الخليفة أبى يعقوب يوسف المنصور قادما بعض أنصار المرابطين من بنى غانية وعلى رأسهم ابن غانية إذ أغراه ضعف حامية الموحدين هناك فقاد أربعة آلاف من الطوارق الملثمين واحتل مدينة باجية وكان من سوء حظ دولة الموحدين أن ابتليت بمشكلة بنى غانية التى لم تقدرها الدولة حق تقديرها وأصبحت فى النهاية من أسباب سقوط الدولة .

وكان زكريا بن يحيى بن غانية قد تولى بعض الأعمال فى قرطبة فى عهد الخليفة المرابطى على بن يوسف بن تاشفين ثم تولى أخاه محمد ابن غانية حكم جزر البليار وهى الجزر الشرقية منذ عام ٥٤١ هـ / ١١٤٦ م وظل يحكمها حتى سقطت دولة المرابطين وعندما بسط الموحدون سلطانهم على الاندلس ظل بنى غانية لايخضعون لسيطرتهم وظل عدم خضوعهم حتى موت محمد بن مرادنش عام ٥٦٧ هـ / ١١٧١م وبسط الموحدون سيطرتهم على بلنسية ومرسية وشاطبة وبلاد الساحل الشرقى وكان على حكم جزر البليار فى ذلك الوقت محمد بن اسحق بن محمد بن غانية وقد كان يريد الدخول فى طاعة الموحدين لكن اخوته عزلوه ورفضوا ذلك وولوا بدلا منه أخاه على بن اسحق فأسرع هذا بإعلان الثورة على الموحدين وقرر أن يخوض معهم معركة طويلة .

وبنو غانية كانوا فى الأصل من قبيلة مسوفة الصنهاجية ومن كبار قواد المرابطين فى الاندلس ويقال إنهم عرفوا بنى غانية على اسم أمهم الغانية وأمثال هذه التسميات كانت معروفة عند المرابطين . ولقد ظل بنو غانية شوكة فى جنب الدولة الموحدية مدة طويلة إلا أنهم كانوا فى نفس الوقت غزاة بحريين ضد القوى الصليبية فى حوض البحر المتوسط فكثيرا ما أغاروا بأساطيلهم على سواحل قطلونيا وجنوب فرنسا وهاجموا سفنهم فى البحر . وعلى الرغم من أنهم ساروا على سنة أسلافهم المرابطين فى الدعاء للخلفاء العباسيين فى بغداد واتخاذ ألويتهم السوداء شعارا لهم إلا أنهم هادنوا الموحدين

بعض الوقت حتى كانت ولاية على بن اسحق بن محمد بن غانية .

ولقد كانت وفاة الخليفة الموحدى أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن بهذه الصورة المفاجئة ضربة قاسية أصابت حركة الموحدين بنكسة قوية فى المغرب والأندلس إذ استغل أعداؤهم هذه الفرصة لتحقيق أطماعهم ومن ذلك بنو غانية هؤلاء حكام الجزر الشرقية (البليار) الذين خرجوا عن سياسة مهادنة الموحدين وأظهروا الغدر والعصيان وذلك باستيلائهم على أسطول موحدى كان فى زيارة الجزر الشرقية ثم خرجوا بأساطيلهم ورجالهم إلى الساحل الافريقى حيث استولوا على مدينة بجاية بالمغرب الأوسط عام ٥٨١ هـ / ١١٨٥ م ومن هناك أخذوا فى اثارة الفتن والاضطرابات ضد نفوذ الموحدين وتحالفوا مع قبائل العرب من بنى هلال وبنى سليم فى شرق المغرب وكذلك مع جنود الغزو المملوكى الأيوبى الذين قدموا من مصر واستقروا فى قابس بقيادة الأمير المملوكى قراقوش الأرمنى واستطاعت هذه القوى المتحالفة بزعامة بنى غانية أن تسيطر على بلدان المغرب الأدنى والأوسط وأن تدعو على منابرها لبنى العباس أعداء الموحدين . والذى ساعد بنى غانية على الخروج على الموحدين انهم أسسوا لهم حكما قويا فى تلك الجزر إذ إنهم يحكمونها منذ عام ٥٢٠ هـ / ١١٢٦ م حيث تولى القائد المرابطى محمد بن على بن غانية المسوفى مؤسس أسرة غانية التى ظل فيها حكم هذه الجزر بعده حتى عام ٥٨١ هـ تاريخ قيامهم بالثورة ضد الموحدين .

وهكذا نجد أن سلطان الموحدين فى المغرب والأندلس قد أصيب بنكسة شديدة استمرت عدة سنوات بعد استشهاد عائلهم أبى يعقوب يوسف وفى خلال هذه الفترة كان الموحدون قد بايعوا بالخلافة لولده المجاهد الكبير أبى يوسف يعقوب المنصور وكان أول عمل اهتم به المنصور منذ توليه الحكم هو إعادة الوحدة المغربية والضرب على أيدى المعتدين فيها أمثال بنى غانية وحلفائهم العز (الاعزاز) والاعراب فى المغرب

لم تلبث أن قامت ثورة فى المغرب الأوسط ضد الخليفة أبى يعقوب يوسف المنصور قادما بعض أنصار المرابطين من بنى غانية وعلى رأسهم ابن غانية إذ أغراه ضعف حامية الموحدين هناك فقاد أربعة آلاف من الطوارق الملثمين واحتل مدينة باجية وكان من سوء حظ دولة الموحدين أن ابتليت بمشكلة بنى غانية التى لم تقدرها الدولة حق تقديرها وأصبحت فى النهاية من أسباب سقوط الدولة .

وكان زكريا بن يحيى بن غانية قد تولى بعض الأعمال فى قرطبة فى عهد الخليفة المرابطى على بن يوسف بن تاشفين ثم تولى أخاه محمد ابن غانية حكم جزر البليار وهى الجزر الشرقية منذ عام ٥٤١ هـ / ١١٤٦ م وظل يحكمها حتى سقطت دولة المرابطين وعندما بسط الموحدون سلطانهم على الاندلس ظل بنى غانية لايخضعون لسيطرتهم وظل عدم خضوعهم حتى موت محمد بن مرادنش عام ٥٦٧ هـ / ١١٧١م وبسط الموحدون سيطرتهم على بلنسية ومرسية وشاطبة وبلاد الساحل الشرقى وكان على حكم جزر البليار فى ذلك الوقت محمد بن اسحق بن محمد بن غانية وقد كان يريد الدخول فى طاعة الموحدين لكن اخوته عزلوه ورفضوا ذلك وولوا بدلا منه أخاه على بن اسحق فأسرع هذا بإعلان الثورة على الموحدين وقرر أن يخوض معهم معركة طويلة .

وبنو غانية كانوا فى الأصل من قبيلة مسوفة الصنهاجية ومن كبار قواد المرابطين فى الاندلس ويقال إنهم عرفوا بنى غانية على اسم أمهم الغانية وأمثال هذه التسميات كانت معروفة عند المرابطين . ولقد ظل بنو غانية شوكة فى جنب الدولة الموحدية مدة طويلة إلا أنهم كانوا فى نفس الوقت غزاة بحريين ضد القوى الصليبية فى حوض البحر المتوسط فكثيرا ما أغاروا بأساطيلهم على سواحل قطلونيا وجنوب فرنسا وهاجموا سفنهم فى البحر . وعلى الرغم من أنهم ساروا على سنة أسلافهم المرابطين فى الدعاء للخلفاء العباسيين فى بغداد واتخاذ ألويتهم السوداء شعارا لهم إلا أنهم هادنوا الموحدين

بعض الوقت حتى كانت ولاية على بن اسحق بن محمد بن غانية .

ولقد كانت وفاة الخليفة الموحدى أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن بهذه الصورة المفاجئة ضربة قاسية أصابت حركة الموحدين بنكسة قوية فى المغرب والأندلس إذ استغل أعداؤهم هذه الفرصة لتحقيق أطماعهم ومن ذلك بنو غانية هؤلاء حكام الجزر الشرقية (البليار) الذين خرجوا عن سياسة مهادنة الموحدين وأظهروا الغدر والعصيان وذلك باستيلائهم على أسطول موحدى كان فى زيارة الجزر الشرقية ثم خرجوا بأساطيلهم ورجالهم إلى الساحل الافريقى حيث استولوا على مدينة بجاية بالمغرب الأوسط عام ٥٨١ هـ / ١١٨٥ م ومن هناك أخذوا فى اثارة الفتن والاضطرابات ضد نفوذ الموحدين وتحالفوا مع قبائل العرب من بنى هلال وبنى سليم في شرق المغرب وكذلك مع جنود الغزو المملوكى الأيوبى الذين قدموا من مصر واستقروا فى قابس بقيادة الأمير المملوكى قراقوش الأرمنى واستطاعت هذه القوى المتحالفة بزعامة بني غانية أن تسيطر على بلدان المغرب الأدنى والأوسط وأن تدعو على منابرها لبنى العباس أعداء الموحدين . والذى ساعد بنى غانية على الخروج على الموحدين انهم أسسوا لهم حكما قويا فى تلك الجزر إذ إنهم يحكمونها منذ عام ٥٢٠ هـ / ١١٢٦ م حيث تولى القائد المرابطى محمد بن على بن غانية المسوفى مؤسس أسرة غانية التى ظل فيها حكم هذه الجزر بعده حتى عام ٥٨١ هـ تاريخ قيامهم بالثورة ضد الموحدين .

وهكذا نجد أن سلطان الموحدين فى المغرب والأندلس قد أصيب بنكسة شديدة استمرت عدة سنوات بعد استشهاد عائلهم أبي يعقوب يوسف وفى خلال هذه الفترة كان الموحدون قد بايعوا بالخلافة لولده المجاهد الكبير أبي يوسف يعقوب المنصور وكان أول عمل اهتم به المنصور منذ توليه الحكم هو إعادة الوحدة المغربية والضرب على أيدى المعتدين فيها أمثال بنى غانية وحلفائهم العز (الاعزاز) والاعراب فى المغرب

الشرقى فقام فى الحال بتعبئته قواته البرية والبحرية لغزو تلك الجهات وأسند قيادة القوات البرية إلى أبى زيد بن أبى حفص .

وكان المنصور قد قرر القضاء النهائى على بنى غانية لأن علياً بن أبى ابراهيم بن اسحق بن محمد خرج بأسطوله إلى العدوة المغربية وقصد مدينة بجاية حين راسله جماعة من أعيانها يدعونه إلى أن يملكوه ولولا ذلك لم يجسر على الخروج لانه أدرك أن الخلاف حول عرش الموحدين سوف ينشأ . ويبدو أن من راسله من أعيان المدينة كان من نسل بعض العائلات العربية التى استقرت بالمغرب وتنقلت من مدينة إلى أخرى وراء العلم والرزق وتتبع بنو غانية الموحدين الفارين والتقوا بهم فى معركة حاسمة وانسحب العرب من صفوف الموحدين لينضموا إلى بنى غانية فأنزلوا هزيمة ساحقة بالموحدين الذين فروا إلى تلمسان . ومن ذلك فقد تفوق بنو غانية بما غنموه من أموال وأسلحة واستولوا على الجزء الشرقى من المغرب الأوسط ابتداء من الجزائر حتى قسطنينة وقلعة بنو حماد وما جاورها من قلاع ثم تمكنوا بمحالفة عرب افريقية من الاستيلاء على مدنها بما فى ذلك قفصة وتوه بنو غانية بتحالفهم مع العرب حتى ادعوا أن المنطقة الممتدة من بلاد الحجاز إلى افريقية تموج بالقبائل العربية التى تؤيدهم وأن دولة المرابطين سوف تبعث من جديد معتمدة على العصبية العربية .

لكن سرعان ما حسم الموحدون خطر بنى غانية فى افريقية فكان رد الفعل سريعا وعنيفا إذ فى نفس العام مهد المنصور لحملة قوية بأن أرسل عيونه وأعوانه إلى تلك الجهات التى خضعت لحكم بنى غانية وفى ذلك يقول ابن عذارى المراكشى « وكان أبو يوسف المنصور قد اتبع أمراء الجيوش البرية والبحرية كتبا لأهل سائر البلاد المغلوب عليها بالأمن والأمان والصفح والإحسان ولما دنت الحملة من البلاد ، دسوا بالكتب جواسيس رحلوا بها ليلا إلى البلاد واجتمعوا بها مع من يوثق به للأمن ، وكان الخليفة المنصور الموحدى قد اهتم أشد الاهتمام ببنى غانية ومضوا يرسلون الحملات تلو

الحملات على افريقية فأنقذوا الألوف من خيرة رجالهم وأنفقوا الملايين فى هذه الحروب لان بنى غانية وأحلافهم من العرب جعلوا الصحراء ملجأهم فكلما ضيق الموحدون عليهم الخناق فروا إلى الصحراء ، ثم لايلبثون أن يعودوا من جديد واستمرت هذه المطاردات سنوات طويلة ، لكن الخليفة المنصور سحق ثورتهم وقبض على على وأخيه يحيى بن اسحق فى ناحية بلاد الجريد لاعترافه بالخلافة العباسية وخروجها بالثورة وقضى على هذا كله بعد أن حطم جيوش أعدائه بالقرب من قابس ونقل جانبا كبيرا من المرابطين إلى مراكش وكان ذلك عام ٥٨١ هـ . وتم القبض على يحيى صاحب الجزائر ثم على بدر بن عائشة صاحب مليانة ، لكن يحيى شقيق على بن اسحق بن غانية فر من الأسر وتابع ثورة أخيه يعاونه بنو سليم والتركمان واستولى على المهدية وحصن قابس بعد أن استردها واتخذها عاصمة واحتل بجاية وبسكرة والقيروان وبونة حتى انتهى إلى تونس عام ٥٨١ هـ وبذلك أقام دولة جديدة للمرابطين امتدت من بونة غربا حتى جبل نفوسة وتوغل نحو الجنوب حتى بسكرة واضطر المنصور إلى أن يحشد جميع قواته ليحول دون تقدم الثوار . وكان أن توجه الخليفة المنصور إلى افريقية عام ٥٨٢ هـ / ١١٨٦ م حيث تولى قيادة العمليات العسكرية بنفسه واتخذ من مدينة تونس مقرا لقيادته واستطاع بفضل شجاعته وحزمه أن ينتصر على خصومه وفر على بن غانية إلى الصحراء وظل بها إلى أن مات عام ٥٨٤ هـ / ١١٨٨م ، أما قراقوش الأرمنى وجنوده وحلفائهم الأعراب فقد انضموا إلى جيوش الموحدين وأرسل المنصور أعداداً كبيرة منهم إلى المغرب والاندلس ومن ثم تقدم إلى المهدية واستولى عليها عام ٥٦٠ هـ بعد أن سلط عليها أدوات الحصار القوى المحكمة وأنزل بهم هزيمة قاسية فى شعبان ٨٣٥ هـ / أكتوبر ١١٨٧ م وهرب بنو غانية وحلفائهم العرب وأنزل بهم العقاب لما بدر من استدعاء وتأييد بنى غانية ففروا للاحتماء بقنن الجبال والأوعار وكذلك بأحياء العرب بالجوار .

وهكذا نرى أن الخليفة المنصور الموحدى قد نجح فى إعادة توحيد المغرب الكبير

من ليبيا شرقا إلى المحيط الأطلسى غربا وبذلك أصبح فى مقدوره أن يعبر فى اطمئنان إلى الأندلس لجهاد الممالك الأسبانية المعادية كالبرتغال وقشتالة . ولقد اختار المنصور مدينة المهدية التى أسسها والده أبو يعقوب يوسف على ساحل المحيط وبنى قصبتها جده عبد المؤمن من قبل وكانت اقامته بالمهدية قبل أن يعود إلى المغرب ريثما يضع القوانين اللازمة لتنظيم اقطاعات القبائل العربية بأفريقية وعفا عن المماليك المصريين وكان اتخاذ مدينة المهدية لكى تكون القاعدة التى تتجمع فيها جيوش الموحدين قبل أن تتجه إلى الاندلس للجهاد والفتح .

وإن كانت بعض الآراء تذكر أن أفضل ما كان يعمله الموحدون فى هذا الظرف وهم أمام عدو خطر هو دول إسبانيا النصرانية أن يدعو جانبا موضوع بنى غانية وألا يشغلوا أنفسهم كثيرا بأمر افريقية حتى يفرغوا من العدو النصرانى ولكن الذى حدث هو انهم لم يتخذوا هذه السياسة (أقوال دكتور حسين مؤنس) ولكننا هنا نخالفه الرأى إذ أن القضاء على الثورة الداخلية من بنى غانية والأعراب والمماليك المصريين كان أهم عمل داخلى قام به أبو يعقوب يوسف المنصور ، إذ أن تأمين خط الظهر وتوحيد الجبهة الداخلية وإعادة تنظيم البيت المغربى الموحدى من الداخل وتأمين خط القبائل العربية والاستعانة بها فى حربه فى الأندلس وترحيل بعضا منها إلى المغرب الأقصى كان من أهم الأعمال والانجازات حتى يتفرغ للجبهة الخارجية فى الاندلس وأن المنصور الذى كان أعظم قواد الموحدين وصاحب أكبر نصر حربى على أرض الأندلس (معركة الأرك) ما كان له أن يستطيع تحقيق هذا النصر الكبير فى الاندلس لولا أنه قام بهذا العمل الحاسم والقوى فى توحيد الجبهة الداخلية حتى يأمن ظهره وخطر الداخل وهو يعبر إلى الاندلس إذ أن السبب القوى الذى جعل المرابطين ينهارون هو سحبهم لقواتهم من الاندلس لحماية أنفسهم من الداخل . وأنه لولا أن فعل ذلك لما كان أن يستطيع أن يقاتل النصارى فى الاندلس وهو مطمئن تمام الاطمئنان إلى قوة المغرب والجبهة الداخلية وعدم وجود مشاكل أو أخطار داخلية تهدد الاتجاه للاندلس ومن هنا كان

تفكيره فى أرجاء موضوع الاندلس إلى الانتهاء من مشاكل بنى غانية وحلفائهم أهم عمل قام به المنصور الذى يعد من أعظم قواد التاريخ الإسلامى لانتصاره الرائع فى الاندلس على قوات ألفونسو الثامن الذى كان يسعى لطرد المسلمين نهائيا من الاندلس والقضاء على الوجود الإسلامى .

ومن هنا كان تفكير المنصور ومن ساعده من قواد الموحدين فى سحق التمرد الداخلى واخضاع القبائل الثائرة والقضاء نهائيا على شوكة بنى غانية المرابطين وادخال المماليك المصريين تحت قيادته العسكرية أهم الانجازات التى تشهد له على مر التاريخ وليست حربا عقيمة كما قال الدكتور مؤنس لانه استطاع فى النهاية النجاح فى خطته العسكرية .

الخليفة المنصور الموحدى وجهاده فى الاندلس

لم تكن الحالة فى الاندلس أقل خطورة من المغرب إذ انتهز البرتغاليون فرصة الاضطرابات التى حلت بصفوف الموحدين عقب استشهاد خليفتهم السابق أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن وأخذوا يضايقون غرب الأندلس برا وبحرا وقد ساعدتهم الظروف فى ذلك الوقت . لكن على الجانب الآخر فبعد أن نظم الخليفة المنصور أمور الدولة فانه رأى أن الوقت قد حان للانتقام لهزيمة أبيه ومقتله فى الاندلس ففتح باب التطوع لجميع المسلمين من بربر وعرب وغيرهم من جبال وسهول والمغرب فأتته معظم القبائل العربية . وفى عام ٥٨٦ هـ / ١١٩٠ م حينما علم مسيحو الاندلس بانشغاله فى بلاد افريقية هاجموا مدينة شلب وباجة وبايرة من غرب الأندلس . وقد ساعدتهم الظروف فى ذلك الوقت إذ أن قوات صليبية كبيرة من الألمان والانجليز والفلمنكيين (سكان الأراضى المنخفضة وهى هولندا) قد أخذت تتجه تباعا إلى فلسطين عقب سقوط بيت المقدس فى يد صلاح الدين عام ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م وكانت هذه الأساطيل الصليبية كثيرا ما ترسو فى الموانى البرتغالية إما رغبة أو اضطرارا فتصادف فى عام ٥٨٥هـ / ١١٨٩ م أن أسطولا من خمسين سفينة فرنسية عليها جماعة كبيرة من هؤلاء الصليبيين الألمان والفلمنك اضطر للرسو فى ثغر (شبونة) فانتهز ملك البرتغال سانشو الأول [1] هذه الفرصة وطلب من هؤلاء الصليبيين مساعدته فى قتال جيرانه المسلمين فاستجابوا لندائه وتقدموا جميعا نحو مدينة شلب واضطرت المدينة إلى الاستسلام بعد أن تمكن العدو من الاستيلاء على البئر الذى يمد المدينة بالمياه ، فاستعظم المنصور ذلك وكتب إلى امراء الأندلس يأمرهم بضرورة مواجهة العدو. وتظهر براعة هذا المجاهد الكبير فى انه استطاع أن يتجنب لقاء الأمراء المسيحيين فى الاندلس

(١) كان يدعى شنجة الأول أو سانشو Sengha I وكان قد قام بعمليات حربية لاجتياح بعض المواقع الإسلامية المتاخمة لحدود دولته حيث أجرى مذبحة وحشية فى هذه المدن الإسلامية بالغدر بقدر ما كان متعطشا للدماء الإسلامية .

مجتمعين وأن ينفرد بهم واحدا بعد الآخر وهذه الخطة هى التى سار عليها نابليون بونابرت فى العصور الحديثة وكانت سر عظمته وقد شرح المنصور هذه السياسة فى خطاباته الرسمية التى وجهها إلى رعاياه إذ بين فيها أنه قد آثر التحالف مع ملكى قشتالة وأراجون كى يتفرغ لمحاربة ملك البرتغال ثم رأى أن يتحالف مع ملكى ليون وأراجون كى ينفرد بملك قشتالة فى المعركة .

وكان الخليفة المنصور قد انتهز فرصة الفراغ من بنى غانية واتجه بقواه نحو الاندلس وكان الموقف قد عاد إلى التحرج فيه إذ إن الضغط النصرانى على الاندلس كان قد أصبح كالسيل المتدفق الذى يحرق أمامه كل شئ . ولم يعد ينفع فيه إلا عمل حاسم من الأعمال الكبرى التى تقف ذلك الطغيان الصليبى على ديار المسلمين فى الاندلس كتلك الأعمال التى قام بها صلاح الدين الأيوبى فى الشام حيث انتصر فى معركة حطين على الصليبيين عام ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م وكان صلاح الدين معاصرا للخليفة أبى يوسف يعقوب المنصور .

وبدأ المنصور حركته الجهادية عام ٥٨٧ هـ / ١١٩١ م بمملكة البرتغال التى سبق وأن استشهد فيها والده أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن فهاجموا برا وبحرا واكتسح أراضيها ولم يجرؤ ملكها (سانشو انريكث) على مواجهة المنصور فى معركة عامة مكشوفة بل ظل مختفيا وراء جدرانه واستطاع الاسطول الموحدى أن يأسر بعض سفن البرتغال عام ٥٨٦ هـ / ويجعلها سفن إسلامية بعد أن أسر جميع من كان بها من البحارة وقد انتهت هذه العمليات باسترداد مدينة شلب عام ٥٨٧ هـ / ١١٩١ م ويبدو أن قوة البرتغاليين قد انهارت تماما بعد هذه الحملة بدليل إننا لم نعد نسمع بعد ذلك عن دخولهم فى حرب ضد المنصور بعد أن حطم قواها وضرب حصونها وديارها واكتسح أراضيها وهى الدولة التى كانت أشد الممالك الإسلامية خطورة على المسلمين وسبق أن استشهد الخليفة يوسف بن عبد المؤمن والد المنصور على أراضيها .

وكان ألفونسو الريكى ملك البرتغال السابق قد توفى عام ٥٨١ هـ / أواخر عام ١١٨٥ م وخلفه ابنه الذى لم يستطع أن يواجه المنصور (سانشو الثانى) ملك البرتغال وقد عقد العزم على طرد المسلمين من الأراضى المجاورة له والاستيلاء على بعض بلاد غرب الأندلس وقد اشتد ساعده بالمساعدات العسكرية الخارجية من أوربا الغربية والتى كانت فى طريقها إلى بلاد الشام وتمكن عن طريقها من الاستيلاء على مدينة «شلب» كما سبق القول وكانت من أكبر الموانئ التى بقيت فى أيدى الموحدين فى غرب الاندلس ، وكان سقوط شلب قد حرك فى نفس المنصور شعورا اسلاميا جارفا بضوروة العمل الحاسم فقرر أن يقوم بغزوة كبرى على غرب الأندلس يعيد بها الأمور إلى نصابها .

وكان الخليفة المنصور قد احتفل احتفالا كبيرا بغزوته لغرب الأندلس هذه فاستقر الناس فى كل النواحى وأعد أحسن فرق جنده ودعا العرب إلى الاشتراك معه فى الجهاد ولا شك أن أخبار انتصار صلاح الدين على الصليبيين فى حطين واستعادة مدينة القدس من أيدى الصليبيين قد زاد فى حماسه وأثار فى المسلمين موجة متدفقة من الحماس فتقاطر الناس على المعسكرات وفى أواخر المحرم عام ٥٨٦ هـ / ١١٩٠ م تحرك المنصور من رباط الفتح نحو الاندلس بعد أن أصدر أمره إلى الحشود بموافاته فى أشبيلية وأخذت الألوف من المسلمين طريقها إلى المكان المحدد للقاء ومن المعروف أن قوات المتطوعين التى خرجت تجاهد فى سبيل الله ونصرة دينه كانت تعادل قوات الجيوش النظامية أو تزيد قليلا وقد تمكن المنصور من استعادة مدينة شلب من أيدى سانشو الأول وعدد آخر من الحصون عام ٥٨٧ هـ / ١١٩١ م ثم شغلته شواغل أخرى وألم به مرض طويل فتعطل اتمام غزوته الكبرى فى الاندلس . وعاد المنصور إلى المغرب بعد أن صالحه صاحب قشتالة ووقوع الخليفة فريسة لمرضه مما أيأس الأطباء فطمع فيه المجاورون له وتربص به ملك قشتالة وثار العرب فى افريقية وعادت الأحوال إلى الاشتعال .

ثم شفى الخليفة من مرضه وعزم على الخروج بنفسه لمحاربة الخارجين عليه واضطر إلى البدء بالجبهة القشتالية ومن ثم كان تحول المنصور نحو مملكة قشتالة فى قلب الاندلس . بعد أن كانت قد شهدت بداية عام ٥٩١ هـ / ١١٩٤ م اكتمال أهبة الاستعداد لغزوته الكبرى فعبر إلى الاندلس بحشود ضخمة وأخذت القوات الأخرى المساعدة له تتوافد على أشبيلية وهكذا صار هنا جيش كبير من الموحدين والعرب والاندلسيين والمتطوعين من أنحاء بعيدة جهادا فى سبيل الله والاستشهاد .

وعندما علم ألفونسو الثامن ملك قشتالة بذلك والذى كان قد نقض المصالحة التى تمت بينه وبين المنصور لمدة خمس سنوات وتربص بالمسلمين فى الأندلس فانه بدوره أسرع الى استنفار كل ملوك أسبانيا المسيحية واستصرخ البابا فى روما وقدمت إليه جيوش من فرنسا وألمانيا وهولندا وغيرها من الديار الأوربية ووافته جنود أوربية كبيرة يقودها فرسان ذوو خبرة عسكرية طويلة وتجربة ماهرة وممتازة فى الحروب ضد المسلمين حتى لقد قدرت القوات الأوربية التى احتشدت فى مواجهة القوات الإسلامية بأنها تزيد عن أكثر من مائة وخمسين ألف جندى (١٥٠ ألف جندى) تزيد عن ثلاث أضعاف القوات الإسلامية . وكانت قوات الموحدين قد زحفت شمالا حتى انتهت إلى الموقع المعروف « بالأرك » وتقدمت الحشود الصليبية الأوربية الكبيرة إلى مكانها فى سهل فسيح حول حصن يسمى الأرك .

نجاح الجهاد الموحدى وانتصار الأرك الباهر :

بالقرب من قلعة رباح عسكر المسلمون على حفة وادى آنة ، وإلى الغرب من مدينة (ثيوداد ريال) الحالية وهناك عقد المنصور مجلسه الاستشارى المكون من شيوخ العرب والموحدين للتشاور فى كيفية إدارة الحرب مع المسلمين . وعقد للقائد «ابن صناديد » على جيش الاندلس ولجرمون بن رباح على القبائل العربية ولنديل بن عبد الرحمن المغراوى على قبائل مغراوة ولمحيوا بن أبي بكر بن حمامة المرينى على قبائل

بنى مرين ولجابر بن يوسف على قبائل بنى عبد الواد ولعباس بن عطية على قبائل بنى توجين وليحيى بن على على قبائل مسكورة وسائر المصامدة ولمحمد بن منفاذ على قبائل غمارة والفقيه الصالح أبى خرز يخلف بن حرز الأوربى على المتطوعة ولجميع هؤلاء تحت قيادة أبى يحيى بن أبى حفص زعيم قبيلة هنتاتة .

ووزع القائد يحيى بن أبى حفص الرايات على رؤساء القبائل وقسم عسكره على النحو التالى عسكر الأندلس فى الميمنة وزناتة والمصامدة والعرب وسائر قبائل المغرب فى الميسرة والمتطوعة والمماليك الاعزاز والرماه فى المقدمة وبقى هو وقبيلته هنتاتة فى القلب. وبعد توزيع القوات فى ميدان القتال تقدمت فجأة مجموعة من فرسان مسيحى إسبانيا تقدر بنحو عشرة آلاف جندى أو يزيد عن خمسة عشر مدججين بالسلاح مدرعين بالحديد لإلقاء الرعب فى نفوس المسلمين وبرز زعماء الموحدين لصدهم إلا أن جموع الفرسان كانوا قد تقدموا من الميسرة ونجحوا فى اختراق القلب وقتل قائد الجيوش الإسلامية أبو يحيى بن أبى حفص إلا أن القوات العربية وزعماء قبائلها والمتطوعة الذين خذو حذر القبائل العربية تمكنوا من الالتفاف حول جميع هذه القوات والاحاطة بهم من جميع الجهات ووقع فرسان إسبانيا المسيحية بين شقى الرحى تطحنهم وتحصدهم القوات الإسلامية حصدا وطحنا فانكسرت شوكة جيش ألفونسو الثامن الملقب بالصغير حيث كان جل اعتماده على هؤلاء الفرسان الذين لم ينجو منهم أحدا فى هذه المعركة التى حصدوا فيها حصدا بعد أن حمى وطيس المعركة . وكانت تلك المعركة قد دارت رحاها فى ٩ شعبان عام ٥٩١ هـ / ١٨ يونيو ١١٩٥م وانجلت عن انتصار رائع وعظيم وباهر للمسلمين وأفلت ألفونسو الثامن بعدد قليل من فرسانه ولاذ بالفرار نحو طليطلة وكان لهذه المعركة أثر بعيد يشبه أثر معركة الزلاقة فى تاريخ الاندلس .

وفى نفس الوقت أظهر المنصور فى هذه المعركة شجاعة وبسالة نادرة مهدت له

النصر فيروى ابن عذارى المراكشى أنه حينما رأى انكسار مقدمته أمام هجمات العدو ترك مقر قيادته وسار منفردا إلى الصفوف الأمامية يعطى تعاليمه ونصائحه العسكرية وتوجهاته مما كان له أكبر الأثر فى نفوس قواته فحملوا على العدو حملة انتهت بالنصر وأسرع بعض فرسان العرب إلى المنصور يبشرونه بهزيمة العدو وهكذا تمكن العرب عن طريق اندفاعهم فى اللحظة المناسبة من العمل على احراز النصر فى موقعة الأرك .

وبعد ذلك النصر الذى ثبت فيه حدود الإسلام فى الاندلس على خط الوادى (آنة) أرسل المنصور فرقا من الجيش الموحدى استعادت الكثير من حصون غرب الأندلس وتوجه المنصور ببقية قواته نحو طليطلة عاقدا العزم على الاستيلاء عليها ولكن الشتاء كان قد حل فلم يزد المنصور عن تخريب بعض الحصون التى كانت تمثل خطرا على الوجود الإسلامى واسترد المسلمون بعض الحصون القشتالية مثل (ملجون) ، بنافنتى ، كاراكويل ، قلعة رباح) ويذكر مؤرخو الغرب المسيحى أن أسباب هزيمة القشتاليين بأن جيش الموحدين كان يحسن الكر والفر، ويجيد الرماية بالسهام وهى صفات تتوافر فى العرب وتتفق مع طريقتهم فى القتال ولقد بقى المنصور بالاندلس حتى عام ٥٩٢ هـ/ ١١٩٦م وتمكن من الاستيلاء على حصن منتانـجش Montanchez بعد استسلام حاميته وتأمين الخليفة المنصور لهم وكذلك استولى على حصن ترجالة Trajillo وعم الخراب والدمار بأنحاء مملكة قشتالة مما دفع ملكها إلى طلب السلم والمهادنة لمدة عشر سنوات فوافق يعقوب المنصور وعاد إلى مراكش بعد أن كان قد أعقب انتصاراته هذه سلسلة من الانتصارات الأخرى فى شمال قشتالة ودمر نواحى طليطلة واستولى على بعض الحصون المحيطة بها مثل مجريط ووادى الحجارة ووصل إلى أراض لم تطأها أقدام المسلمين منذ أيام المنصور بن أبى عامر ولعل هذا هو السبب الذى جعل المؤرخين يشبهون المنصور الموحدى بالمنصور بن أبى عامر .

وكان فى نفس الوقت قد قام ألفونسو التاسع ملك ليون وحليف المنصور

بمهاجمة قشتالة واجتياحها ومن الغريب أن المنصور لم يحاول الاستيلاء على طليطلة ولو أراد لفعل دون مشقة كبيرة فقد أتاح المنصور بعد استيلائه على طليطلة لأدفونسو الثامن بتجميع قواه ويأخذ بثأره فيما بعد .

وقد عاد المنصور بعد ذلك مرة أخرى إلى الاندلس ولكنه لم يقم بأى عمل عسكرى كبير يذكر له. واكتفى بأعمال التنظيم والإدارة ومحاسبة العمال ورجال المال.

ومات المجاهد الكبير المنصور فى الثانى من ربيع الأول عام ٥٩٥ هـ / ٢ يناير ١١٩٩ م بعد أن كان قد تجاوز عمره التاسعة والثلاثين بعدة أيام قليلة فقط فقد ولد فى أواخر ذى الحجة عام ٥٥٤ هـ / يناير ١١٦٠ م .

وهكذا مات المجاهد الموحدى بعد أن سجل فى صفحات التاريخ الإسلامى والجهاد فى الأندلس صفحة ناصعة وارتبط اسمه بمعركة الأرك ووقف تقدم المسيحيين وهكذا خلد اسمه بكسبه معركة الأرك إلا أنه مما يؤخذ على قادة المجاهدين من المرابطين والموحدين أنهم لم يحاولوا استثمار ثمرة نجاحهم فى هذه المعارك مثلما فعل صلاح الدين فى حطين والاستيلاء على مدينة القدس عام ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م لكن المنصور مات فى عنفوان شبابه إذ لم يصل إلى الأربعين عاما وأنه لو قدر له أن يعيش وهو فى تمام صحته لانه كان ضعيف البنية مصابا بأمراض وقف الأطباء يأسا دون علاجها لاستطاع فيما بعد أن يقوم بأعمال تفوق كثيرا ما قام به فى معركة الأرك . ذلك لانه كان قد خبر قتال المسيحيين فى الاندلس وعرف نقط الضعف فى قواتهم وكيفية مواجهتهم ومحاولة كسر شوكتهم . ولقد مات هذا المجاهد الموحدى صاحب معركة الأرك وهو فى شبابه ، ذلك لان الخلفاء والسلاطين يبدو أن دائما تولى مهام أعمالهم فى السنة التى مات فيها المنصور إذ أن سن التاسعة والثلاثين لم يكن من الأعمار التى يستطيع صاحبها أن يفعل الشئ الكبير لبلاده ولكن هكذا أعمال رجال الدولة الموحدية إذ أننا نجد العديد منهم يتوفون وهم دون الخمسين عاما .

لكن مهما يكن من القول فان الخليفة أبا يعقوب يوسف المنصور الموحدى استطاع أن يقوم بالأعباء الملقاة على عاتقه واستطاع أن يوطد الأمن والأمان فى داخل البلاد ويوطد أركان الدولة ويقضى على الثورات الداخلية ويبسط نفوذ الدولة على كل الأراضى الواقعة من ليبيا شرقا إلى المحيط الأطلسى غربا وأن يجمع كلمة المغرب العربى الكبير تحت لواء الوحدة الموحدية وأن يجعل أنظار العالم الإسلامى تتجه إلى المغرب العربى بعد معركة الأرك فى الوقت الذى اتجه فيه المغاربة إلى المشرق حيث انتصار صلاح الدين الأيوبى على الصليبيين فى معركة حطين ٥٨٣ هـ / ١١٨٧م .

الباب الرابع عشر

بداية انهيار الدولة الموحدية

الخليفة الموحدى الرابع

أبو محمد عبد الله الناصر

وموقعة العقاب وضعف السيادة الإسلامية

(٥٩٥ – ٦١٠ هـ – ١١٩٩ – ١٢١٣ م)

توفى الخليفة يعقوب المنصور عام ٥٩٥ هـ / ١١٩٩ م وقد أثارت وفاته حزنا عميقا فى الأوساط الإسلامية ذلك لان الكثير من الناس كذبوا وفاته وقال البعض أنه قد تخلى عن الملك وذهب خفية إلى الاندلس حيث يرابط فى ثغورنا لجهاد الكفار وقال البعض الآخر بل إنه توجه إلى البيت الحرام وجاور فى المدينة عند قبر الرسول ﷺ حيث يخفى أمره وقال فريق ثالث بل إنه رحل إلى الأراضى المقدسة بفلسطين لجهاد الصليبيين هناك . وقد كذب المؤرخون هذه الروايات وقالوا بأن المنصور مات فى المغرب ودفن بجوار أبائه فى تيتملل ، إلا أنه فى الوقت نفسه حركت وفاته أطماع الطامعين من أعداء الدولة من جديد . وخلفه أبو محمد عبد الله الملقب بالناصر وكان عمره يوم ارتقاء عرش سلطنة المغرب والأندلس ثمانية عشرة عاما حيث إنه ولد فى عام ٥٧٦هـ/ ١١٨٠ م .

وتولى الحكم عام ٥٩٥ هـ / ١١٩٩ م وقد كان شابا قليل الذكاء . وكان أبوه قد أطلعه على سير الأمور فى البلاد ونصحه بألا يقطع برأى حاسم يهم البلاد دون مشاورة أبى حفص محمد بن أبى حفص وكان هذا الرجل كبير السن وذا فطنة وحنكة ودراية ، لكن هذا الشاب تجلت قلة ذكائه فى صورة استبداده بالأمر ورفض النصيحة من أقرب المقربين من رجاله .

وكانت بداية فترة حكمه قد شهدت عودة بنى غانية الميورقيون إلى شن غاراتهم على افريقية وتمكنوا من الاستيلاء على تونس والمهدية وبلاد الجريد والدعاء فيها للخليفة العباسى جريا على عادة أسلافهم المرابطين وكان عبد الله بن غانية قد حاول فى عام ٥٩٦ هـ / ١٢٠٠ م أن يسترد جزيرة يابسة من الموحدين وكان قائد الخليفة المنصور (والد الناصر) أبو الحسن على ابن الزبير قد قام بانقلاب فى الجزيرة ضد حكم بنى غانية وأقام بمساعدة الثوار حاكما على الجزيرة باسم الموحدين ، إلا أن نفوذ الموحدين على جزيرة ميورقة لم يدم طويلا إذ سرعان ما علم بنو غانية فى افريقية بأخبار هذا الانقلاب ورجع الأمير عبد الله بن غانية إلى الجزيرة فورا عن طريق صقلية واستطاع الأمير عبد الله بن غانية بمساعدة مواليه وجنده أن يحتل الجزيرة ويطرد منها أخيه محمد بن غانية إلى الاندلس حيث ولاه الموحدون مدينة دانيه . وحاول الخليفة المنصورأن يعيد احتلال الجزيرة إلا أن الموقف كان قد أفلت منه إلا أنه نجح فى احتلال جزيرة يابسة عام ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م . وتحرك ابن غانية بأسطوله من جزيرة ميورقة لمحاصرة جزيرة يابسة من جميع الجهات ولكن أهلها قاوموه بشدة واستنجدوا بأسطول الموحدين الذى كان قريبا منهم فأسرع لنجدتهم واستطاع الانتصار على ابن غانية ورجع ابن غانية خائب الوجه ورأى الخليفة الموحدى الجديد أبو عبد الله محمد الناصر لدين الله ابن المنصور أن استقرار نفوذ الموحدين فى افريقية لن يستتب إلا إذا استولى على جزر البليار قاعدة بنى غانية ومصدر المتاعب التى يواجهها الموحدون فى افريقية لهذا صمم الناصر على احتلالها كلها .

ففى خلال فترة حكم الناصر لدين الله انتكست صورة التحالف الموحدى العربى فأصبح صوريا بقدر ما يحفظ على العرب استقلالهم الذاتى ففى عام ٥٩٦ هـ / ١٢٠٠ م توالت أنباء افريقية عن خروج العرب عن طاعة الخليفة بمراكش وبسط العرب سلطانهم على مدنها وتحالفوا مع يحيى ابن غانية . وكان الناصر لدين الله قد بدأ حكمه بداية طيبة فقد رأى ضرورة القضاء على ثورة بنى غانية وأحلافهم من

العرب فى الجزائر الشرقية وافريقية وكان اسحق بن على بن غانية قد تمكن فى عام ٥٩٥ هـ / ١١٩٩ م من الاستيلاء على تونس فزاد أمر الثورة خطورة وبدأ أبو محمد الناصر بتوجيه حملة بحرية كبرى إلى الجزائر الشرقية كان قد أعدها لهذا الغرض فى ثغر دانية وأسند قيادة الأسطول فيها إلى عمه أبى العلاء إدريس بن يوسف ابن عبد المؤمن كما أسند قيادة الجيش إلى شيخ الموحدين أبى سعيد عثمان ابن حفص .

وكانت الحملة تتكون من ألفين ومائتى فارس وسبعمائة من الرماة وخمسة عشر ألف من الرجال غير رجال الأسطول وكان الأسطول فى ثلاثمائة جفن (سفينة) (أو نوع من السفن) وأقلعوا يوم السبت ٢٤ ذى الحجة ٥٩٩ هـ / ١٢٠٣ م من جزيرة يابسة قاصدين ميورقة ونزلوا فيها وأحاطوا بها وخرج إليهم عبد الله بن غانية لكنه هزم وقتل وتغلب رجال الأسطول والجيش على المدينة ودخل أبو العلاء ادريس قائد الأسطول والشيخ أبى سعيد عثمان قائد الجيش ثم تحرك الأسطول إلى جزيرة منورقة فدخل البلد عنوة وأرسل حاكمها إلى العاصمة مراكش وبذلك تم للموحدين احتلال الجزر الشرقية أو جزر البليار وتم لهم ذلك فى ربيع الأول عام ٦٠٠ هـ / ديسمبر ١٢٠٣ م وأقيم عليها عبد الله ابن طاع الله الكومى واليا وبذلك يكون الموحدون قد قطعوا جذور بنى غانية فى الجزر الشرقية (جزر البليار وهى ميورقة ومنورقة ويابسة) وبقى عليهم أن يقطعوا جذورهم بل فروعهم فى افريقية والمغرب الأوسط . حيث كان من الطبيعى بعد ذلك أن يتتبع الخليفة الناصر فلول بنى غانية فى افريقية فتحرك إليهم بجيشه وأسطوله عام ٦٠١ هـ / ١٢٠٤ م واستولى على تونس والمهدية وفر يحيى بن غانية بأهله وولده إلى صحراء طرابلس ثم رأى الناصر أن استمرار بقاء نفوذ الموحدين فى افريقية توقف على اقامة حاكم دائم فيها يكون له مطلق التصرف فى إدارتها فاختار لهذا الغرض واليا من أقاربه هو الشيخ « عبد الواحد بن أبى حفص الهنتاتى » جد الملوك الحفصيين (انظر دولة بن حفص ، الجزء الخامس من الموسوعة) وفى ربيع الأول عام ٦٠٢ هـ / ١٢٠٥ م أنزل الموحدون بنى غانية وأحلافهم بقيادة يحيى بن

اسحاق الميورقى هزيمة ساحقة فى تاجرا قرب قابس وأعقب ذلك دخول الموحدين تونس والمهدية والقضاء نهائيا على فتنة بنى غانية وغنم الموحدون أسلابا أضاع القرب عشرين عاما فى جمعها من طرابلس إلى بجاية وفى نفس الوقت استسلم عرب المهدية وعاد الناصر إلى تونس عام ٦٠٣ هـ / ١٢٠٦ م ليعيد الهدوء إلى افريقية ولينظم شئونها ويعمل على إصلاح ما فسد ، لكن بنى غانية لم يستسلموا للهزائم التى أنزلها بهم الموحدون خصوصا بعد مساعدات بنى سليم وعرب الزواودة لهم وتمكن بنى غانية من مواجهة الجيش الموحدى بقيادة أبى محمد بن أبى حفص بنواحى تونس وفى عام ٦٠٧ هـ / ١٢١٠ م . أغار أبو محمد عبد الواحد على قبائل سليم ليرغم العرب على الطاعة والتخلى عن مناصرة بنى غانية . ولاشك أن هذه الاضطرابات التى لعبت فيها القبائل العربية دورا واضحا فى افريقية أدت إلى تعيين أبى حفص واليا دائما على افريقية مما ساعد على تدعيم النفوذ الموحدى فى تلك الجهات من جهة ثم قيام الدولة الحفصية المستقلة بعد ذلك من جهة أخرى .

ولكن يحيى بن اسحاق بن غانية الميورقى انتهز فرصة عودة الخليفة إلى المغرب لتجديد غاراته لكن أبو محمد الحفصى أوقع به هزيمة قاصمة فى اقليم الزاب فى ٣ ربيع أول ٦٠٤ هـ / أكتوبر ١٢٠٧ م وتعتبر موقعة الزاب النهاية الحقيقية لنشاط بنى غانية فى افريقية .

وكان أبو محمد الحفصى هذا جديرا بهذه المهمة فأخذ يتعقب جيوش يحيى بن غانية وينهكها فى الوقت الذى كانت فيه زناتة تنفض من حوله وكانت معركة جبل نفوسة هى التى آتت على قوة يحيى فلم يجد خيراً من أن يهرب إلى الجنوب من جديد ويتجه إلى واحة الجفرة فى عام ٦٠٤ هـ .

لكن بنو غانية وحلفاؤهم من العرب الهلالية اتجهوا نحو المغرب الأوسط وهاجموا تلمسان فأسرع أبو محمد الحفصى وأنزل بهم هزيمة قاصمة أخرى فى جبل نفوسة

العرب فى الجزائر الشرقية وافريقية وكان اسحق بن على بن غانية قد تمكن فى عام ٥٩٥ هـ / ١١٩٩ م من الاستيلاء على تونس فزاد أمر الثورة خطورة وبدأ أبو محمد الناصر بتوجيه حملة بحرية كبرى إلى الجزائر الشرقية كان قد أعدها لهذا الغرض فى ثغر دانية وأسند قيادة الأسطول فيها إلى عمه أبى العلاء إدريس بن يوسف ابن عبد المؤمن كما أسند قيادة الجيش إلى شيخ الموحدين أبى سعيد عثمان ابن حفص .

وكانت الحملة تتكون من ألفين ومائتى فارس وسبعمائة من الرماة وخمسة عشر ألف من الرجال غير رجال الأسطول وكان الأسطول فى ثلاثمائة جفن (سفينة) (أو نوع من السفن) وأقلعوا يوم السبت ٢٤ ذى الحجة ٥٩٩ هـ / ١٢٠٣ م من جزيرة يابسة قاصدين ميورقة ونزلوا فيها وأحاطوا بها وخرج إليهم عبد الله بن غانية لكنه هزم وقتل وتغلب رجال الأسطول والجيش على المدينة ودخل أبو العلاء ادريس قائد الأسطول والشيخ أبى سعيد عثمان قائد الجيش ثم تحرك الأسطول إلى جزيرة منورقة فدخل البلد عنوة وأرسل حاكمها إلى العاصمة مراكش وبذلك تم للموحدين احتلال الجزر الشرقية أو جزر البليار وتم لهم ذلك فى ربيع الأول عام ٦٠٠ هـ / ديسمبر ١٢٠٣ م وأقيم عليها عبد الله ابن طاع الله الكومى واليا وبذلك يكون الموحدون قد قطعوا جذور بنى غانية فى الجزر الشرقية (جزر البليار وهى ميورقة ومنورقة ويابسة) وبقى عليهم أن يقطعوا جذورهم بل فروعهم فى افريقية والمغرب الأوسط . حيث كان من الطبيعى بعد ذلك أن يتتبع الخليفة الناصر فلول بنى غانية فى افريقية فتحرك إليهم بجيشه وأسطوله عام ٦٠١ هـ / ١٢٠٤ م واستولى على تونس والمهدية وفر يحيى بن غانية بأهله وولده إلى صحراء طرابلس ثم رأى الناصر أن استمرار بقاء نفوذ الموحدين فى افريقية توقف على اقامة حاكم دائم فيها يكون له مطلق التصرف فى إدارتها فاختار لهذا الغرض واليا من أقاربه هو الشيخ « عبد الواحد بن أبى حفص الهنتاتى » جد الملوك الحفصيين (انظر دولة بن حفص ، الجزء الخامس من الموسوعة) وفى ربيع الأول عام ٦٠٢ هـ / ١٢٠٥ م أنزل الموحدون بنى غانية وأحلافهم بقيادة يحيى بن

اسحاق الميورقى هزيمة ساحقة فى تاجرا قرب قابس وأعقب ذلك دخول الموحدين تونس والمهدية والقضاء نهائيا على فتنة بنى غانية وغنم الموحدون أسلابا أضاع القرب عشرين عاما فى جمعها من طرابلس إلى بجاية وفى نفس الوقت استسلم عرب المهدية وعاد الناصر إلى تونس عام ٦٠٣ هـ / ١٢٠٦ م ليعيد الهدوء إلى افريقية ولينظم شئونها ويعمل على إصلاح ما فسد ، لكن بنى غانية لم يستسلموا للهزائم التى أنزلها بهم الموحدون خصوصا بعد مساعدات بنى سليم وعرب الزواودة لهم وتمكن بنى غانية من مواجهة الجيش الموحدى بقيادة أبى محمد بن أبى حفص بنواحى تونس وفى عام ٦٠٧ هـ / ١٢١٠ م . أغار أبو محمد عبد الواحد على قبائل سليم ليرغم العرب على الطاعة والتخلى عن مناصرة بنى غانية . ولاشك أن هذه الاضطرابات التى لعبت فيها القبائل العربية دورا واضحا فى افريقية أدت إلى تعيين أبى حفص واليا دائما على افريقية مما ساعد على تدعيم النفوذ الموحدى فى تلك الجهات من جهة ثم قيام الدولة الحفصية المستقلة بعد ذلك من جهة أخرى .

ولكن يحيى بن اسحاق بن غانية الميورقى انتهز فرصة عودة الخليفة إلى المغرب لتجديد غاراته لكن أبو محمد الحفصى أوقع به هزيمة قاصمة فى اقليم الزاب فى ٣ ربيع أول ٦٠٤ هـ / أكتوبر ١٢٠٧ م وتعتبر موقعة الزاب النهاية الحقيقية لنشاط بنى غانية فى افريقية .

وكان أبو محمد الحفصى هذا جديرا بهذه المهمة فأخذ يتعقب جيوش يحيى بن غانية وينهكها فى الوقت الذى كانت فيه زناتة تنفض من حوله وكانت معركة جبل نفوسة هى التى آتت على قوة يحيى فلم يجد خيراً من أن يهرب إلى الجنوب من جديد ويتجه إلى واحة الجفرة فى عام ٦٠٤ هـ .

لكن بنو غانية وحلفاؤهم من العرب الهلالية اتجهوا نحو المغرب الأوسط وهاجموا تلمسان فأسرع أبو محمد الحفصى وأنزل بهم هزيمة قاصمة أخرى فى جبل نفوسة

وقد انجلت هذه المعركة عن نهاية كل شئ كان يملكه بنى غانية . ولقد حاول يحيى بن غانية بعد ذلك الاغارة على افريقية لكنه لم ينجح رغم انهم كانوا يغيرون على البلاد ثم يفرون إلى الصحراء وكانوا أحيانا يعتصمون فى تلمسان وأحيانا فى سجلماسة.

وفى عام ٦٣١ هـ / أو ٦٣٣ هـ / ١٣٣٤ أو ١٢٣٦ م توفى يحيى بن اسحق ابن غانية فى مدينة مليانة على نهر شلف فى الجزائر وكان هذه نهاية ثوار المرابطين الذين قضوا حياتهم فى معارك طاحنة مع الموحدين . وقد أضعفت هذه الحركة قوات الموحدين نحو نصف قرن من الزمان .

جهاد الناصر لدين الله فى الاندلس

لم ينس ألفونسو الثامن ملك قشتالة هزيمة الموحدين له فى الأرك فظل يفكر فى محو اثار الهزيمة وبدأ يحصن قلاع بلاده الواقعة على الحدود الإسلامية وتحالف مع كل من ملكى نبرة وأرغون وفى عام ٦٠٧ هـ ١٢١٠ م نقض القشتاليون الهدنة القائمة بينهم وبين الموحدين ، لذا لم يكد الخليفة الناصر لدين الله يستريح بعض الشئ من متاعب المغرب الأوسط وافريقية معتمدا على محمد بن حفص الهنتاتى حتى سمع باستعداد ألفونسو فى الاندلس مستنجدا بالملوك المسيحيين ومنهم ملك البرتغال ، ذلك لأن الأوضاع السياسية فى إسبانيا فى ذلك الوقت قد تغيرت عما كانت عليه فى عهد المنصور ، ذلك لأن الإسبان لم يكتفوا بتوحيد صفوفهم بل أعلنوا الدعوة لحرب صليبية فى أوربا وبارك البابا أنوسنت الثالث حركتهم فجاءتهم جيوش جرارة من ايطاليا وفرنسا وألمانيا .

فكتب الناصر إلى جميع بلاد افريقية والمغرب وبلاد المسلمين يستنفر المسلمين للغزو فأجابه خلق كثير وألزم كل قبيلة من القبائل العربية ببلاد المغرب بحصة من الخيل والفرسان والرجال للانضمام إلى الجيش الموحدى والخروج معه للجهاد بالأندلس

ولما تكاملت معه الحشود تحرك إلى الاندلس فى ٩ شعبان عام ٦٠٧ هـ / ١٢١١ م ووصل إلى أشبيلية وأقام بها استعدادا للغزو فاجتمع له فى هذه الغزوة من أهل المغرب والاندلس العديد من المقاتلين وما كان ألفونسو الثامن يشعر بتحرك الجيوش الموحدية الكبيرة إلى الاندلس ومن ثم فانه أخذ يغير من جديد على أطراف الأندلس الإسلامى وقد بدأ فى هذا بعد انتهاء هدنة كان قد عقدها مع المنصور الموحدى وكانت نهاية الهدنة عام ٦٠٦ هـ / ١٢٠٩ م وأراد المنصور أن يجاهد فى سبيل الحفاظ على الديار الإسلامية فى الاندلس وتحقيق نصر كما حقق والده المنصور نصر الأرك على قوات قشتالة ، فكان قرار العبور إلى الاندلس وجهاد القوات النصرانية فجمع حشودا هائلة وعبر إلى الاندلس فى نهاية عام ٦٠٧ هـ / يونيو ١٢١٠ م وأخذت الجيوش تتوافد عليه حتى أصبح جيشه يعادل جيش أبيه الذى كسب موقعة الأرك وقسم الجيش الإسلامى إلى خمس فرق : الأولى من العرب والثانية من زناتة وصنهاجة والمصامدة وغمارة وسائر أصناف قبائل المغرب والثالثة من المتطوعة والرابعة من جيش الأندلس والخامسة من الموحدين وأنزل كل فرقة منهم بناحية ولما انتهى من تنظيم جيشه تحرك فى أوائل عام ٦٠٨ هـ / ١٢١١ م إلى بلاد قشتالة واستولى على قلعتى اللج وشلبطرة معتمدا فى ذلك على الفرقة العربية من جيشه لكن إذ كان المنصور محقق انتصار الأرك رجلا ذكيا حكيما عرف كيف يستفيد من القوات التى كانت معه فى حين عجز ذلك الشاب عن ذلك .

زحفت الجيوش المسيحية من طليطلة فى عام ٦٠٩ هـ / ٢٠ يونيو ١٢١٢ م واستولت على ملجون وقلعة رباح بعد أن حاصرتها ويئس قائد حاميتها من نجدة الناصر ففضل تسليمها فغضب الناصر لذلك وأمر بقتله فى أشبيلية مما أثار غضب الفرقة الرابعة الاندلسية فى جيشه فعزل قوادهم ولقد أخطأ فى ذلك لتعود قواد الاندلس لمحاربة المسيحيين بها وخبرتهم الطويلة فى القتال .

وعلى الجانب الآخر كان ألفونسو الثامن قد عقد العزم على الأخذ بثأر هزيمته فى معركة الأرك فعقد معاهدات ساعدته على توحيد الجبهة المسيحية الإسبانية وأتته أمداد كبيرة من بقية أوربا وبذلك كان الناصر لدين الله يواجه حملة صليبية كبرى .

وكانت خطة الناصر لدين الله تقتضى الإسراع بالاستيلاء على الباب المؤدى إلى قشتالة وهو حوض الوادى الكبير وذلك للحيلولة دون دخول النصارى إلى الاندلس بقوات كبيرة وفى أوائل عام ٦٠٨ هـ / ١٢١١ م تحرك الناصر بجيش جرار ولكن بحذر ودخل مدينة جبان ، وحصنها ثم تركها وعسكر فى السهل الواقع أمام مخرج المضيق وهو سهل ملئ بالتلال الصخرية وتسمى العقاب وتمكن الناصر من الاستيلاء على الحصون القريبة من بلده ابدة Ubeda وكان معقل فرسان الداوية ثم عاد الناصر إلى أشبيلية ليستكمل استعداده وفى محرم ٦٠٩ هـ يونيو ١٢١٢ م . تحرك نحو مخرج المضيق ويسميه العرب « مطرد الكلب » وفى نفس الوقت اتجهت قوات نصرانية نحو هذا الموقع والتقى الجيشان وجيش المسلمين على هذه الحالة من التفكك بموقع يقال له فى المصادر العربية باسم القاب وفى المصادر الأسبانية معركة تولوسا Les Ne-vesde Tobsa ولم يكن أن اجتمعت لحرب المسلمين قوات نصرانية كهذه من قبل بل منذ دخول المسلمين الاندلس فقد كان فيها ملوك قشتالة وليون ونافارا وأرجون ومعظم كبار فرسان أسبانيا وقوات ألمانية وفرنسية وبرتغالية وايطالية وتمكنت هذه القوات من الاستيلاء على كل المواقع الإسلامية التى صادفتها فى طريقها .

وقامت الفرقة الثالثة من جيش الناصر لدين الله وهى المتطوعة بهجوم خاطف ولكن القوات المسيحية تمكنت من امتصاص الفرقة بأكملها بداخلها ورغم تفانى المتطوعة فى القتال فقد استشهدوا عن آخرهم ولكن باقى فرقة الجيش الموحدى لم يمدوا لهم يد العون والمساعدة ولم يعرف السبب فى ذلك وبعد أن فرغ المسيحيون من فرقة المتطوعة والذين كانت المعركة قد بدأت معهم فحاولوا زحزحة القوات الإسلامية

من الجانب الغربى من الميدان لكن النصارى فشلوا فحاولوا النفاذ من الناحية الشرقية التى كان يعسكر فيها الاندلسيون والعرب فهرب الاندلسيون بعد أن قرروا أن يغدروا بالناصر فى المعركة من أثر عزله قوادهم وفعلا غدروا به فى المعركة الفاصلة بعد أن دار القتال عنيفا وولت الأدبار انتقاما بما فعله الناصر بقوادهم فكان بداية الهزيمة لجيش الموحدين وفرت فرق القبائل البربرية من المعركة ثم تلتها فرقة الموحدين وكان آخر من ترك ميدان المعركة الفرقة الأولى التى تتشكل من العرب التى اشتبكت وتلاحمت بالسيوف مع المسيحيين مدافعة عن الناصر لدين الله ورغم ذلك تمكن المسيحيون من الوصول إلى الدائرة التى تحيط به وقتلوا من عبيد دائرته نحو عشرة آلاف فارس واخترقت القوات النصرانية صفوف الجيش الموحدى فاضطرب نظامه ووصلت بعض فرق منهم إلى فسطاط الناصر نفسه وبدأت مذبحة كبرى انتهت بتبدد الجيش الموحدى الضخم وبتبدده تلاشى الأمل فى تمكن المسلمين من الثبات فى هذه البلاد الأندلسية وقد هلك فى هذه المعركة آلاف من خيرة محاربى المسلمين وعشرات الألوف من خيرة المغاربة ولهذا تعتبر هذه الهزيمة النهاية الحقيقية لقوة الإسلام فى الاندلس . وكانت الفرقة العربية قد أدركت أن الهزيمة قد حاقت بالجيش الموحدى وأن المسيحيين قد أوشكوا على قتل الخليفة الناصر لدين الله فقام أحد فرسان العرب بمعاونة الخليفة على الفرار حتى تخلى أحدهم عن فرسه العربى الأصيل للناصر لبدانة فرسه وثقله قائلا له . أركب هذه الحرة فأنها لا ترضى بعار فلعل الله ينجيك عليها فان فى سلامتك الخير كله فركبها الناصر تتقدمه نخبة من فرسان العرب ويحيط به عبيده والقوات المسيحية فى أعقابهم حتى تمكنوا من الفرار به وقضى على معظم الجيش الموحدى وعاد الناصر إلى مراكش حزينا حيث احتجب عن الناس فى قصره إلى أن توفى فى ١٠ شعبان ٦١٠ هـ / ٥ يناير ١٢١٣ أى بعد سبعة شهور من هزيمة العقاب .

ولقد انهار تماما نفوذ الموحدين فى الاندلس بعد هذه الكارثة التى حلت بالمسلمين فى الاندلس بل بالعالم الإسلامى الغربى وأخذت المدن الاندلسية التى دافع

عن بقائها المرابطون وأسلاف الناصر لدين الله من الموحدين تتساقط فى أيدى المسيحيين ويسجل تاريخ الإسلام فى الاندلس وفاة الناصر لدين الله بداية انهيار دولة الموحدين وقد شجعت هذه المعركة والهزيمة القاسية التى حلت بالموحدين رؤساء بعض المدن الاندلسية على القيام بمحاولة الاستقلال بحكم الاندلس بغية انقاذها من هذه النكسة القاسية .

ولقد كانت تلك الهزيمة القاسية سببا فى تكالب امراء قشتالة وأرجون على أراضى المسلمين بالاندلس .

لقد كان ترك المسيحيون الاندلسيون من العوامل الأساسية التى قضت بتعجل انتهاء الدولة الموحدية أثر معركة العقاب إذ بدأت القوى الإسلامية تتساقط ، كما أن ثورة بنى غانية التى طال الصراع بينهم وبين بنى عبد المؤمن لأكثر من نصف قرن من الأسباب التى أنهكت الدولة وجعلها لاتستطيع أن تصرف همها وجهودها للقضاء على البؤر الشمالية الغربية المسيحية الإسبانية ، كذلك وقف العرب فى المغرب فى وجه الاتجاه الكامل للصراع الإسلامى المسيحى لكن الموحدين تمكنوا من اصطناع القبائل العربية سواء بنقلهم إلى المغرب الأقصى والعمل على استقرارهم به وادخالهم فى خدمتهم وضمهم للجيش ورغم ذلك فلم تكن جميع هذه القبائل تعطى الود الخالص للموحدين فما أن تضطرب الأحوال السياسية للدولة حتى نراهم ثائرين مؤيدين للحركات الخارجة على شرعية الدولة وتركزت ثورات القبائل العربية فى افريقية ومناطق استقرارها فى المغرب .

ولقد تعددت ثورات العرب منذ قيام الدولة الموحدية عام ٥٤١ هـ / ١١٤٦ م فلم تمر فترة قصيرة إلا وكانت القبائل العربية فى المغرب وتعلن الثورة والخروج عن طاعة الخليفة وفى كل مرة من هذه المرات كانت الدولة الموحدية تبذل قصارى جهدها فى القضاء على هذه الثورات سواء بالمال أو الاستمالة بالهدايا .

بل أكثر من ذلك فانه اثناء فترة حكم الخليفة الناصر لدين الله فانه فى عام ٦٠٠ هـ / ١٢٠٤ م ظهر بجبال ورغة بالقرب من فاس ثائر هو محمد بن عبد الله العاضد وهو حفيد العاضد آخر الخلفاء الفاطميين فى مصر وذلك بعد ثلاث وثلاثين عاما من قضاء صلاح الدين على الدولة الفاطمية الشيعية بمصر لكن الدولة الموحدية تمكنت من القضاء عليه فى عهد الناصر لدين الله عام ٦١٠ هـ / ١٢١٣ م .

الباب الخامس عشر

الدولة الموحدية بعد الناصر لدين الله

يوسف المستنصر (١٢٧ - ٦٢٠ هـ / ١٢١٥ - ١٢٢٤ م)

بعد هزيمة العقاب القاسية على المسلمين فى بلاد الغرب الإسلامية وعلى الموحدين والاندلسيين بصفة خاصة . فقد خلف أبو يعقوب يوسف بن محمد الناصر ابنه يوسف والذى تلقب بالمستنصر ، لكن عهده شهد ظهور الحروب الأهلية والمنافسات العائلية وقيام أقربائه عليه فى الاندلس والمغرب . بالإضافة إلى الخطر الأساسى للمسلمين فى الاندلس وهم مسيحو الاندلس إذ نجد أن ملك قشتالة وليون فارناندو الثالث الملقب بالقديس يستولى على نهر الوادى الكبير بما عليه من عواصم ومدن هامة مثل قرطبة وأشبيلية وقادس وشرس .

وفى عهد المستنصر ظهر ببلاد جزولة بالمغرب الأقصى رجلا من العبيديين ادعى الانتساب إلى العاضد آخر الخلفاء الفاطميين فى مصر وتسمى بالمهدى ووصلت قواته حتى فاس بمساعدة القبائل العربية ولكن عامل المستنصر على فاس تمكن من القضاء عليه رغم اعتماده على العناصر العربية المختلفة من بقايا الدولة الادريسية بالمغرب الأقصى فى مدينة فاس وما حولها والفاطميون وأتباعهم الذين سبق لهم النزوح من مصر إلى المغرب بسبب الصراع الدامى بين عناصر الجند من المغاربة والسودانيين والاتراك والعرب وغيرهم .

ولما توفى المستنصر بعد حكم دام ثمانى سنوات كانت فيها الدولة تتعرض للأخطار الداخلية والخارجية ولم تكن مواهبه ولا قواته ولا موارد الدولة تمكنه من القيام بأى عمل من شأنه أن يعيد نفوذ القوة للدولة ويجعل القبائل تخضع لها بالإضافة إلى أنه لم يتحرك نحو الاندلس لوضع حد لسقوط المدن والمعاقل الإسلامية فى تلك الديار الإسلامية .

وبعد وفاة المستنصر تولى الخلافة عبد الواحد بن يوسف بن عبد المؤمن (٦٢٠-٦٢١ هـ / ١٢٢٤ م) واتسم عهده بالفوضى وتفرق أمر الموحدين وظهر التصارع على السلطة بصورة واضحة فاستقل أبو محمد عبد الله بن يعقوب المنصور بأمر الموحدين بالاندلس وأيده بعض أعيانهم بالمغرب فخلعوا عبد الواحد وقتلوه بعد شهور من ولايته واستدعوا أبو محمد من الاندلس وتلقب بالعادل .

أبو محمد عبد الله بن يعقوب المنصور (العادل)
(٦٢١ - ٦٢٤ هـ / ١٢٢٤ - ١٢٢٧ م)

استعان الخليفة العادل الموحدى بشيوخ العرب المستقرين بالمغرب الأقصى وخاصة الذين يتركزوا حول العاصمة مراكش بعد كان أعيانهم قد استدعوه من الأندلس وبهم استطاع دخول مراكش لكنه قاسى كثيرا من المتاعب وخاصة من العرب المستقرين فى المنطقة الممتدة ما بين سلا ومراكش بالإضافة إلى تخلى أعوانه عنه وأخذوا يغيرون على نواحى مراكش ولم يكن أمام الخليفة العادل من وسيلة إلا أن يدخل معهم فى صراع عسكرى فأرسل إليهم قواته كلها ولم تستطع أن تحقق نصرا حاسما لاسيما بعد أن تحالفت هذه القبائل مع قبائل عربية وبربرية أخرى بل مع بعض الموحدين الذين تعاونوا جميعا على خلعه فهاجموا مراكش بعد أن حاصروها حصارا قاسيا واستطاعوا بعد أن قطعوا عنها الامدادات أن يقتحموا قصر الخليفة العادل وأن ينهبوه وقتلوا العادل خنقا فى عام ٦٢٤هـ/ ١٢٢٧م . وهكذا نلاحظ كيف أن الأمور فى الدولة قد أخذت تسير من سيئ إلى أسوأ وبدأت القبائل تستهين بالخليفة وكثير الخروج عليه بل قتله فى قصره وهكذا تكون أقدار الدول التى تقوم على أكتاف رجال أقوياء لكن سرعان ماتصاب برجال ضعفاء يخذلون أسلافهم ويضيعون ما بذلوا من جهد ومال ودماء من أجل اقامة الدولة .

يحيى بن الناصر (٦٢٤ – ٦٢٧ هـ / ١٢٢٧ – ١٢٣٠ م)

تشجع ملوك النصارى ومضوا يستولون على الحصون الإسلامية دون مقاومة تذكر وذلك بعد الصراع الدامى بين خلفاء الموحدين عندما قام أبو العلا أدريس عامل أشبيلية بالمناداة بنفسه خليفة للموحدين منافسة لأبى زكريا يحيى بن الناصر الذى بويع فى مراكش فى ذلك الوقت وكذلك منافسا لأخيه أبي عبد الله محمد الذى كان واليا على مرسية بشرق الاندلس . فترك ولايته ومضى إلى مراكش ، لكن الموحدين كانوا قد أجمعوا على مبايعة زكريا يحيى بن الناصر ودخل مراكش وبايعته عرب الخلط بقيادة أميرها وذلك منافسا لأدريس بن المأمون بن المنصور الذى رحب بذلك وأشاد بالعرب . وبينما كانت جيوش الموحدين تهاجم العرب (عرب الخلط) لترغمهم بالقوة على المبايعة أخذ يحيى بن الناصر فى التنديد والتعريض بهم . لكن القوات الموحدية فشلت فى كسر شوكة العرب الثائرين الذين أخذوا فى شن الغارات على أطراف مراكش .

والذى يقلب صفحات تاريخ تلك الفترة من الدولة الموحدية يدرك مدى الخزى والعار والاستهانة بديار المسلمين من أجل تحقيق مصالح شخصية على حساب الشعوب والعقيدة والمقدرات وهكذا توضع أمور الدول فى يد أشخاص يخنون الله ورسوله وقرآنه وشعوبهم بعد أن ماتت ضمائرهم . فنجد هنا أدريس المأمون بن المنصور يزحف من الاندلس ويقرر العبور إلى المغرب معتمدا على محالفة العرب ومعاونة قوات مسيحية من جنود قشتالة يقدر عددها بخمسمائة فارس (مدى الجبن والخزى والعار) مقابل التنازل عن عشرة حصون بالاندلس لمملكة قشتالة ، بل أكثر من ذلك قبوله القيام ببناء (كنيسة بمراكش حيث تجاور جامع القرويين) حتى يتمكن المسيحيون من مباشرة شعائرهم الدينية وتصارع المتنافسان على السلطة بالقرب من مراكش لكن قوات يحيى بن الناصر هزمت عام ٦٢٧ هـ / ١٢٣٠ م . وانسحب يحيى بأتباعه ودخل المأمون مراكش وقتل بعضا من شيوخ الموحدين وأذن للمسيحيين القادمين معه ببناء

كنيسة وسط مراكش . لكن فى غياب المأمون عن مراكش فى عام ٦٢٩ هـ / ١٢٣٢ م لصراعه مع أخيه موسى عمران هاجم يحيى بن الناصر وأعوانه من العرب مراكش ودخلوا المدينة وهدموا كنيسة النصارى لانها لم تكن لها رعية مسيحية تؤدى بها الصلاة المسيحية ولم تكن هناك جالية مسيحية مغربية وانسحبوا إلى مقرهم بجوار مراكش ولما علم المأمون بما حدث رجع إلى مراكش ولكنه توفى فى الطريق عام ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢ م .

الخليفة المأمون بن المنصور

(٦٢٧ - ٦٣٠ هـ / ١٢٣١ - ١٢٣٢ م)

تكتمت زوجته التى كانت فى الأصل جارية مسيحية أسبانية خبر وفاته وأخذت البيعة لابنها الرشيد .

الرشيد بن ادريس المأمون بن المنصور

(٦٣٠ هـ - ٦٤٠ هـ / ١٢٣٢ - ١٢٤٢ م)

وكان المأمون والد الرشيد هذا قد حمل معه من قوات الاندلس ما استطاع وترك البلاد عارية بدون حماية وعبر إلى مراكش ليطالب بالخلافة فأخذت المدن الإسلامية بالاندلس تسقط وتنهار وانهار خط الوادى الكبير وفيما بين عام ٦٣٣ - ٦٤١ هـ/ ١٢٣٦ - ١٢٤٣ م سقطت قرطبة وأشبيلية وجيان ومرسية وبلنسية وجزر البليار فكانت تصفية بل مخزية ويكفى أن نذكر أن قرطبة التى كانت عاصمة الخلافة الأموية والاندلس الزاهرة سقطت فى ٢٢ شوال ٦٣٣ هـ / ٢٩ يونيو ١٢٣٦ م فى يد فرناندو الثالث ملك قشتالة الملقب بالقديس دون أن يدافع عنها أحد وبذلك صار للمسيحيين منفذ على مضيق جبل طارق بعد أن كان التحكم فيه للملسمين فقط ، أما ملك

أرجون (خايمى الأول الملقب بالفاتح (١٢١٣ – ١٢٧٦ م) فقد أغار على شرق الاندلس وحاصر مدينة بلنسية ولم تلبث بلنسية أن سقطت فى يد العدو وفى نفس العام الذى سقطت فيه بلنسية هاجم أسطول جنوا ميناء سبتة لفصل المغرب عن الاندلس والتحكم فى مضيق جبل طارق من جانبيه لكن المحاولة فشلت لكنهم كرروا المحاولة مرة ثانية فى مائة مركب للانتقام لضحاياهم فى المرة السابقة وحاصروها ونصبوا المجانيق عليها لكنهم لم يتمكنوا منها واضطروا لرفع الحصار عنها .

وفى اثناء ولاية الرشيد فانه لجأ إلى استمالة جميع زعماء الموحدين ليقلل من نفوذ العرب لكن فى نفس الوقت كان العرب يتعاونون فيما بينهم على التآمر والثورة على الرشيد بعد أن خدع العرب وقتل كبار شيوخهم فما كان من العرب إلا أن يلتفوا حول يحيى بن الناصر مبايعين اياه مرة أخرى زاحفين به لحصار مراكش وحاصروا العاصمة وذاق المحاصرون فى المدينة أشد العذاب لان الرشيد كان يستعين بالمسيحيين وفرسانهم فى قواته ولما رأى الرشيد شدة الحصار دفع هذه القوات المسيحية وبعض القوات الموحدية لمواجهة العرب ولكن العرب حاصرتهم وأفنت جموعهم . ولقد عمت الفوضى فى العاصمة أثر هذه الهزيمة واستهان السكان بالخليفة وجنوده مما دفعه إلى الهروب من المدينة إلى سجلماسة ودخل يحيى بن الناصر العاصمة .

لكن الرشيد تحالف مع أمير عرب سفيان وخرج عام ٦٣٣ هـ / ١٢٣٥ م ليهاجم مراكش واستمرت الحرب مع قوات يحيى عشرة أيام انتهت بهزيمته وقواته ودخول الرشيد للعاصمة مرة أخرى وكان من أثر هذه الهزيمة ان انفضت قبائل العرب من الخلط من حول يحيى بن الناصر فلجأ يحيى فارا إلى عرب المعقل الذين قتلوه وحملوا رأسه إلى الرشيد بفاس لكن الرشيد أرسلهم إلى مراكش حيث أمر بقتل جميع من قتلوا الخليفة السابق يحيى بن الناصر . وكان قتل يحيى بن الناصر سببا فى دخول العرب فى طاعة الرشيد فما كان منه إلا أن استدعاهم حيث قبض على رؤسائهم عام

٦٣٤ هـ / ١٢٣٦ م وأمر بقتلهم وبذلك كسر الرشيد شوكة العرب ونقل بعضا منهم إلى السوس بعيدا عن مراكش . لكن الرشيد توفى عام ٦٤٠ هـ / ١٢٤٥ م فخلفه أخوه على السعيد (أبو الحسن) ٦٤٠ – ٦٤٦ هـ / ١٢٤٢ – ١٢٤٨ م وكان أول عمل قام به هو القبض على معظم شيوخ الموحدين وصادر أموالهم وأعاد العرب من بلاد السوس إلى مراكش وقرب أمراء العرب إليه حتى اتخذ مستشاره الخاص من العرب وحدث فى عام ٦٤٢ ـ / ١٢٤٤ م أن ثار عامل سجلماسة من قبل الموحدين وخرج عن طاعتهم وبايع الحفصيين فى تونس لذا فان السعيد هاجم سجلماسة . بل إنه فى نفس العام قام بالقبض على كبار رجال الدولة وفى عام ٦٤٣ هـ / ١٢٤٥ م أعلن عرب سفيان ثورتهم على الخليفة الموحدى السعيد مما اضطر السعيد إلى طلب عون بعض القبائل العربية الأرى وتمكن السعيد من هزيمة بنى مرين (المرنيين) .

ولقد كان من أثر تحالف الحفصيين فى تونس مع بنى عبد الواد ضد الموحدين أن اندفع السعيد لتحسين علاقاته مع عرب بنى سفيان وقام السعيد عام ٦٤٥ هـ / ١٢٤٧ م بمهاجمة تلمسان وانسحب منها بنو عبد الواد إلى شعاب الجبال بجوار وجدة لكن العرب انقلبوا على السعيد واستولوا على أمواله وقتلوا زعيم سفيان وتفرقت القوات الموحدية وبعد قتل السعيد تولى خلافة الموحدين الخليفة .

أبو حفص عمر وتلقب بالمرتضى (٦٤٦ – ٦٦٥هـ/ ١٢٤٨ – ١٢٦٦م):

وكان هذا الأمير الذى دامت فترة حكمه ثمانية عشرة عاما ميلاديا يقيم فى مدينة سلا حيث كان واليا على حصن الفتح فأرسلوا إليه واستقدموه وبايعوه واستقبلوه أحسن استقبال وعلى رأسهم شيوخ عرب المغرب .

وكان أول عمل قام به الخليفة أبو حفص عمر هو تعيين مشايخ العرب على اماراتهم وكسب ودهم ومن ثم توجه إلى مراكش ببلاطه وحاشيته وهيئته الخلافة

ووزرائه وأمراء العرب . وقد شهدت فترة حكمه الأولى بداية ظهور قوة بنى مرين إذ استطاعوا الاستيلاء على حصن تازا ومكناسة وفاس وضواحيها بعد مقتل الخليفة السابق السعيد مباشرة وذلك عام ٦٤٧ هـ / ١٢٤٦ م واقتطعوا من الخليفة كثيرا من أنحاء المغرب ولم يبق غير بلاد الحوز من سلا إلى السوس واستولى أبو بكر المرينى على بلاد رباط الفتح مما دفع الخليفة المرتضى إلى الخروج لمحاربة « بنى مرين » وعلى الرغم من أن مجلس السلام الذى عضده بنى مرين وبعض زناتة والعرب طالبوا بالصلح مع المرتضى إلا أن الخليفة الموحدى رفض الصلح لانه لم يجد مبررا لوجود خليفتين فى اقليم واحد والتقى الجيشان إلا أن ظروف المعركة جعلت الصلح أفضل لقائد جيش الخليفة الموحدى بعد أن كان قد رفضه هو ووزراءه بمراكش . وفى عام ٦٥١ هـ / ١٢٥٣ م هرب أحد أعوان وزير المرتضى إلى السوس وتحصن بجبالها وتمكن من هزيمة جيوش المرتضى التى أرسلها إليه واستمرت سيطرته على بلاد السوس طوال عهد المرتضى وفى عام ٦٥٢ هـ / ١٢٥٤ م ثارت بعض القبائل العربية فأرسل الخليفة المرتضى إليهم جيشا استطاع القضاء على ثورة هؤلاء الأعراب واستدعى المرتضى كبير مشيخة عرب الخلط إلى مراكش وقتلهم انتقاما منهم لدورهم فى قتل السعيد الخليفة السابق وفى العام التالى ٦٥٣ هـ / ١٢٥٥ م جهز الخليفة المرتضى جيشا يقدر بثمانين ألف فارس مدن الموحدين والعرب وغيرهم لاسترجاع فاس من قبضة بنى مرين لكن هذه الحملة فشلت . لكن فى عام ٦٥٥ هـ / ١٢٥٧ م تم استقطاع سجلماسة من خلافة الموحدين بعد أن استولى محمد القطرانى المرينى بمساعدة عرب المعقل عليها ولقد شهدت الأعوام التالية استفحال أمر وخطر بنى مرين حيث تقدموا للاستيلاء على سهول تامسنا فخرج الموحدون إليهم وتقابلوا بوادى الربيع فى عام ٦٦٠ هـ / ١٢٦٢ م وانهزم الموحدون بسبب بعض الخيانات من جانب القبائل التى انحازت إلى بنى مرين .

وبعد ذلك زاد اعتماد الخليفة المرتضى على عرب سفيان لكن حدث انقسام فى

صفوف عرب سفيان مما جعل بعضا منهم يلجأ إلى بنى مرين لكنهم عادوا مرة أخرى إلى طاعة الموحدين مما دفع الخليفة المرتضى إلى القبض عليهم فقتلهم لتذبذبهم فى الطاعة بين الموحدين وبنى مرين .

وإلى جانب الثورات العربية والحروب ضد بنى مرين وبعض المصاعب والمتاعب التى كانت تواجه الخليفة الموحدى المرتضى فإنه لم يسلم من أذى بعض أقربائه إذ تآمر عليه قائد جنده وابن عمه أبو العلا الملقب بأبى دبوس وتحالف مع بنى مرين الذين أمدوه بالآلات والرجال ضد الخليفة؛ مما دفع الخليفة المرتضى إلى القبض على بعض شيوخ العرب خوفا من مساندتهم ومبايعتهم لابى دبوس ورغم ذلك فقد انحاز الكثير من قومهم إليه مما دفع الكثير من العرب إلى السير جميعا نحو مراكش فى عام ٦٦٥هـ / ١٢٦٦ م وتسور العرب سور المدينة وفر المرتضى إلى أزمور حيث قبض عليه وأرسل أبو دبوس من قتله واستقل بالحكم وتلقب أبو دبوس بالواثق بالله والمعتمد على الله ٦٦٥ - ٦٦٨ هـ / ١٢٦٦ - ١٢٦٩ م . على أن استيلاء أبى دبوس على الحكم وتأييد بعض القبائل العربية له لم ينقذ دولة الموحدين من الانهيار أمام هجمات بنى مرين الذين احتلوا العاصمة مراكش عام ٦٦٨ هـ / ١٢٦٩ م . وبهذا سقطت دولة الموحدين بعد فترة طويلة من الصراع والانحدار والضعف رغم أن الدولة كانت قد انتهت فعلا فى عام ١٢١٢ م وليس عام ١٢٦٩ م إذ إن الدولة استمرت تمارس وجودها طوال سبعة وخمسين عاما بعد معركة العقاب ولكنها لم تكن دولة بمعنى الكلمة إذ بدأت عوامل الانهيار والانقسام والتفكك تنتاب الدولة وأخذت تتهاوى مع الأيام حتى كانت أيامها الأخيرة على أيدى بنى مرين ومن قبلهم بنى عبد الواد فى تلمسان وبنى حفص فى تونس .

الموحدون وبناء القوة البحرية
(٥٤٠ – ٦٦٨ هـ / ١١٤٥ – ١٢٧٠ م)

ورث الموحدون دولة المرابطين وكذلك ورثوا أسطولهم القوى وذلك بعد انضمام أمير البحر على بن عيسى بن ميمون قائد أسطول المرابطين وبذلك صارت للموحدين قوة بحرية وأسطول بعد فترة قصيرة من تولى الخليفة الموحدى الأول عبد المؤمن . ولقد قام عبد المؤمن بن على منذ عام ٥٤٦ هـ / ١١٥١ م بعمليات عسكرية بحرية واسعة النطاق لتوحيد المغرب لأول مرة منذ الفتح العربى له ولقد شارك الأسطول الموحدى مشاركة فعالة فى العمليات الحربية التى قام بها الموحدون لاسيما فى الفاطمية «المهدية » التى كانت محاطة بالبحر من معظم جهاتها وكان قائد البحر القائد المشهور محمد بن عبد العزيز بن ميمون وهو من بيت مشهود له بالجهاد فى البحر ولهم قدرا فى قيادة البحر وكان الخليفة الموحدى عبد المؤمن قد ركب سفينة حربية من أسطوله وطاف بالمدينة من ناحية البحر تشجيعا للمقاتلين .

ولقد دخل الأسطول الموحدى فى صراع مع أسطول ملك صقلية النورماندى وليام بن رجار (١١٥٤ – ١١٦٦ م) إذ أرسل الخليفة عبد المؤمن أسطولا كبيرا من مائة وخمسين سفينة غير الطرائد وكان الاسطول الفرنجى يقصد المهدية فخرج إليهم أسطول عبد المؤمن فدخل الرعب قلوبهم فانهزمت شوانى الفرنج وتتبعهم أسطول الموحدون وعاد أسطول المسلمين ظافرا .

ولقد وجه عبد المؤمن عنايته نحو انشاء وتعمير المراسى ودور الصناعة المنتشرة على طول السواحل المغربية والاندلسية ولاشك أن اهتمام الخليفة عبد المؤمن بانشاء بحرية قوية كان ضرورة حتمية فرضته عليه طبيعة حركة الموحدين والطابع الدينى

الإسلامى والزعامة الإسلامية ، ومن ثم استطاع ان ينشئ أقوى أسطول فى البحر المتوسط وفى ذلك يقول اندريان فى كتابه تاريخ افريقيا الشمالية .

لقد أنتجت دور صناعة السفن أسطولا من أربعمائة قطعة وفى ذلك دلالة على مدى الاستعداد والقوة والرخاء .

كذلك اهتم عبد المؤمن بوسائل الدفاع الساحلية لمنع نزول الصليبيين الأراضى المغربية فأنشأ القصور والقلاع والرباطات ذات المناور .

على أن العمل العسكرى العام الذى توج أعمال عبد المؤمن هو تلك المدينة البحرية التى بناها على سفح جبل طارق عام ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م وقام ببناء هذه القلعة البحرية عدد كبير من الاندلسيين . وليس أدل على اهتمام عبد المؤمن برجال البحرية الموحدية من قيامه بانشاء بحيرة خاصة بالقرب من قصره وأعد فيها طائفة من السفن الكبيرة والصغيرة ليتمرن الشباب فيها على القتال فى البحر والتجديف وقيادة السفن والوثوب إلى سفن الأعداء .

وهكذا استطاع المجاهد الموحدى عبد المؤمن بن على أن يخلق من المغرب العربى الإسلامى قوة موحدة مجاهدة فى البر والبحر تمهيدا لغزو الاندلس والوقوف ضد التقدم المسيحى فى الأراضى الإسلامية الاندلسية وفى عهد أبو يعقوب يوسف (٥٥٨ - ٥٨٠ هـ / ١١٦٣ - ١١٨٤ م) فقد تفوق الأسطول الموحدى فى عهده تفوقا ملحوظا وانتهت أساطيل المسلمين على عهده فى الكثرة والاستجادة لم تبلغه من قبل ولا بعد . هذا ويلاحظ أن مهمة الأسطول الموحدى منذ عصر عبد المؤمن بن على لم تقتصر على جهاد الصليبيين بل أخذ على عاتقه أيضا مهمة قمع حركة القرصنة . وقد شارك الأسطول الموحدى فى معظم العمليات الحربية التى دارت ضد القوى المسيحية فى الاندلس وقد نشبت عدة معارة بحرية أحرز الأسطول الموحدى فيها كثيرا من التفوق والانتصار وخاصة فى غرب الاندلس حيث مملكة البرتغال .

وفى عهد الخليفة أبو يعقوب يوسف التحمت أساطيل الموحدين بأساطيل البرتغال فى معارك بحرية وقد حدث فى عام ٥٧٥ هـ / ١١٧٩ م أن اشتدت هجمات البرتغالين فولى الخليفة يعقوب بن يوسف أمير البحر غانم بن مردينس ، قاد الاسطول وعبر البحر غازيا إلى لشبونة وهزم القطع البحرية البرتغالية وعاد إلى سبتة وفى عام ٥٧٧ هـ / ١١٨١ م هاجم أسطول الموحدين الأسطول البرتغالى .

ولقد كان للأسطول الموحدى سبق السيف فى الحملات الحربية ضد البرتغال إذ أن عهد الخليفة المنصور قد شهد عام ٥٨٧ هـ / ١١٩١ م انتصار الأسطول الموحدى على الأسطول البرتغالى وتم أسر عدة سفن من أسطوله وكذلك أسر جميع من كان عليها من البحارة كذلك شاركت البحرية الموحدية خلال هذه الحملة بنقل المعدات وآلات الحصار والتعاون مع القوات البرية فى الهجوم على الثغور الساحلية البرتغالية وتم للأسطول الموحدى الاستيلاء على القاعدة البحرية البرتغالية فى قصر أبى دانس عام ٥٨٧ هـ / ١١٩١ م ويبدو أن قوة البرتغال البحرية قد انهارت تماما بعد هذه الحملة بدليل إننا لم نعد نسمع بعد ذلك عن دخولهم فى حرب ضد المنصور .

ولعل أكبر دليل على تفوق أسطول الموحدين ووصوله إلى سمعة عالية وعالمية فى ذلك الوقت ووصوله إلى مرتبة أكبر بحيث صار أقوى أسطول فى العالم الإسلامى ما ترويه المصادر من أن عامل مصر صلاح الدين الأيوبى أرسل فى عام ٥٨٦ هـ / ١١٩٠ م سفيرا من قبله وهو الأمير عبد الرحمن بن منقذ إلى خليفة المغرب يعقوب المنصور بطلب اعانته بالأساطيل البحرية لتحول بين الصليبيين وبين امداد النصرانية بالشام ولمنازلة ثغور عكا وصور وطرابلس التى سقطت فى أيدى الصليبيين وعلى الرغم مما قيل من أن المنصور قد رفض هذا الطلب لان صلاح الدين الأيوبى لم يلقبه فى رسالته بلقب أمير المؤمنين أى لم يعترف بخلافة الموحدين . لكن هناك بعض المصادر تذكر أن الخليفة المنصور الموحدى قد شارك فى حركة الجهاد الإسلامى ضد الصليبيين

فى بلاد الشام بأن أرسل لصلاح الدين مائة وثمانين سفينة حربية لمنع الصليبيين من الوصول إلى سواحل الشام ولمساعدة اخوانهم المشارقة فى صد الهجوم الصليبى . ويذكر ابن سعيد المغربى أن المغاربة المقيمين فى مصر اشتركوا فى العمليات البحرية التى كان يقوم بها الأسطول المغربى استنادا إلى الفكرة التى كانت شائعة فى الشرق عن اختصاصهم بهذا العمل البحرى لمعرفتهم بمعاناة الحرب والبحر . كذلك ليس أدل على دور المنصور الموحدى فى تنمية قواتهم البحرية من تلك الرسالة التى أرسلها له ألفونسو الثامن ملك قشتالة يطلب فيها منه أن يرسل له الأسطول الموحدى من المراكب والشوانى والطرائد والمسطحات كى يجوز إليه بجيشه ويقاتله فى بلده . وأن تلك الرسالة ما هى إلا دليل حيوى على قوة الأسطول الموحدى وسمعته العالية وهيبة ملك قشتالة من استخدامه لسفنه خوفا من اغراقها على أيدى القوات الموحدية .

كذلك شارك الأسطول الموحدى فى محاربة بنى غانية بقايا المرابطين عام ٥٩٦هـ / ١٢٠٠ م عندما حاول عبد الله بن غانية استعادة جزيرة يابسة إحدى جذر البليار من أيدى الموحدين فتحرك الأسطول الموحدى بقيادة أمير البحر ابن ميمون بعد أن استنجد به أهلها واشتبك مع ابن غانية فى معركة بحرية انتصر فيها الموحدون واستولى على طرادين من ابن غانية وخرج من المعركة خائب الوجه .

كذلك فان الخليفة الموحدى الناصر لدين الله ابن المنصور (٥٩٥ – ٦١١ هـ / ١١٩٩ – ١٢١٤ م أراد أن يستولى على كل جزر البليار الباقية (ميورقة ، منورقة) بعد السيطرة السابقة على يابسة . فأعد أسطولا بقيادة عمه أبى العلاء ادريس بن يوسف بن عبد المؤمن وكان الأسطول يتكون من ثلاثمائة جفن واستولى الأسطول على ميورقة فى ٢٤ ذى الحجة عام ٥٩٩ هـ / ١٢٠٣ م ثم بعد ذلك تحرك الأسطول الموحدى بقيادة أبى العلاء ادريس إلى الجزيرة الثانية ميورقة واستطاع الاستيلاء عليها وبذلك تم للموحدين السيطرة على الجزر الشرقية أو جزر البليار

(يابسة ، ميورقة ، منورقة) .

وكذلك استطاع الأسطول الموحدى عام ٦٠٧ هـ / ١٢١٠ م أن يحرز نصرا باهرا على اسطول أراجون الأسبانية بقيادة أبى العلاء ادريس نفسه وكانت أحسن معركة للمسلمين حيث أوقع خسارة فادحة بقلوب مسيحى برشلونة .

لكن معركة العقاب عام ٦٠٩ هـ / ١٢١٢ م وضعت حدا لقوة الأسطول الموحدى فلم نعد نسمع عن معركة بحرية فعالة يقوم بها الأسطول ضد القوى الإسبانية المعادية .

ويتحدث ابن خلدون عن أسطول الموحدين فيقول عنه استفحلت دولة الموحدين فى المائة السادسة (القرن السادس الهجرى) وملكوا العدوتين (المغرب والاندلس) وأقاموا خطة الأسطول على أتم ما عرف وأعظم ما عهد وكان قائد أسطولهم أحمد الصقلى ثم عين ابنه الذى أجاز إلى مراكش فتلقاه الخليفة يوسف بن عبد المؤمن وقلده أمر الأسطول كما كان والده أحمد الصقلى مجاهد الأمم النصرانية أحسن جهاد وكانت له آثار وأخبار ومقامات مذكورة فى دولة الموحدين وانتهت أساطيل المسلمين فى عهده فى الكثرة والاستنجاد والتى ما لم تبلغه من قبل ولا بعد فيما عهدناه .

كذلك يضيف ابن خلدون مؤيدا قوة أسطول الموحدين بأنه لما قام صلاح الدين بن يوسف بن أيوب ملك مصر والشام لعهده باسترجاع ثغور الشام من يد أمم النصرانية وتطهير بيت المقدس تتابعت أساطيلهم بالمدد لتلك الثغور من كل ناحية قريبة لبيت المقدس الذى كانوا قد استولوا عليه فأمدوهم بالعدد . ولقد أوفد صلاح الدين إلى أبى يعقوب المنصور سلطان المغرب لعهدة من الموحدين رسوله عبد الكريم بن منقذ من بيت بنى منقذ هذا إلى ملك المغرب طالبا مدد الأساطيل لتحول فى البحر بين أساطيل الأجانب وبين مراميهم من امداد النصرانية بثغور الشام . لكن لما هلك أبو يعقوب

المنصور واعتلت دولة الموحدين واستولت الأمم المسيحية على أكثر بلاد الاندلس وألجأوا المسلمين إلى سيف البحر وملكوا الجزائر التى بالجانب الغربى من البحر الرومى واشتدت شوكتهم وكثرت فى البحر الرومى أساطيلهم وتراجعت قوة المسلمين فيه ثم تراجعت بعد ذلك قوة المسلمين فى الأساطيل لضعف الدولة .

وهكذا نرى كيف أن دولة الموحدين وهى فى عنفوان قوتها ولا سيما فى عصر عبد المؤمن بن على وابنه أبى يعقوب يوسف ثم حفيده أبى يوسف يعقوب المنصور صاحب انتصار معركة الأرك كانت البحرية الموحدية فى عهد ازدهارها القوى كذلك استمرت تلك القوة البحرية أيضا تمارس نشاطها البحرى فى عهد سلفه الناصر لدين الله الذى وضعت معركة العقاب التى وقعت أحداثها يوم الاثنين ١٥ صفر ٦٠٩ هـ / ١٧ يوليو ١٢١٢ م نهاية فاصلة للقوة البحرية الموحدية التى لعبت دورا هاما لايقل عن دور القوات البرية فى حركة الجهاد الإسلامى إن لم تفقها وبذلك اسدل الستار على دور البحرية الموحدية مع معركة العقاب .

الباب السادس عشر

مآثر الموحدين الحضارية فى المغرب والاندلس

(٥٤٠ – ٦٦٨ هـ / ١١٤٥ – ١٢٧٠ م)

لايوجد أدنى خلاف فى أن دولة الموحدين التى مارست وجودها السياسى والاقتصادى والثقافى والحضارى فى المغرب والاندلس طوال قرن وربع من الزمان استطاعت فى تلك الحقبة الزمنية القصيرة أن تترك بصماتها واضحة جلية فى شتى الميادين والمحافل ، بل انها ضربت بسهم وافر ومتميز فى هذه الميادين التى قد تكون الثمار أطول وأدوم لو قدر لها أن تعيش عمرها الزمنى بلا مشاكل داخلية ، ذلك لانها إذ كانت تواجه الخطر الصليبى فى الاندلس فان الخطر الداخلى من العرب والغز وبنى غانية وثورة القبائل البربرية الأخرى قد حال دون تفرغ الدولة للميادين المختلفة إنما كان التوجه الأكبر عسكريا حيث أنها ما كادت تفرغ من القضاء على ثورة أو تمرد أو هجوم على المدن حتى تجد نفسها تواجه نفس ما حدث فى الماضى .

لكن مهما يكن الأمر فإنها تعتبر من أعظم الدول فى التاريخ الإسلامى ذلك لانها بلغت بتاريخ المغرب ذروته خلال العصور الوسطى وتمكنت من تحقيق وحدته وحكمته بالفعل لفترة طويلة من طرابلس شرقا إلى المحيط الأطلسى غربا ومن ساحل البحر الأبيض المتوسط شمالا إلى مشارف افريقية المدارية جنوبا هذا بالإضافة إلى الاندلس . فانه إذا كان فى القرن الخامس الهجرى قد تقاسم المغرب ثلاث دول إلا أن الموحدين فى القرن السادس والسابع وحدوه ومغرب القرن السادس هو ما بسط الموحدون عليه سلطتهم السياسية وهو ما اصطلح على تسميته بالمغرب الأقصى والمغربين الأوسط والأدنى وإذ كانت الاندلس تتميز عن المغرب بتقدمها الحضارى إلا أنها منيت فى القرن السادس الهجرى بسيطرة البلاد الغربية عليها سياسيا . كذلك شهدت فترة حكم

الموحدين صراعا بين مسلمى المغرب ونصارى إسبانيا يدور حول السيطرة على وادى بانة فالحصون الممتدة على هذا الوادى أو قريبة منه تكون تارة فى قبضة هؤلاء وطورا فى يد أولئك كقلعة رباح وقونكة بل إن بطليموس أصبحت فى القرن السادس الهجرى ثغرا يدافع عنه بعد أن كانت أيام الطوائف مركز إمارة مستقلة ، بل إن المنطقة غربى بطليوش شهدت معارك عنيفة من جانب الموحدين لاستردادها خاصة شنترين ، فى حال الموحدين ويلاحظ أن قصر أبى دانس هو الحدود بين باجة الإسلامية واشبونة النصرانية .

وقد قام الموحدون عندما فتحوا الاندلس بالسير على نهج أسلافهم فأسكنوا الموحدون مدن الاندلس وثغوره فبدأ عبد المؤمن هذه السياسة واستمر خلفاؤه عليها . كذلك قام الموحدون باتباع نظم سياسية واقتصادية وعسكرية مع العرب لترحيلهم من البلاد الشرقية إلى البلاد الغربية والاندلسية فقد أراد عبد المؤمن استثمار طاقات البدو هؤلاء فى مجابهة نصارى إسبانيا كما عمل على استغلال القبائل العربية فى عملية حفظ التوازن القبلى فى دولته المصمودية وهو غريب عن المصامدة .

ولقد كان أول مظهر من عملية نقل العرب إلى الأرجاء الغربية هو نشر المظاهر الحضارية العربية ونشر اللسان العربى على نطاق واسع . فقد أنشأ عبد المؤمن هيئة أشياخ العرب إلى جانب هيئتى أشياخ الموحدين والاندلسيين وذلك لكى يكون حكم الخلافة بالشورى . ذلك قام من تلى عبد المؤمن فى حكم البلاد مثل يوسف ، والمنصور والناصر بنقل أعداد كبيرة من العرب لنشر اللسان العربى والحضارة الإسلامية.

ونتيجة لهذه السياسة فقد نقل خلفاء الموحدين الأربعة الأول أعداداً من العرب إلى البلاد الغربية الاندلسية وقد أنزل عبد المؤمن العرب فى قرطبة وأشبيلية وشريش وكان ابنه يوسف يرسل مجموعات بصورة مستمرة إلى ثغور الاندلس ولما أخذ يوسف شرق الاندلس من بنى مردنيش أسكن العرب فى بلنسية والأصح أن تعدد العرب الذين

نقلهم عبد المؤمن ويوسف إلى الاندلس كان كبيرا كما أنه فى عام ٦٥٠ هـ / ١١٦٥ م أرسل يوسف حملة من العرب إلى الاندلس لحمايتها ولقد ظل للقبائل العربية وجود قوى فى المناطق الساحلية والسهول لاسيما فى وادى سبو ووادى أم ربيع ووكالة وازمور ونتيجة لهذه الموجة العربية فقد تعربت بادية البلاد الغربية فطبعت بالطابع العربى وهذا أول مظهر حضارى إسلامى عربى من جانب الموحدين لطبع المغرب والاندلس بالصبغة العربية ولم يكن هذا الهدف من نقل العرب إلا لنشر الطابع الحضارى العربى وتعريف تلك البلاد .

وسار المنصور على سياسة أسلافه فى إرسال العرب إلى الاندلس حياطة لها من النصارى إلى جانب سياسة التوطين التى اتبعها فى البلاد الغربية لطبع البلاد بالطابع العربى ونشر اللسان العربى ويبدو أن وجود العرب مع قبائل الموحدين فى الاندلس كان دافعا لخوف العناصر المسيحية للدخول فى صراع معهم .

ولما بسط الموحدون سيطرتهم على المغرب كله تبدل مفهوم التوحيد واطمأن الناس على أموالهم واقتنوا الدور والضياع وازداد زحف الاندلسيين نحو البلاد المغربية مشترين للضياع بسبب الاستقرار الذى شهدته البلاد وربما اشتروا فى الاندلس ذاتها للسبب نفسه فى بعض الأوقات .

وقد أولت الدولة الموحدية أولى اهتمامها بالزراعة فقد أمر عبد المؤمن أهل البلاد الغربية بالعودة إلى أوطانهم وفلاحتها وقد اتسعت الزراعة فى المغرب كله وعم الرخاء خاصة فى خلافتى يوسف والمنصور . وكان عبد المؤمن قد لعب دور الحاكم الصالح فمسح جميع الأراضى من برقة حتى المحيط وأخرج منها الجبال والأنهار والبحيرات المالحة والصحروات ووضع الخراج على ما بقى وحتم على كل قبيلة مبلغا معينا من الحبوب أو المال كل عام .

وفى الاندلس حاول الموحدون نقل الصراع إلى مناطق نصارى الاندلس وذلك

محافظة على المصالح الاقتصادية للمسلمين وبذلوا جهودا فى إقامة الحصون وتجديد المدن بل انه نتيجة لهذه الحروب تقلصت مساحات الزراعة فى شرق الاندلس وغربها وفى قرطبة وبطليموس ومما يدل على عدم استقرار الزراعة فى الاندلس أن الأزواد ظلت ترد إليها من البلاد الغربية . وقد ساعد ذلك على امتداد الأزمة المالية إذ أن الدولة الموحدية ضاعفت من التزامات الدولة العسكرية وأصبحت الدولة تفرض على الرعايا فى المغرب والاندلس عدد الجند الذى يصد عدوان نصارى إسبانيا بسلاحهم ونفقاتهم .

ومن الناحية المالية فانه يبدو أن الموحدين قد اقتصروا على الزكاة والعشور وأخماس المعادن والغنائم والخراج وذكر عبد المؤمن أيام الثورة وبعد قيام الدولة فانه طلب من الأهالى طاعة الموحدين والا يطالبون إلا بما توجبه السنة النبوية وتطلبه والتزم يوسف والناصر بهذه السياسة ولم يرد أن الموحدين قد فرضوا شيئا إلا ماجاء فى الكتاب والسنة .

هذا بالإضافة إلى أن الموحدين لم يكونوا فى حاجة إلى موارد جديدة عندما تنتابهم ضائقة مالية بل كانوا فى أشد الحاجة إلى تنظيم الجباية وهذا يتوافق مع تنظيمات الموحدين ونظم دولتهم التى قامت على التنظيم القبلى .

ولقد اهتم عبد المؤمن وخلفاؤه خلال القرن السادس / الثانى عشر بتعقب عمال الجباية ومحاسبتهم فكانوا يسألون الرعية عنهم ويبدو أن هذه السياسة كانت من أسباب تشجيع الناس على الزراعة والتعلق بالدولة الموحدية وقد تيسر محاسبة العمال على أعمالهم فلا يعتدون على الناس ظلما ولاينهبون أموال الدولة وإن فعلوا نكبوا .

هذا بالإضافة إلى قيام الموحدين بنقل عمال الجباية من مكان إلى آخر . وقد شهد العصر الموحدى جهودا كبيرة لتوفير المياه جلب عبد المؤمن المياه إلى مراكش وسلا والرباط وجلب يوسف المياه إلى أشبيلية وفاس وسبتة والرباط وفعل المنصور نفس الشئ فى مراكش وفاس وجلبها الناصر إلى فاس أيضا وكانت المياه تحفظ فى آبار أو

«برك» أو صهاريج بالإضافة إلى أن الموحدين قد شيدوا نواعير خاصة على نهر أشبيلية ولا يستبعد أن يكونوا قد استفادوا من خبرتهم فى تشييد السدود لأغراض عسكرية فى أعمال الرى أيضا .

وقد كثر اهتمام الناس بالرأى فشيدوا النواعير وحفروا الآبار وفرعوا النهيرات جداول ومن ذلك فقد زادت الأراضى الزراعية وقد أنشأ الموحدون بحيرات كثيرة فى السهول والجبال فى شتى أقسام المغرب الثلاث وقد شجع الموحدون الناس على الزراعة وأخذوا يزرعون أراض لم تكن زراعية وبذلك الدخل عم الرخاء فى شتى البلاد تحت حكم الموحدين الذين كانت فترة حكمهم من أحسن فترات التاريخ الإسلامى فى المغرب إذ ساعد الرخاء الاقتصادى وكثرة الدخل على التقدم الحضارى فى مختلف الميادين الأخرى وذلك لأن الموحدين حافظوا وضاعفوا انتاج المحاصيل فى مختلف المناطق الخاضعة لحكمهم ، كما اهتموا بتربية الخيول والبغال والجمال وقد حرصوا على هذه الدواب لاستخدامها للناحية العسكرية لانها كانت قوة الموحدين .

وكما اهتم الموحدون بالزراعة وما تدره من انتاج ودخل فقد اهتموا أيضا بالصناعة وحمايتها بل إن عبد المؤمن عندما فتح مراكش نهى قبائل المصامدة عن قتل العامة بها لانهم صناع ينفع بهم ومما شجع الدولة على ذلك ازدياد الدولة للصناعات العسكرية وامتداد أثر الحضارة الاندلسية إلى جميع الطبقات فى البلاد المغربية ومن ثم ازداد الطلب على أشياء الترف وأدوات الزينة والزخرفة فاستجلبوا الخبرات الاندلسية الصناعية إلى البلاد المغربية فى مختلف الصناعات ، بل أكثر من ذلك فان الخبرة الصناعية فى العصر الموحدى لم تعد تقتصر على الاندلسيين فقد برز فيها المغاربة أيضا فى مختلف الصناعات .

كما اهتم الموحدون بالثقافة والتعليم واهتموا بالوراقة والنسخ مما يدل على شغفهم بالكتب إن المكتبات الخاصة كانت تضم عددا من مجلدات قد تبلغ خمسمائة

مجلد أو تقدر بالأحمال أو يباع ما يخلفه أحدهم بستة آلاف دينار أو بمائة ألف درهم وقد بلغ اهتمام الموحدين بالكتب أن انشأ يوسف بن عبد المؤمن خزانة علمية واهتم بجمع الكتب إليها من جميع أنحاء المغرب واستمرت هذه الخزانة طوال العصر الموحدى لم تكن النهضة التى استفاد منها الموحدون من دور الاندلس فقد جعلوا سبتة قاعدة لأسطولهم حيث كانت الضرورات العسكرية لها تأثير كبير على بناء السفن بل انهم وسعوا دور انشاء السفن وقد تنوعت السفن بين صغرى وكبرى من شينى وطريدة وشذندى وغراب وشخاتير ومراكب ومسطحات وحراريس وزوارق .

كذلك شهد عصر الموحدين نهضة معمارية كبيرة فقد ازداد بناء المساجد والقصور والمستشفيات وتركت آثارا كبرى فى تطوير الصناعات الخشبية بما احتاجه من سقوف وشبابيك وأبواب ومنابر ومقصورات وآثاث وتحف زخرفية وفى العصر الموحدى استفادوا من المعارف الميكانيكية فى الصناعات الخشبية .

ولقد تقدم الطب وازدهرت الدراسات الطبية لما أنشأه المنصور الموحدى من المستشفيات لعلاج المرضى فى كل المغرب وانه ألحق بكل مستشفى بيتا لصنع الأشربة والدهون والأكحال والغالب أن هذه النهضة الموحدية قد بدأت مع المرابطين نظرا لانهم اهتموا بالعلوم الطبية والكيمياوية بل إن المغاربة قد استفادوا من تجارب غيرهم فى هذه الصنعة وأضافوا جديدا وتؤكد المعلومات الواردة فى كتاب الأعشاب عن الفترة الموحدية حيث بين مصنف الأعشاب بأسمائها اليونانية والعربية والبربرية وغيرها . كما أن المغرب لم يعرف استخراج الذهب إلا القليل .

ولقد بلغت الصناعات كامل ازدهارها فى العصر الموحدى . كما أنه ليس أدل على التقدم العلمى فى عصر الموحدين انه فى عصر يوسف الموحدين قد نصبت ساعة على باب جامع مراكش ارتفاعها فى الهواء خمسون ذراعا . وتنزل عند انقضاء كل ساعة صنجة وزنها مائة درهم وتتحرك بنزولها أجراس يسمع وقعها من بعد .

والراجح أن صناعة الأسلحة كانت أكثر تقدما خلال القرن السادس حيث ضاعف الموحدون انتاجها فى كل ولاية وقيل أنه كان يضرب لعبد المؤمن بن على عشرة قناطير من الأسلحة فى جميع بلاده ويصور هذا تطور الصناعات المعدنية فى هذا النوع من الصناعات استخدام الجيش الموحدى للكرات الحديدية الملتهبة فى دك الحصون والمجانيق الكبار .

كما شهد عصر الموحدين نهضة هندسية معمارية تجلت فى توسيع المدن وتشييد الأسوار وبناء القلاع والمساجد والقصور واقامة المدن الجديدة وانشاء الجسور واقامة الكبارى عليها وكان اهتمام الموحدين وتحويل الحصون إلى مدن وتوسيع مراكش وفاس وتشييد المدن حول المدينة التى يحاصرونها وتميز المنصور بهمة عالية فى فن البناء . ومما يدل على تطور الهندسة المعمارية كثرة المبانى التى شيدت للعساكر وموظفى الدولة فى فاس وسبتة ورباط وهسكورة وأشبيلية وقرطبة ولعل هذه النزعة العسكرية هى التى دفعت الموحدين لبناء القناطر الحجرية بالإضافة إلى ما عرفوه من الجسور المركبة الخشبية وكان الباعث الدينى لدى الموحدين سببا فى اصلاح المساجد والجوامع وتجديدها بالإضافة إلى تميز عصر المنصور الموحدى بإنشاء عدد من المدارس والمستشفيات فى البلاد الغربية والشرقية والاندلس .

وكان انشاء المساجد من أعظم الانجازات الموحدية فقد وصف جامع أشبيلية المنصورى بأنه قد فاق جامع قرطبة فى اتساع أرجائه وفخامة مبانيه وقيل عن جامع مراكش أن ليس بعد جامع قرطبة مثله ويذكر ابن عذارى المراكشى عن جامع الرباط أن ليس فى بلاد المغرب أكبر منه .

وقد تميز العصر الموحدى مع ضخامة البناء وإحكام صنعته بسرعة الانجاز فقد انشأت مدينة الفتح فى عام واحد وتم مسجد أشبيلية فى عام واحد دون صومعته ولم تستغرق انشاءات المنصور على كثرتها أكثر من ثلاثة أعوام .

ومن كل ما ذكر يتضح أن الصناعات فى العصر الموحدى قد شهدتها البلاد الغربية حيث شهدت مراكش نهضة صناعية شاملة باعتبارها قاعدة للتصنيع الزراعى وفاس منطقة للصناعات المعدنية والزراعية ولعل هذا التقدم الصناعى دليل حيوى على حالة الرخاء والأمن والاستقرار كما كانت هذه الحالة الاقتصادية الرغدة حافزا قويا لقيام نشاط فى مختلف الميادين أو دفع ذلك امراء الموحدين وسادتهم وخاصة أصحاب الجاه والمال من الشعب وخاصة فى فاس ومراكش على بناء القصور وتقدم الفنون المعمارية والصناعة .

لقد ترك العصر الموحدى تأثيرا واضحا فى مختلف الميادين فى بلاد المغرب بأقسامه الثلاثة وكذلك فى منطقة الاندلس الخاضعة لهم وبذلك كان عصرهم زاهرا متقدما متحضرا وآثارهم خير شاهد على ما قدموه للعالم الإسلامى وبصفة خاصة فى الميادين السابق الإشارة إليها .

لقد نجح الموحدون فى إشاعة الأمن فى جميع أرجاء دولتهم خلال القرن السادس خاصة فى البلاد الاندلسية ولقد أكد الخلفاء الموحدون على حماية التجار وتأمين طرق التجارة ، بل ان خلفاء الموحدين أنزلوا العقوبات بأصحاب حوادث الاعتداء على التجار كما أن الأسطول الموحدى سيطر على سواحل المغرب كلها فلم يحدث اعتداء قوة بحرية على سواحل البلاد الغربية ولم يحدث اعتداء بحرى على السواحل الاندلسية وكان ظهور الأسطول الموحدى مظهر اطمئنان لأهل السواحل الشرقية والاندلسية ، كما أن الدولة الموحدية كانت تبنى الأسواق ومهد الموحدون الطرق فى جميع أنحاء دولتهم وكان تمهيد الطرق يتم للاستعمال العسكرى وأن التجار كانوا يسلكون هذا الطريق ولهذا نجد الموحدين يمنعون السفار (المسافرين) من سلوكها إذ أراد الموحدون القيام بعمل عسكرى .

وعلى الرغم من أن مواقف الموحدين السياسية مع أغلب الدول المعاصرة لهم

كان يشوبها التوتر فإنهم كانوا يرون ضرورة تشجيع التجارة الخارجية وكانت علاقاتهم التجارية مع المدن الايطالية حيث كان الجنويون لايتعدون على مراكب المسلمين وكان الموحدون يرغبون التجار للمجئ إلى بلادهم ويسعون فى تجديد الصلة معهم .

كذلك مارس الموحدون نشاطهم التجارى الخارجى فعلى الرغم من توتر علاقات دول المغرب فى القرن السادس مع الدول المعاصرة لها فى حوض البحر المتوسط فان التجار المغاربة والمسلمين كانوا يدخلون صقلية وإسبانيا ومما شجع على هذه التجارة وجود بعض المسلمين فى صقلية وإسبانيا وكان الحكام المسيحيون يشجعونهم على البقاء لضرورات اقتصادية ، كما أن التجار المشارفة كانوا يدخلون إلى المغرب .

وكان الأمن الذى فرضه الموحدون والامتيازات التى أعطوها إلى الجنوبيين والتقلص المؤقت لتجارة جنوه مع المشرق عام ١١٦٣ م كلها عوامل جعلت جنوه تتجه نحو التجارة المغربية واستخدم الموحدون الدراهم الموحدية التى كانت تضرب فى جميع عواصم الولايات المختلفة ولقد ضاعف المنصور وزن الدينار الموحدى الذى كان وزنه واحدا فى كل المغرب ولا يضرب إلا فى فاس ولقد كان الدينار الموحدى يعادل نصف دينار مصرى من ضرب صلاح الدين الأيوبى ذلك لان الموحدين أخفقوا فى استخراج الذهب من باطن الأرض المغربية ولعل ضعف الدينار الموحدى يفسر مضاعفة الخليفة المنصور عام ٥٨١ هـ / ١١٨٥ م وزن الدينار الموحدى حتى أصبح معادلا للدينار المصرى الأيوبى المضروب فى مصر وهناك أقوال تذكر أن الدينار الموحدى سيطر على الأسواق الإسلامية والمسيحية فى القرن السادس الهجرى .

ولقد كان المغرب يتصل بمراكز التجارة فى إسبانيا وعبرها إلى أوربا من مراكز تنطلق من الثغور الموحدية ولكن حالة الحرب مع الممالك المسيحية الإسبانية جعلت التجارة تمارس دورها عن طريق تجار المدن الايطالية الذين كانوا يعملون كوسطاء . ولقد ساعد التحول التجارى نحو الساحل إلى ظهور مراكز تجارية معروفة مثل صفاقس

والمهدية وبجاية وأشبيلية ومالطة ومرسية والمرية وقرطبة وهكذا اتصلت سواحل المغرب جميعها من نول إلى طرابلس وكانت هذه الموانئ تتصل بموانئ البلاد الاندلسية وقد تضاعفت أهمية هذا الطريق البحرى فى الساحل الغربى فى العصر الموحدى وتحول مدينة سبتة فى العصر الموحدى إلى أكبر ميناء تجارى بعد أن أصبحت قاعدة للاسطول الموحدى كما أن سيطرة الموحدين على الاندلس جعلت من تلك البلاد المصدر الرئيسى للمغرب لأغلب ما يصنع من سلع وذلك لان عدد سكان المغرب كان فى ازدياد مستمر ومن هنا كانت تستورد من البلاد الاندلسية مصنوعات كثيرة .

لقد كان أكبر مآثر الموحدين انهم عملوا على المحافظة على الوضع الإسلامى بالاندلس وبذلوا فى ذلك كل طاقتهم بل انهم بذلوا جهودا مضنية لتعمير المدن التى هجرها أهلها مثل قرطبة وباجة وشلب فان كل هذه الجهود قد ذهبت أدراج الرياح ويبدو أن الاخفاق فى سياسة إحياء هذه المناطق الشرقية والداخلية للاندلس له أسباب نفسية ولعل عبد المؤمن وحفيده المنصور كان يدركان تعمير المدن مما جعلهما أن يجعلا قرطبة عاصمة الاندلس ومن ثم شرع فى تشييد الدور وإقامة الأسواق وجعل لأهلها رواتب شهرية تشجيعا لهم لكن روح الانتهازية كانت من أهم العوامل فى انهيار جبهة المواجهة مع العدو حيث اندثرت مدن كبيرة فى البلاد الشرقية والاندلسية وتغير النشاط الاقتصادى بها .

لكن من نقط الضعف فى الحركة الموحدية تأتى من أنها إذا كانت قد نجحت فى القضاء على المرابطين فقد أخفقوا فى تحقيق آمال العامة إذ استمر التباين الاجتماعى ولهذا تعاظم نفوذ المتصوفة وحاول الطامحون إلى الحكم استثمار موجة الصوفية ذلك لان الموحدين أرادوا استثمار هذا التيار الصوفى الذى استقطب العامة- فربطوا حركتهم بالغزالى مدعين تتلمذ ابن تومرت عليه من جهة وادعاء ابن تومرت للمهدية من جهة أخرى فزواج الموحدين بين الفكر الصوفى والمهدى وآمال العامة قد حققت النجاح لابن تومرت لكن شهد عهد المنصور والناصر انحراف الدولة الموحدية

عن تعاليم ابن تومرت . ويبدو أن المنصور شعر بتذكر العامة وخطورة النيابيين الاجتماعي فحاول التقرب إلى العامة بمشروعاته الاجتماعية واستعطف المتصوفة .

وكان محمد بن تومرت مؤسس دولة الموحدية ومفكرها فهو الذى بنى المؤسسات الدستورية التى تقوم عليها قوة الحركة وتعمق الحركة الاستمرارية بل تضمن قوة الدفع وهى مشيخة الموخدين (ايت عشرة وايت خمسين) وبالفعل عندما مات محمد بن تومرت استمرت المشيخة وقامت الدولة وبفضلها تمكن عبد المؤمن بن على من انشاء دولة الخلافة الموحدية . ومن حسن الحظ الذى قاد المشيخة بعده تلميذه عبد المؤمن ابن على يعاونه رجال تؤيدهم قبائل قوية وبفضل الالتحام والتعاون بين البيت الحاكم والمشيخة من السلطة الحاكمة والمؤسسة الدستورية اشتد ساعد الدولة الموحدية .

كذلك ترجع قدرة الدولة الموحدية على اعتمادها على فرع ضخم من فرع البربر هم المصامدة معظم سكان المغرب الأقصى وكان المصامدة مجموعة كبيرة من القبائل التى عمرت المغرب كله من شماله إلى جنوبه وفى هذه المساحة الواسعة بلغت الحضارة المغربية والاندلسية أقصى عصور ازدهارها فبلغت حركة الحضارة والثقافة والنهضة العلمية والمعمارية والفقهية والفلسفية أرفع درجة وصلت إليها فى تاريخها وعلى الرغم من تشدد جمهور الموحدين وبعدهم عن العلوم التى لاتتصل مباشرة بالدين فعصر الموحدين هو العصر الذهبى للفلسفة الإسلامية فى المغرب والاندلس فهو عصر ابن طفيل وابن الرشد وهما من أعظم الفلاسفة فى تاريخ الفكر الإنسانى ، كذلك ظهر أيضا محيى الدين بن عربى أعظم الصوفية الفلاسفة المسلمين .

وهكذا تمكنت دولة الموحدين من مواصلة العمل الإسلامى المجيد الذى قام به المرابطون فقد أقاموا كما سبق القول صرح حضارة إسلامية مغربية أندلسية عرفناها للدور العظيم الذى لعبه الموحدون فى مختلف الجولات المشار إليها ولقد حاولنا هنا أن نغطى أثر الموحدين فى مختلف المجالات بايجاز شديد ، ذلك لأن دور الموحدين فى

مختلف الأنشطة الحياتية يعطى الدليل الملموس على أن الإسلام قوة حضارية دافعة رغم المشاكل والحروب والثورات والمخاطر الخارجية ورغم قصر فترة حكم الدولة الموحدية التى لم تزد فى حكمها القوى الحقيقى ٥٤٠ - ٦٠٩هـ عن سبعين عاما هى فترة سقوط دولة المرابطين وانتهاء بمعركة العقاب التى كانت نهاية الدولة الموحدية فى صورة دولة قوية .

لكن رغم قصر فترة الدولة الموحدية إلا أن عطاءها الحضارى والثقافى والمعمارى والهندسى والعلمى وغيره من المجالات المختلفة كان ذا أثر بارز فى مختلف المجالات التى أدلى الموحدون فيها يدلوهم سواء ظهور علماء الفلاسفة والمتصوفة والأطباء والمهندسين والمعماريين والصناع المهرة وبناء السفن والكبارى وكذلك ازدهار الحياة الاجتماعية والاقتصادية وجعل العامة يعيشون فى بحبوة من العيش بل حياة رغدة ومن هنا استطاعوا أن يدفعوا بالدولة إلى الأمام .

أن التطورات التى شهدتها فترة حكم الموحدين قد تركت آثارا على الحياة الاجتماعية والسياسية التى ارتبطت بالتطورات الاقتصادية .

وهكذا شهد عصر الموحدين انتشارا ورقيا للعلوم الإسلامية والفنون الأدبية ولقد كان ذلك التقدم من أثر تشجيع الخلفاء لاسيما بعد أن شاهدوا آثار التقدم فى الاندلس فقد شهدت مراكش عاصمة الخلافة الموحدية ازدهارا فى مختلف الفنون وشهدت العاصمة أروع آيات الفن فى المساجد العديدة التى بنيت فى هذا العصر . وهكذا كان للموحدون فضلهم فى كل البلاد التى دخلوها فقد عمروها وبرعوا فى مختلف الصناعات وكانت لهم صناعات متفوقة شهد لهم العالم بها وذلك دليل قوى على حيوية الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامى الذى قامت على أساسه دعوة الموحدين حيث كانت حضارة الموحدين تتلاءم مع مذهبهم حيث كانت الدولة سنية تتبع مذهب الإمام مالك ونظم الدولة ترجع إلى أسس دينية .

ولقد كان لدولة الموحدين وثروتها وقوة جيشها وأسطولها القوى سمعة حسنة وبعد انهيار دولة الموحدين ورثتها ثلاث دول هى الدولة الحفصية فى تونس ودولة بنى عبد الواد فى تلمسان ثم دولة بنى مرين فى فاس . ولم تعترف هذه الدول الثلاث بعضها لبعض بالاستقلال فاستمرت الحروب فيما بينهم كما أن دولة رابعة ورثت الموحدين فى الاندلس هى مملكة غرناطة التى استقل بها بنو الأحمر أو بنو نصر (٦٣٥هـ / ١٢٣٨ م). حتى سقوطها . وهكذا وضعت نهاية للدولة الموحدية وانتهى دورها على مسرح الأحداث السياسية فى بلاد المغرب والاندلس والذى نقدمه للقارئ العربى والمسلم لكى يرى كفاح الأجداد فى سبيل الجهاد والمحافظة على العقيدة الإسلامية ودفاعا عن ديار المسلمين .

خلفاء الموحدين

عبد المؤمن بن على	٥٢٤ – ٥٥٨ هـ – ١١٢٠ – ١١٦٣م
أبو يعقوب يوسف	٥٥٨ – ٥٨٠ هـ – ١١٦٣ – ١١٨٤م
أبو يوسف يعقوب المنصور	٥٨٠ – ٥٩٥ هـ – ١١٨٤ – ١١٩٩م
أبو محمد عبد الله الناصر	٥٩٥ – ٦١٠ هـ – ١١٩٩ – ١٢١٣م
أبو يعقوب يوسف المستنصر	٦١١ – ٦٢٠ هـ – ١٢١٣ – ١٢٢٤م
عبد الواحد بن يوسف بن عبد المؤمن	٦٢٠ – ٦٢١ هـ – ١٢٢٤م
أبو عبد الله بن يعقوب المنصور(العادل)	٦٢١ – ٦٢٤ هـ – ١٢٢٤ – ١٢٢٧م
يحيى بن الناصر	٦٢٤ – ٦٢٧ هـ – ١٢٢٧ – ١٢٣٠م
المأمون بن المنصور	٦٢٧ – ٦٣٠ هـ – ١٢٣١ – ١٢٣٢م
الرشيد بن المأمون بن المنصور	٦٣٠ – ٦٤٠ هـ – ١٢٣٢ – ١٢٤٢م
السعيد على أبو الحسن	٦٤٠ – ٦٤٦ هـ – ١٢٤٢ – ١٢٤٨م
أبو حفص عمر المرتضى	٦٤٦ – ٦٦٥ هـ – ١٢٤٨ – ١٢٦٦م
أبو دبوس الواثق بالله	٦٦٥ – ٦٦٨ هـ – ١٢٦٦ – ١٢٧٠م

نهاية الخلافة

الخاتمة

فى تلك الدراسة وهى الجزء الثالث من تاريخ المغرب العربى الإسلامى والذى يتكون من ثلاث أجزاء هى الدولة الفاطمية فى المغرب وهى الدولة الشيعية التى انتقلت بعد ظهورها إلى مصر ثم دولة المرابطين وآخر تلك الدراسة دولة الموحدين التى قامت على انهاء دولة المرابطين فإنه يتضح لنا فى تلك الدراسة التى نتناولها أن المغرب العربى قد شهد قيام الدولة الفاطمية الشيعية التى أسقطت دول المغرب جميعها وهى الدولة الأغلبية ودولة بنى رستم فى تاهرت ودولة الادارسة فى فاس لكى تقوم على أنقاض هذه الدول الثلاث التى حكمت المغرب الأدنى والأوسط والأقصى .

ويتضح لنا أن التشيع كانت بذرته الأول بعد انتقال الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى وبعد سقيفة بنى ساعدة وكان حجة أنصار على أن بنى هاشم أحق أن يخلفوا النبى ﷺ وأن على بن أبى طالب هو آل النبى وأقربهم وكان جمعا من الصحابة يرى أن عليًا أفضل من أبى بكر وعمر ويستدلون على ذلك ببعض الأدلة منها تقديم أسامة بن زيد على أبى بكر وعمر ولم يقدم أحد على على وكان اختيار عثمان بن عفان وتفضيله على على بن أبى طالب سببا فى ظهور التشيع لآل البيت بصورة قوية واستغل عبد الله بن سبأ السخط الذى ساد الولايات الإسلامية ضد سياسة عثمان بن أبى عفان وأخذ يدعو لعلى بن أبى طالب وظهرت دعوته جهرا فى مصر عام ٣٥ هـ . وانتهى الأمر بمقتل عثمان ومبايعة على بن أبى طالب بالخلافة ورفض معاوية ابن أبى سفيان الامتثال للخليفة الجديد وطالب بدم عثمان واشتد التنافس بين بنى هاشم وبنى أمية وباغتيال الخليفة الراشد على بن أبى طالب خلا الأمر لمعاوية بن أبى سفيان .

لكن بعد مقتل على قامت محاولة لمبايعة الحسن بن على . ولقد صارت الكوفة بالعراق مقرا لانصار على بن أبى طالب والساخطين على الدولة الأموية . وكان مقتل على سببا فى بلورة فكرة الحزب الشيعى وقد وقف أنصار هذا الحزب إلى جانب أولاد

على يحرضونهم على تولى الخلافة . حتى كانت نشاطات الشيعة وثوراتهم خلال العصر الأموى ثورات متصلة لكن معاوية بن أبى سفيان دخل الكوفة عام ٤١ هـ وبايعه الحسن والحسين وعاد معاوية بعد ذلك إلى دمشق لكن معاوية أراد أن يأخذ البيعة لابنه يزيد لكن أبناء الصحابة رفضوا أن يبايعوا يزيد وظل الحسين بن على وعبد الله ابن الزبير على موقفهما من مبايعة يزيد . وفى الكوفة ثار الشيعة وأرسلوا للحسين بن على يطالبونه بالخلافة لكن يزيد أرسل إلى الحسين وطلب منه البيعة لكن الحسين خرج إلى الكوفة بعد أن حذره العديد من الذهاب إليها وعدم منازعة بنى أمية لكن الحسين لقى مصرعه على يد قوات الأمويين بالقرب من الكوفة فى كربلاء فى ٦١ هـ/ ٦٨٠ م وكان لمعركة كربلاء أثر خطير فى تطور الأحداث بعد أن أصبح الحسين أبا للشهداء واشتد النزاع بعد ذلك بين الأمويين والعلويين واحتدم بعد مقتل الحسين وفتحت هذه المذبحة باب الفرقة حتى يومنا هذا فى العالم الإسلامى .

وظهرت فرقة التوابون الشيعة وتبلور الحزب الشيعى بعد كربلاء عن عقيدة فى أن الخلافة يجب أن تكون فى الأئمة من آل البيت وأن الامامة من العلويين وكذلك ظهرت بعض الفرق الشيعية التى منها الامامية والزيدية وأصبح الإمام يختلف عن الخليفة عند الشيعة وأن الحركات التى قام بها الشيعة فى العصر الأموى للاستيلاء على الحكم كانت أقوى حركات الشيعة وذلك لإقامة دولة علوية ولكن نتيجة الكفاح فاز بها العباسيون لا العلويون . كذلك ظهرت الفرقة الاثنا عشرية فى ايران بعد الإمامية والزيدية .

لكن رغم ما لاقاه الشيعة من عنف الأمويين ظلوا يتحينون الفرص للثورة لكن بنو أمية أوقعوا نكالا شديدا فى العلويين وأدى ذلك إلى تفرق الشيعة فرقا مختلفة وجميعها تعادى الأمويين وتعتبرهم مغتصبين للخلافة . لذا لم يكن شعار الرضا من آل محمد إلا مناورة ذكية فى الدعوة العباسية . واستغل العباسيون فرصة آلت إليهم بعد

موت محمد بن الحنفية كذلك استغلوا ضعف الشيعة وانقسامهم ومكروا بهم وجعلوا الدعوة شاملة لكى يضمنوا ولاء الشيعة وأن يخفوا اسم صاحب دعوتهم ولم يكن الدعاة يعرفون شخصية الإمام الذى يدعون له . لكن العلويين لم يكونوا مطمئنين إلى الدعوة للرضا من آل البيت . وأعلنت الخلافة العباسية وخدع العلويون بالشعار الغامض وامتنعوا عن مبايعة العباس وأبى جعفر المنصور لكن المنصور وجه إليهم جيشا وقتل محمد النفس الذكية وكان مصرعه شبيهاً بمصرع الإمام الحسين فى كربلاء وحدثت معارك كثيرة منها معركة فخ ولكن انهزم فيها العلويين ونكل العباسيون بالعلويين .

لكن بعد أن قل نشاط العلويين فان العباسيين اتبعوا سياسة المسالمة معهم وأعطى لهم الإمامة بعد أن كانت معركة فخ بالقرب من مكة المكرمة نهاية النهاية ورغم هذه الأعمال الطيبة التى قام بها العباسيون تجاههم إلا أن طابع العنف كان أضعاف ماكان يعنف به الأمويون فاضطهدوهم وطاردوهم وقاتلوهم فى كل مكان وقد أدى ذلك إلى تحول الدعوة الشيعية من العلن إلى السر صيانة لأشخاص الائمة أصحاب الدعوة .

ولقد كانت طائفة الاسماعيلية أنشط فرق الشيعة فقد بثوا الدعاة فى أنحاء العالم الإسلامى المختلفة، خاصة فى اليمن وبلاد المغرب وقد سميت الاسماعيلية بذلك لانهم يقفون عند الإمام اسماعيل بن جعفر الصادق . ولقد كانت محبة الناس لآل البيت العلوى مما دفعتهم للانجذاب نحو الدعاة السريين الذين يدعون للإمام المستتر الذى كانوا يتسترون عليه وذلك لان الشيعة استغلوا رغبة الناس فى تحقيق العدالة والأمن وتنفيذ تعاليم الإسلام الصحيح .

ولقد كان رجال الدعوة الشيعية من الفطانة وبعد النظر فى البحث عن بلد بعيد لم يكن فى متناول القوات العباسية فكان الاتجاه نحو اليمن وكانت تلك البلاد مؤهلة لكى تكون مركزاً للدعوة الشيعية واستقر الرأى على اختيار اليمن لصعوبة الوصول إليها واستقر رستم بن حوشب فى اليمن لكن تفكيره هداه بأن إقامة دولة شيعية علوية ليس

فى اليمن ولكن فى المغرب الأقصى فى المناطق الواقعة غرب نهر شلف والتى لا تخضع لنفوذ الدولة العباسية .

واختار ابن حوشب أبو سفيان والحلوانى وأرسلهما إلى طرابلس وتونس واستقبلهم البربر وساعدوهما وكان ابن حوشب قد اتصل فى صنعاء بعبد الله الشيعى وهو الذى كانت تعقد عليه آمال الحركة الشيعية وقدم الرجل إلى المغرب بعد أبى سفيان والحلوانى . وكان أبو عبد الله الشيعى رجلا موهوبا واسع الحيلة ضليعا فى الفقه الشيعى وغيره من المذاهب الفقهية الأخرى وعندما عهد إليه مهمة الرحيل إلى المغرب ترك له أمر التصرف والتنفيذ ويعتبر أبو عبد الله الشيعى المؤسس الحقيقى للدولة الفاطمية الشيعية . ووصل إلى المغرب عن طريق مكة المكرمة ومصاحبته لوفد من قبائل كتامة حيث تأثروا به ووثقوا به بعد أن ذكرهم بمعركة كربلاء ومعركة فخ وعرفوا أنه عالم ضليع فى الفقه فصحبوه معهم لانه كان يقصد مصر أولا تضليلا لهم ولما وصلوا إلى الفسطاط عرضوا عليه أن يذهب معهم إلى بلادهم ووصل إلى منازل كتامة وكان ذلك عام ٢٨٨ هـ وتوافدت عليه قبائل البربر ونهج فى حياته نهج المعلم المؤدب وكثر أنصاره ومن ثم صار كبيرا لقبيلة كتامة .

ثم تحول إلى مرشد لهؤلاء القوم وبعد أن استطاع أن يجتذب إليه سكان تلك القبيلة والقبائل الأخرى ومن ثم انتقل بأنصاره إلى مكان حصين وحصن بلده تازروت فى جبل الأوراس وبعد ثلاث سنوات من وصوله إلى بلاد المغرب ٢٩١ هـ حض الناس على إقامة دولة الشورى والعدل ودعا إلى تكوين مجلس شورى من شيوخ كتامة والاستيلاء على أرض الدولة الأغلبية وبدأت الحملات على أماكن دولة الأغالبة ووفق فى أول حملة له وانتصر على الأغالبة وكان لهذا الانتصار أثره الكبير فى نفسية أبى عبد الله الشيعى إذ تحول إلى قائد سياسى عسكرى يقود الجيوش وذلك بعد أن تزعزع حكم بنى الأغلب ولقى آخر حكام بنى الأغلب أبو مضر هزيمة قاسية وأعلن أبو عبد

الله الشيعى أن الإمام الحقيقى للمسلمين هو عبيد الله المهدى الذى سوف يظهر قريبا فى المغرب ليحكم الناس بالعدل والحق والمساواة ويرفع الظلم عن الناس . واستطاع فى فترة زمنية وجيزة أن ينجح فى تثبيت دعائم الدولة وذلك بمساعدة «غزوية بن يوسف» زعيم البربر .

وكان إسقاط دولة بنى الأغلب فى القيروان قد شد من عزم أبى عبد الله الشيعى وقواته وكان المهدى وابنه أبى القاسم قد سجنا فى سجلماسة فسير أبى عبد الله الشيعى جيشا فى عام ٢٩٧ هـ / ٩١٠ م قاصدا بنى مدرار وعاصمتهم سجلماسة وتمكن من فك أسر عبيد الله المهدى وابنه والقضاء على صاحب سجلماسة وبويع المهدى بيعة عامة وسلم إليه أبو عبد الله الشيعى الأمر . وهكذا نجح الشيعة الاسماعيلية فى الوصول إلى عرش الخلافة بعد جهاد طويل بل مرير وهكذا ظهرت الدولة العلوية الفاطمية واستوثق لها الأمر ، لكن عبيد الله المهدى قتل عبد الله الشيعى . ولقد أثار نجاح الفاطميين فى تكوين دولة لهم عداء الخلافتين السنتين فى بغداد والاندلس .

وكان ظهور الكيان السياسى للشيعة فى المغرب المتمثل فى الدولة الفاطمية ماهو إلا ثمرة من ثمرات كفاح الشيعة من أجل نصرة العلويين بالإضافة إلى كونه من أسباب صراع السلطة والأزمات السياسية فى العالم الإسلامى .

أخذ عبيد الله المهدى بعد بيعة القيروان يوطد سلطته فى البلاد لذا كان التفكير فى بناء عاصمة جديدة على ساحل البحر المتوسط حيث أن دولته الجديدة لاتزال تحيط بها الأخطار واختار لها اسم المهدية وكانت المهدية مركزا حصينا يعتمد على البحر . كما كانت مركزا مناسبا لإرسال الحملات الحربية لإخضاع الثورات . ولكن البربر لم يدينوا للفواطم بالولاء . فعمل المهدى على القضاء على مصادر القلق والتوتر حيث بسط سلطة الدولة فى المغربين الأقصى والأوسط . وقد حكم عبيد الله المهدى خمسا وعشرين عاما ثبت خلالها قواعد البيت الفاطمى فى افريقية (تونس) والمغرب

الأوسط والأقصى بالقوة العسكرية لكن انتشرت فى عهده مقاومة المغاربة ممثلة فى رجال الدين والفقهاء المالكية ولم يستطع إقرار السكينة فى البلاد بسبب موقف الفقهاء المالكية ولم تستطع الدولة الفاطمية أن تكسب أرضية لها فى مناخ المغرب الدينى السنى المالكى مما كان حافزا للمهدى للتفكير فى الاتجاه شرقا والانتقال إلى مصر ومحاولة الاستيلاء عليها . فأرسل فى عام ٣٠١ هـ / ١٩١٤ م جيشا بقيادة ابنه أبى القاسم إلى مصر زحف إلى الاسكندرية والجيزة والفيوم، لكن الجيش هزم واضطر للعودة، لكن فى عام ٣٠٢ هـ / ٩١٥ م جاء جيش ثان واستولى على الاسكندرية لكن الجيش الفاطمى تمت هزيمته وأرسلت حملة ثالثة عام ٣٠٧ هـ / ٩٢٠ م بقيادة أبى القاسم ابن الخليفة وتتابعت الحملات الفاطمية على مصر لكن أشدها خطرا كانت عام ٣٢١ هـ لكن العباسيين بقيادة محمد ابن طغج الاخشيد استطاعوا صد هذه الحملة وكانت هذه آخر حملة أرسلت إلى مصر فى عهد الخليفة الفاطمى الأول عبيد الله المهدى .

ولقد واجهت الدولة الفاطمية فتنة أبى اليزيد بن مخلد بن كيداد والتى بدأت فى عهد عبيد الله المهدى وزادت فى عهد خليفته أبى القاسم والخليفة المنصور وقد نجح فى حصار القيروان ونجح فى اقلاق الفاطميين ونجح فى سحق جيش شيعى أرسله الخليفة من المهدية ولكن فى نهاية الأمر انتصرت الدولة الفاطمية عليه .

بويع الخليفة أبى القاسم بأمر الله بعد وفاة عبيد الله المهدى وكان قد عاش مع والده أحداث الدولة الشيعية وكان الخليفة أبى القاسم قد بذل جهودا جبارة فى مقاتلة أبى اليزيد الخارجى والتى استنفذت جهدا كبيرا من الخليفة الشيعى الثانى حيث استغرقت أربعة عشر عاما وتوفى الخليفة الشيعى الثانى وتولى بعده الخليفة المنصور وفى عهده انتهت ثورة أبى اليزيد ولقب بالمنصور بعد انتصاره على الخوارج وكان المغرب الأقصى قد انتهز فرصة الاضطرابات التى سادت الدولة الفاطمية ليعترف بسلطة بنى

أمية لكن المنصور استطاع أن يحرز الانتصارات وأن يقضى على الثورات وبوفاة المنصور تولى أمور الخلافة الخليفة الرابع والأخير فى المغرب المعز لدين الله الفاطمى وفى عهده أتم الفاطميون فتح مصر عام ٣٥٨ هـ . وهكذا نرى كيف أن الدولة الفاطمية مضت أكثر من نصف قرن فى المغرب حكم فيها أربعة خلفاء وكان آخرهم المعز لدين الله الفاطمى أكثر من عشرين عاما فى المغرب ثم رحل إلى القاهرة بعد أن بناها المعز لدين الله الفاطمى وبعد السيطرة على مصر بأربعة أعوام .

ولقد تمت عدة انجازات طوال حكم الفاطميين فى المغرب فقد اهتموا بالبحرية وكان انشاء المهدية كعاصمة له أثر عظيم فى تدعيم أسطولهم فقد كانت دار صناعة للسفن ولقد أحرزت هذه الأساطيل عدة انتصارات منها فى جنوب ايطاليا وصقلية وجزيرة جربة وتم تدعيم الأسطول الفاطمى فى مياه البحر التيرانى وهاجم مدينة جنوه وسردانية وكورسيكا وسواحل ايطاليا . ولقد عكف الفاطميون على العناية بالأسطول وزيادته حتى أصبحت المهدية من أهم الموانئ الحربية فى حوض البحر الأبيض المتوسط.

ولقد كان التقارب بين بنى أمية فى الاندلس والبيزنطيين سببا فى استئناف الدولة الفاطمية غزوها لسواحل ايطاليا وفى نفس الوقت هاجم الاسطول الفاطمى مدينة المرية فى الاندلس . وكانت سياسة الفاطميين تقوم على استغلال الظروف وعلى التسامح لذا استمرت الدعاية الشيعية الاسماعيلية فى جزيرة صقلية ومالطة .

ولقد كان من الطبيعى أن تمارس صقلية العربية الإسلامية دورها الحضارى والثقافى والتعليمى لابناء أوربا وكان يحكمها الكلبيين من قبلهم واستمر حكمهم لها أكثر من تسعين عاما وكان الانجاز الكبير الذى تم فى عهد الفاطميين إضافة إلى الانجاز البحرى وحكم صقلية هو فتح مصر وإقامة خلافة فاطمية اسماعيلية شيعية فى مصر وكانت ظروف مصر الداخلية تؤهل المعز لدين الله للقيام بالغزو إذ بعد وفاة كافور الاخشيد عام ٣٥٧ هـ انهارت المقاومة وكثرت الاضطرابات وارتفعت الأسعار وتعذر

وجود القوات واختلف العسكر وكانت حروب كثيرة بين الجند والامراء قتل فيها خلق كثير بالإضافة إلى أن الخلافة العباسية بدأت عوامل الضعف تتسلل إلى كيانها ولم يكد شهر رجب ٣٥٨ هـ يهل حتى سقطت الاسكندرية وفى شعبان ٣٥٨ هـ دخل جوهر الصقلى الفسطاط على رأس جيشه وتم تخطيط القاهرة بعد الفتح الفاطمى لمصر بعام وفى رمضان عام ٣٦٢ هـ وصل إلى القاهرة المعز لدين الله الفاطمى وبقدومه للقاهرة طويت صفحة الخلافة الفاطمية الشيعية فى المغرب وتلك نهاية الجزء الأول من هذا البحث عن الفاطميين والمرابطين والموحدين بالمغرب .

وفى هذا الجزء الثانى كانت الدراسة عن خلافة المرابطين فى المغرب والاندلس حيث يستبين لنا كيف أن قبائل صنهاجة الصحراء كانت بحكم انتشارها تحيا حياة الاستقرار كما أن قبائل الجبل كانت تتنقل صيف شتاء طلبا للرعى وقد ظلت رابطة الدم والثقافة المشتركة تؤلف بينهم وقد انتشروا فى المغرب الأقصى بعد أن توغلت قبائلهم فى غرب أفريقيا وقد كانت هذه القبائل تندفع إلى الصحراء موجة أثر موجة حيث فرت بعض القبائل الصنهاجية إلى الصحراء حيث وجد فريقا من صنهاجة يحتل أطراف الصحراء جنوب جبال درن وأخذت تعمل على نشر الإسلام بين قبائل السودان وأخذت هجرتها نحو الجنوب طابع الجهاد المقدس فأخذت تدفع السود نحو الجنوب حتى تم لها إدراك منحنى نهر النيجر فى هجرتها وهذا هو الوطن الذى تتحرك فيه قبائل الملثمين وكانت قبيلة لمتونة أهم هذه القبائل وإلى الجنوب من قبائل لمتونة توجد قبيلة جدالة التى وصل نفوذها حتى مصب نهر السنغال ثم قبيلة مسوفة التى كانت أقرب ديار الملثمين إلى بلاد السودان .

وكانت المناطق التى تعيش فيها قبائل الملثمين مناطق عزلة تمكن لهذه القبائل أن تعيش مستقلة وليس هناك شك فى أن هذه القبائل لها تراث حضارى قبل أن تنحدر من مواطنها فى الشمال وقد كانت قبائل بدوية ذات نصيب من الحضارة ومن هنا كان

عليها أن تكسر الطوق الذى يحاصرها من الشمال والجنوب لكى تقوم بدورها فى ساحة التاريخ الإسلامى وكان عليها أن تعد العدة للتوسع شمالا باختراق جبال درن والاغارة فى سهول المغرب الأقصى أو التقدم صوب الجنوب حيث مملكة غانا الزنجية .

وكانت قبائل لمتونة وجدالة ومسوفة فى قوة عنفوانها الإسلامى حيث كانت متحمسة لنشر هذا الدين الجديد ومن هنا كان الطريق ممهدا أمام زحف الملثمين الذين ألهب الإسلام حماسهم جنوبا لإحراز عدة انتصارات على شعب غانا والمضى جنوبا على مقربة من منحنى النيجر كما وضع الملثمون أيديهم على مدينة أودغست لكن هذه القبائل الصنهاجية القوية كانت فى انتظار زعيم يرد إلى الوحدة صفوفها لكن مع إطلالة القرن الخامس الهجرى كانت صنهاجة الجنوب لاتزال متفرقة ، لكن أكبر هذه القبائل (لمتونة وجدالة ومسوفة) كان عليها أن توحد كلمتها لكى تقوى على مدافعة غانا والمحافظة على طرق التجارة .

لكن قبيلة جدالة عقدت الزعامة ليحيى بن عمر بن ابراهيم الجدالى الذى عرف أنه قد آن لهذه القبائل أن تتألف على سياسة روحية والتمسك بالدين لانه أساس تكوين دولة قوية ومن هنا حرص على أن يخرج إلى بلاد المغرب الأقصى لا طلبا لاداء فريضة الحج لكن بحثا عن حقيقة العلم والإسلام وأخذ يرتاد مدارس المغرب طلبا للعلم وكانت القيروان هدفه حيث هو مركز الفقه المالكى بعد انتصارها على الفاطميين والزيريين وقصد الشيخ « أبو عمران الفاسى » الذى ذاع صيته فى المغرب والاندلس وطلب منه فقيها يعلم البربر علوم الإسلام الصحيح وأن يقيم وحدة صنهاجية لكى يكون عونا له بعد أن صور للشيخ عمران وجوب الاهتمام بهذه القبائل الجنوبية وأن يقيم بها فقيه فكتب أبو عمران الفاسى للزعيم الجدالى كتابا إلى أحد تلاميذه من فقهاء المغرب الأقصى وهو (وجاج بن زلو اللمطى) وهو من إحدى قبائل صنهاجية الصحراء وكان على الفقيه « وجاج بن زلو اللمطى » أن ينفذ رسالة إمام القيروان فوقع

اختياره على تلميذ من تلاميذه صنهاجي الأصل يدعى « عبد الله بن ياسين » وقبل عبد الله طلب أستاذه بناء على كتاب فقيه القيروان أبي عمران الفاسي ودخل عبد الله بن ياسين الصحراء بصحبة زعيم جدالة وتوجه إلى منازل قبيلة جدالة وأخذ يسعى لتحقيق الهدف واستطاع أن ينفذ إلى قلوب الناس واتخذ لنفسه نهج فقهاء القيروان بالشدة والحزم فقاموا عليه وعزلوه عن الرأى والمشورة وكان السادة وعلية القوم هم الذين تخطو عليه وتبرموا من حكم الكتاب والسنة .

وخرج عبد الله بن ياسين قاصدا المغرب لكنه عاد إلى الجنوب بعد تدخل الأمير يحيى بن ابراهيم الجدالى وكان عبد الله بن ياسين رجلا نشيطا وكان عظيم الإيمان بالإسلام وعهد عبد الله بن ياسين مع سبعة من زعماء جدالة إى بناء رباط فى جزيرة قرب مصب نهر السنغال وذلك بقصد الجهاد ونشر الإسلام بين الزنوج ووقف عدوانهم والاغارة على ديار الملثمين لاسيما ديار جدالة القريبة من حوض السنغال . وتقاطر عليه كثيرون يشاركونهم حياتهم وسرعان ما تطور هذا الرباط وأصبح مركز دينيا واجتماعيا وحربيا وحملوا السلاح وكلما كثر أنصاره بدأ رباط السنغال يدخل فى طور جديد وانه لابد من تحقيق الأهداف التى كان يسعى إلى تحقيقها وهى توحيد قبائل الملثمين .

وقد قنع عبد الله بن ياسين بدور الإمام الدينى أما الدور السياسى أو الحاكم أو القيادة العسكرية فقد تركت للزعيم يحيى بن عمر بن ابراهيم اللمتونى ليقود معركة الجهاد الكبرى . وقد بلغ عدد رجاله ثلاثة آلاف رجل وبعد أن أتم عبد الله بن ياسين تنظيم مجتمعه واتجهت هذه الجموع صوب مدينة أودغست واستطاعوا هزيمة الزنوج ودخول المدينة . واستطاع عبد الله بن ياسين أن يتجه شمالا إلى جدالة بعد اخضاعها لإخضاع لمتونة مباشرة ودخلت لمتونة فى طاعة المرابطين وهكذا استطاع ابن ياسين أن يصنع المعجزة وأن يخضع ربوع الصحراء من جبال درن فى الشمال إلى منحنى النيجر جنوبا ثم الاتجاه شمال جبال درن واستطاعوا فتح سجلماسة وبذلك فتح أمامها أبواب

التوسع شمالا وجنوباً وبدأت قبائل لمتونة وجدالة ومسوفة ولمطة وجزولة تتوسع جنوبا وبذلك كسر الإسلام النطاق ووصل إلى شعوب افريقيا السوداء . ومن هنا استطاع ابن ياسين أن يضع أساس دولة جديدة واتخذ لقومه أميرا يتولى أمرهم ويقود جيوشهم . لكن أثناء الحروب فى الشمال قتل عبد الله بن ياسين عام ٤٥٧ هـ / ١٠٥٩ م .

وعندما قتل ابن ياسين كان سلطان أبى بكر بن عمر وقبيلته لمتونة قد استقر وطاعت له كل قبائل لمتونة الصحراء وقاد انتصاراتهم على الزناتيين فى الشمال وقبائل افريقية المدارية فى الجنوب . وبدأت قبائل المرابطين تتجه إلى المغرب الأقصى وكان ذلك بداية دور جديد لان هزيمة الزنوج ونشر الإسلام فى بلادهم جعل المرابطين لايخشون أن تطعن ظهورهم فكان على الملثمين أن يناضلوا زناتة وأن يجتاحوا اقليم السوس الأقصى والسيطرة على المصامدة وبسط نفوذهم على اقليم مراكش الجنوبية وكذلك مدينة اغمات .

وبذلك سار أبو بكر بن عمر بالحركة فى طريقها الذى رسمه ابن ياسين وتم بناء مدينة مراكش . لكن توقفت حركة الزحف شمالا لعودة أبى بكر بن عمر للجنوب لصراع بين القبائل وتقدم الزنوج شمالا ووقع اختياره على ابن عمه يوسف بن تاشفين حيث ترك ثلث قواته تحت قيادة يوسف واستطاع المرابطون دخول مكناسة وفتح الطريق إلى فاس وتمت لهم السيطرة عليها وبسقوط فاس تنتهى الحلقة الأخيرة من حلقات الصراع بين زناتة والمرابطين وبسطت صنهاجة الجنوب سيطرتها كاملة على المغرب الأقصى ولم تعد بالمغرب الأقصى قوة تذكر سوى صنهاجة .

وكان المرابطون يطبقون فى المغرب الأقصى نفس السياسة التى طبقوها فى الصحراء حيث كان وراء زحفهم أسباب دينية بقصد الاصلاح واستطاع المرابطون بسط نفوذهم على كل المغرب الأقصى وفرقوا شمل قبائل براغوطة واستطاع المرابطون بهذا الفتح فتح الطريق إلى طنجة وبذلك أصبحوا على مقربة من عدوة الاندلس بعد أن صار

المرابطون سادة المغرب بعد الكفاح الطويل الذى استغرق عشرين عاما من عمر دولة المرابطين . ولذا سيلعب المرابطون دورا على مسرح الأحداث السياسية فى المغرب والاندلس يسجله التاريخ الإسلامى بحروف من نور فخرا واعزازاً للدور الإسلامى الخالد فى الاندلس .

وقد سيطر المرابطون على مدينتى سبتة وطنجة وكان ذلك يعنى اتخاذهم أسطول يحمى سواحلهم . وقد حكم يوسف بن تاشفين تلك الأقاليم الواسعة بالعدل والفطانة وإدارة تنظيمه . وعلى هذا فقد أتم يوسف بن تاشفين دور أستاذه ومعلمه ابن ياسين ووثق فيه القادة السياسيون والزعماء ولم ينتهى عام ٤٧٥ هـ / ١٠٨٢ م حتى وصل يوسف بن تاشفين إلى ذروة قوته فى المغرب . وكان استيلاء المرابطين على طنجة وسبتة قد جعلهم يطلون على سواحل البحر المتوسط وينظرون إلى ما يجرى فى البحر المتوسط وما يجرى خلفه من صراع سياسى وحربى بين المسلمين والفرنجة وما يجرى فى الاندلس تهلع له قلوب المسلمين فكان لابد أن تتدخل الدولة فى المعركة الدائرة رحاها بين المسلمين والفرنجة لان أمر المسلمين فى الاندلس قد وصل إلى درجة السوء من الضعف بل انها تنامت فى السوء ووضح للناس أن النهاية آتية وكان الفقهاء والمفكرون يلقون الضوء على الفساد ويهيئون العقول لقبول تحول جديد فى تاريخ البلاد ويمهدون الطريق لفتح صفحة فى تاريخ الاندلس أمام زحف المرابطين إضافة إلى رحيل الفقهاء والعلماء إلى المغرب وكان يوسف بن تاشفين يضع الاندلس من الأهداف الأساسية للجهاد وكان المرابطون يعدون العدة لخوض معركة الاندلس مهما كلفهم ذلك من خسائر وكانت حركة الاسترداد فى عهد « فرناندو » قد اتخذت صفة دولية وبدأ النصارى ينظرون إليها كجهاد مقدس وأصبح يطالب باخضاع جميع المسلمين واجلائهم عن البلاد . فى تلك الظروف لم تستطع القوى الإسلامية أن توحد صفوفها وكان الملك ألفونسو السادس يرمى بنظره إلى طليطلة لتحقيق أهدافه واستطاع أن يسقط المدينة فى يده . لكن سقوط طليطلة فى يد ألفونسو السادس كان لها أثر عظيم فى طرد

المسلمين والهاب حماس القوى النصرانية للقضاء على المسلمين نهائيا من الاندلس . ورغم هول الصدمة وشدة تأثيرها فان القوى الإسلامية (ملوك الطوائف) أدركوا أن مصيرهم كله مثل طليطلة لاسيما بعد أن أخذت قوات المسيحيين تتوغل جنوبا وتستولى على معظم بلاد المسلمين فاضطر ملوك الطوائف إلى طلب النجدة من المرابطين .

وفى عام ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م عبرت قوات يوسف بن تاشفين إلى الاندلس بحشد ضخم استطاع المرابطين بعده الاستيلاء على الجزيرة الخضراء وبدأت القوات تحتشد عند سبتة قادمة من المغرب لانقاذ الاندلس وأصبح الاندلس وكأنه معكسر واحد كبير وهكذا تحقق الهدف الذى الذى كان يسعى إليه يوسف بن تاشفين وهو حشد القوى الإسلامية والوقوف فى خندق واحد والوقوف أمام زحف الملك ألفونسو السادس بعد استيلائه على طليطلة ومحاولة القضاء المبرم على قوات المسلمين وجاء النذر بأن صداما لابد واقع وكانت القوى الإسلامية قد دخلت أشبيلية وغادرت القوات المسيحية سرقسطة وأقبل ألفونسو السادس بحشوده وصارت قواته على بعد ثلاثة أميال من معسكر المسلمين فى الزلاقة وكان مصير المغرب والاندلس معلقا بتلك المعركة التى اضطلع المرابطون بالعبء الأكبر فى القتال بها حيث أطبق المسلمون على القوات الصليبية من الإمام والخلف وحاقت الهزيمة بها وخرج ألفونسو السادس خاسرا وفر من ميدان المعركة . وكان لهذا الانتصار أثره الحاسم فى سير الحوادث فى الاندلس فقد تحطمت القوة الضاربة للقوات الصليبية وانكمشت ليون وقشتالة وتوقف تقدمها نحو الجنوب وأبيدت قوات قشتالة وليون وتوقف تقدم البرتغال فى غرب الاندلس . وأصبح هذا الانتصار فخارا للمرابطين .

وبعد معركة الزلاقة بفترة قصيرة توفى أبو بكر بن عمر زعيم المرابطين وابن عم يوسف بن تاشفين عام ٤٨٠ هـ وقد تكون الأحداث الداخلية فى المغرب وتلك الوفاة حالت دون تعقب يوسف بن تاشفين لألفونسو السادس وإعادة مدينة طليطلة وعاد

يوسف إلى المغرب وتمت البيعة له ولكنه كان مطمئناً على الاندلس لان الجزيرة الخضراء كانت لاتزال تحت نفوذ المرابطين وأنه كان يرى ضرورة التدخل حتى لاتضيع الجهود الذى بذلها سابقا .

وكان عبور يوسف للمرة الثانية إلى الاندلس عام ٤٨١ هـ حيث أطبق المسلمون على حصن لبيط واستطاع المرابطون تحقيق أهدافهم بالقضاء على هذا الحصن الذى يهدد ديار المسلمين . لكن يوسف هذه المرة كان يهدف إلى توحيد القوى الإسلامية فى الاندلس . بعد أن تأكد أن ملوك الطوائف ليسوا بقادرين على الدفاع عن بلادهم وصون كرامة الإسلام بل خانوا أمانة شعوبهم وعقيدتهم وتحالف بعضا منهم مع أعداء الدين . وقد لعب رجال الدين والفقهاء دورا فى القضاء على هؤلاء الأمراء وخلعهم بعد أن اتضح للعامة أنه لم يعد خيرا يرجى منهم . واستطاع قادة جيش المرابطين أن يبسطوا لواء دولتهم على جميع الولايات التى كانت تخضع لامراء متعددين وتم توحيد الجبهة الإسلامية الاندلسية وتوحد الشعب الاندلسى تحت قيادة مرابطية .

ومن ذلك الوقت وقع عبء القتال والجهاد الإسلامى على عاتق القوات المرابطية وبدأت حركة الجهاد تدخل طورا خطير لايقل عن الجهاد السابق فى المغرب والأحداث التى سبقت معركة الزلاقة وحصن لبيط وذلك بعد أن فرض الاندلس على المرابطين مسئولية ثقيلة ، واستطاعوا بعد كفاح طويل فى شرق الاندلس دام أكثر من عشر سنوات أن يحرزوا العديد من الانتصارات وأن يحرروا العديد من المدن والقلاع والحصون وأن يحرزوا نصرا كبيرا على السيد القمبيطور فى معركة بنلسية وأدى سقوط هذه المدينة فى أيدى المرابطين إلى سقوط الجهة النصرانية فى شرق الاندلس وأوغلت قوات المرابطين فى تلك الانحاء . ولقد عاون « بنو هود » فى تلك الانحاء المرابطين مما كان له أكبر الأثر فى توطيد النفوذ الإسلامى .

وكان أن عبر يوسف بن تاشفين إلى الاندلس للمرة الرابعة والأخيرة عام ٤٩٧هـ / ٢١٠٣ م ليضع الأسس القوية لبناء الدولة الجديدة واستطاع أن يؤسس دولة مرابطية مغربية أندلسية حطمت أحلام القوى المسيحية ومات يوسف عام ٥٠٠ هـ / ١١٠٧ م فى مراكش بعد أن دفعت به العناية الإلهية لكى يلعب دورا حاسما فى الوقوف فى وجه حركة استرداد الاندلس ومحاولة اطفاء الأنوار الإسلامية وبعد أن قاد حركة الجهاد طوال خمسين عاما صارع فيها أقوى رجلين فى الاندلس هما ألفونسو السادس والسيد القمبيطور والبابوية المسيحية فى روما والقوات الأوربية التى وقفت خلفها فى الصراع الدائر فى الاندلس .

وكان أول عمل اهتم به يوسف بن تاشفين بعد دخول المرابطين سبتة وطنجة بناء أسطول للنقل لا بناء سفن القتال لانه كان يهدف إلى نقل الجنود والمعدات وحفظ المواصلات بين المغرب والاندلس لكن انتصار الزلاقة مكنهم من بسط نفوذهم على مناطق بها دور صناعة للسفن وبذلك استطاعوا خلق قوة بحرية منظمة وقيادات بحرية ماهرة استطاعت أن تقود الأساطيل المرابطية وقد أشار ابن خلدون إلى قوة الأسطول المرابطى ودوره فى حركة الجهاد الإسلامى فى غرب البحر المتوسط وقد استفاد المرابطون من خبرة أهل السواحل المشتغلين بركوب البحر وزاد عدد القطع البحرية المرابطية فقد جهز على بن يوسف بن تاشفين ثلاثمائة سفينة لانقاذ جزيرة ميورقة من هجوم النورمان ولم يقتصر نشاط الأسطول المرابطى على محاربة أطماع الايطاليين والفرنسيين والقطلايين بل وقف أطماع النورمان فى السيطرة على سواحل دولة بنى زيرى . وقدم المرابطون خدمات جليلة للبحرية الإسلامية سواء فى المغرب أو الاندلس طوال فترة حكمهم القصيرة ، بل لقد لعبت دولة المرابطين دورا بالغ الأثر فى الحروب الصليبية فى الشام إذ أن دخولهم الاندلس قد حال دون مساهمة الممالك المسيحية الاندلسية فى الحملات الصليبية التى كانت تتجه إلى بلاد الشام . بل أن ظهورهم فى تلك المرحلة التاريخية فى المغرب والاندلس قد حال دون اشتراك القوى

الأوربية بكل ثقلها فى الحروب الصليبية فى الشرق وبذلك تكون مدافعة المرابطين للخطر الصليبى وانقسام القوى الصليبية الأوربية بين الشرق والغرب قد أدى خدمات جليلة للشرق الإسلامى، بل إن بعض المرابطين رحلوا إلى بغداد وخطبوا يدعون للجهاد وهكذا قدم المرابطون الخير كل الخير للعالم الإسلامى .

وكان قد تولى أمور البلاد بعد يوسف بن تاشفين ابنه على الذى سار على شاكلة أبيه فى جميع النواحى وعمل على دفع الأخطار التى تهدد الدولة لاسيما من أمراء الاندلس المسيحيين وانتهز فرصة الخلاف الذى وقع بينهم وعبر الاندلس عام ٥٠٠ هـ / ١١١٨ م واستولى على طليطلة ومدريد ووادى الحجارة وعاد إلى المغرب بعد أن ترك بالاندلس جيشا ضخما ومن ثم اضطر للعبور للاندلس عام ٥١٥ هـ / ١١٣٤ م وحقق عدة انتصارات لكنه عاد إلى المغرب ليواجه الأخطار من قبل الموحدين الذين عملوا ضد المرابطين وتحالفت هذه الأزمات ضد خط سير حركة المرابطين فى صد الهجوم الصليبى فى الاندلس مما عجل بانتهاء هذه الدولة ومات يوسف عام ٥٣٧ هـ / ١١٤٢ م بعد أن حكم سبع وثلاثين عاما قضاها فى مواجهة المشاكل فى المغرب والاندلس .

وقد اضطر المرابطون إلى توجيه قواهم إلى صراع الموحدين بالمغرب وبهذا حرم الاندلس من جهودهم . وتوفى تاشفين بن على عام ٥٤٠ هـ / ١١٤٥ م ثم ابراهيم بن تاشفين ثم اسحاق بن على بن يوسف فى نفس العام وبذلك انتهت دولة المرابطين.

ولقد تركت دولة المرابطين مظاهر حضارية راقية فى الاندلس والمغرب وحققوا انجازات سياسية وعسكرية وثقافية واقتصادية فى شتى الميادين ولقد كانت دولة أمينة على تراثها الإسلامى واستطاعت أن تؤلف بين القوى الثلاث (المغرب والاندلس والسودان) وتدفقت ثقافة الاندلس على بلاد المغرب وكان لها دور واضح فى مفهوم

الحكم والقضاء والثقافة الإسلامية وظهور أنماط حضارية ذات أبعاد واحدة بعد أن جمعت أقطارا واسعة وقام المرابطون بواجب الجهاد فى سبيل رفع لواء الإسلام كما أن الدعوة الدينية التى قامت على أساسها دعوة المرابطين أشاعت فى الناس روح الثقة والأمان وكان الأمراء والسلاطين والملوك قدوة للرعية والولاة ومن مآثر المرابطين ظهور فن بناء الحصون والقلاع والأربطة وشحنها بالجنود والعتاد والأطعمة وكانت أعداد هذه الحصون تزيد عن عشرين حصنا .

وقدم المرابطون للحضارة الإسلامية الشئ الكثير الذى لازالت أثاره خالدة فى حضارة الإسلام وحافظوا على حضارة المغرب الأوسط والأقصى من الضياع ، كما خطت العلوم العربية خطوات واسعة نحو الانتشار فى عهدهم فى المغرب وانتشرت اللغة العربية بين البربر على نطاق واسع وزاد الاهتمام بالفقه والشريعة وعلوم القرآن الكريم والحديث وعملوا على نشر المذهب السنى المالكى . كما قضوا على بقايا المذاهب المنحرفة وقطعوا دابر المذهب الأباضى (الخوارج والشيعى والمعتزلة) بل إن للمرابطين الفضل فى الوحدة العقائدية السنية المالكية التى تميز المغرب الأقصى وهكذا أتم المرابطون وحدة المغرب الأقصى الثقافية كما أن العصر المرابطى يعتبر العصر الذهبى للتراث الإسلامى الغنى فى المغرب الأقصى .

وبل أكثر من ذلك فإن مساجد فاس كانت ملتقى الطلاب من كافة البلاد تدرس بها مختلف العلوم ولم تكن قاصرة على علوم الدين والقرآن الكريم والحديث النبوى والتفسير والفقه وإنما كانت تدرس بها علوم الرياضة والفلك والجغرافيا وقد أطلق على هذا المسجد اسم جامعة القرويين وهى أول جامعة إسلامية كانت تدرس فيها مختلف العلوم لكافة المراحل الطلابية .

لقد تركت دولة المرابطين التى لم يصل عمرها الزمنى إلى مائة عام بصماتها واضحة فى جميع المجالات الحضارية فى المغرب والاندلس ومن هنا فإن الذين يدرسون

تاريخ تلك الدولة التى وضع أساسها عبد الله بن ياسين فقيه المالكية الضنهاجى وأقام عمادها القوى يوسف بن تاشفين تظل أعمالها وانجازاتها فى صفحات التاريخ الإسلامى شاهدة على حيوية الإسلام وارتفاع رايات الجهاد الإسلامى لكى تقف فى وجه القوى الغاصبة التى تريد اطفاء أنوار الإسلام ، لكن حقت كلمة الله لتكون الراية متصلة بأيدى أخوة الإسلام من الموحدين .

وفى الباب الثالث من تلك الدراسة يتضح أن الموحدين بقيادة محمد ابن تومرت استطاعوا أن يحذوا حذو قبائل لمتونة فى قيام المصامدة بتكوين دولة لهم وكان ذلك باعثا فى نفوس المصامدة لانشاء دولة . ولكن تلك الدولة قامت على أساس دينى ودعوة طابعها التجديد وهدفها تحقيق وحدة إسلامية شاملة ومؤسس هذه الدعوة الفقيه محمد بن تومرت الهرغى المصمودى الذى بايعه أنصاره على الدفاع عن دعوته حتى الموت وكان ابن تومرت قد أقام دعوته على أساس الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وإعلان حرب على المرابطين واتهامهم بالمسئولية عن فساد المجتمع وأنه كان يسعى لإقامة دولة للشعب المصمودى ففى عام ١١٢٥ م شيد ابن تومرت رباطا له وبدأ يحارب المرابطين فكريا ودينيا . وبعد أن تأكد ابن تومرت من تكوين جماعة قوية من الاتباع انتقل بهم إلى موقع فى قلب جبال أطلس وأطلق على كل من آمن بدعوته اسم الموحدين وأخذ فى تنظيم جماعته فكان هو القائد الروحى والعسكرى والفقيه والقاضى وجعل جماعاته طبقات وجعل مجلس العشرة وهم أول تلاميذه والطبقة الثانية هى مجلس الخمسين وهو شيوخ القبائل . وكانت الخطوة القادمة لابد أن تكون حاسمة فى تحقيق حلمه السياسى لكى تظهر قبيلة مصمودة على مسرح الأحداث السياسية فى المغرب الأقصى توطئة لتحقيق الصدام مع المرابطين لانه فى عام ٥٢٤هـ/ ١١٢٩ م قرر محمد بن تومرت أن يتحدى قوة المرابطين بعد أن حشد أربعين ألف جندى لكن ابن تومرت أخطأ لان الجيش الموحدى لقى هزيمة قاسية وهلك فى هذه المعركة صفوة رجاله المخلصين وسميت معركة البحيرة ومات ابن تومرت بعدها بقليل

٢٢٤ هـ / ١١٣٠ م وكان على عبد المؤمن ابن على وأبو حفص عمر الهنتاتى ثانى شخصية فى الدولة الموحدية أن يقودا الدولة التى لازالت فى طور التكوين والبناء واستطاعا إخفاء موت ابن تومرت ثلاث سنوات رغبة فى عدم اشاعة ذلك حتى تتكون المؤسسات للدولة وكان عبد المؤمن فى حاجة إلى هذه الفترة الزمنية لكى يثبت دعائم الكيان السياسى لدولة الموحدين .

وكان عبد المؤمن قد بدأ التصادم الفعلى القوى مع المرابطين حيث اشترك عام ٥٣٣ هـ / ١١٣٩ م فى معركة حاسمة مع تاشفين بن على بن يوسف انتصر فيها وأنه لم يأت عام ٥٣٧ هـ / ١١٤٢ م إلا وكان نفوذ الموحدين قد انتشر فى الجزء الجنوبى الغربى من مراكش وفى عام ٥٣٨ هـ / ١١٤٣ م انتصر عبد المؤمن بن علىّ على علىّ تاشفين بن على فى معركة قرب تلمسان ويعتبر موت تاشفين بن على فى عام ٥٣٩ هـ / ١١٤٥ م بداية النهاية الفعلية لدولة المرابطين لكن خلفه ابنه ابراهيم بن تاشفين لكنه قتل عام ٥٤٠ هـ واستطاع الموحدون الاستيلاء على مراكش وفى محرم ٥٤١ هـ / ١١٤٦ م دخل عبد المؤمن مراكش وتم قتل اسحاق بن على بن يوسف آخر خلفاء المرابطين وبذلك أصبح الموحدون سادة المغرب الأقصى وجزء كبير من المغرب الأوسط وبذلك استطاعت العصبية المصمودية بقيادة محمد بن تومرت أن تقضى على دولة المرابطين ويصل نفوذ الموحدين إلى ساحل البحر الأبيض المتوسط . وكان لهذه السياسة الموحدية تلك النزعة الاستقلالية أثر كبير فى غلبة العناصر البربرية .

وفى عام ٥٤١ هـ / ١١٤٦ م صار عبد المؤمن بن على خليفة المغرب ومن ثم عمل على ضم الاندلس الذى كان يسيطر عليه المرابطون إلى دولته الجديدة ومن ثم دخل فى صراع من ملوك الطوائف حيث استقلوا بإماراتهم منذ عام ٥٣٩ هـ لكن لم يأتى عام ٥٥٢ هـ إلا وكانت الاندلس قد توحدت تحت قيادة الموحدين وكانت

أشبيلية هى عاصمتهم فى الاندلس ومحط اهتمامهم طوال الحكم الموحدى للبلاد وكان عليهم الاهتمام بشرق ووسط الاندلس لكن الأوضاع السياسية لم تساعدهم على ذلك لان أمراء الاقليم الشرقى عارضوا فكرة الوحدة مع المغرب . ولكن ملك قشتالة استطاع أن يستولى على إمارة مرية لكن الموحدين استطاعوا فى عام ٥٥٣ هـ / ١١٤٧ م الاستيلاء عليها من أيدى ملك قشتالة بعد أن صمد الموحدون لاسترجاعها وكانت استعادة المرية بداية توحيد بقية الاندلس تحت سلطانهم فجعل عبد المؤمن بن على ابنه أبا سعيد عثمان واليا على الاندلس . وقام عبد المؤمن بالعودة إلى المغرب والاتجاه شرقا ليقضى على بقايا صنهاجة والحماديين فدخل تونس عام ٥٥٤ هـ / ١١٥٩ م وقد ساعدته الظروف السياسية السائدة فى تلك البلاد لكى يضمها بعد أن دخل القيروان والمهدية فى عام ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م وكان ذلك العام عام توحيد المغرب من المحيط الأطلسى إلى قفصة تحت لواء واحد ولم تلبث أن دخلت طرابلس وكل ليبيا فى طاعته وكان ذلك يعنى أن المغرب العربى بأقسامه الثلاثة (الأقصى والأوسط والأدنى) قد انطوى تحت لواء الموحدين إضافة إلى الاندلس . وتعتبر هذه السنة تاريخا فاصلا فى تاريخ المغرب فهى السنة التى تحققت فيها وحدة المغرب السياسية وخضوعه لخليفة واحد فى مراكش . ومن ذلك العام صارت الخلافة الموحدية المغربية أقوى دولة إسلامية فى العالم الإسلامى كما عمل عبد المؤمن على ترحيل بعض القبائل العربية إلى المغرب الأقصى والاندلس وفى عام ٥٥٨ هـ / ١١٦٣م قضى عبد المؤمن بن على مؤسس دولة الموحدين نحبه بعد أن حكم أربعة وثلاثين عاما وبذلك يكون عبد المؤمن بن على هو العمود الفقرى الذى قامت على أكتافه دولة الموحدين بعد أن مهد محمد بن تومرت الطريق لإقامة هذا الكيان الموحدى .

وكان عبد المؤمن بن على قبل وفاته قد أخذ البيعة لابنه أبو يعقوب يوسف الذى حكم اثنين وعشرين عاما (٥٥٨ - ٥٨٠ هـ - ١١٦٣ - ١١٨٤ م) ولقد حرص الخليفة الجديد على انتهاج سياسة أبيه وقد بذل أقصى جهده فى القيام بالمهام الملقاة

عليه والوقوف بحزم وقوة فى المحافظة على كيان الدولة وواجه يوسف العديد من الثورات والفتن والمشاكل ومنها محاولة الدولة الأيوبية فى مصر السيطرة على المغرب الأدنى (ليبيا وافريقيا) ودخل بعض المماليك التابعين لمصر هذه البلاد وعملوا على اثارة المشاكل والفتن واحتلال بعض المدن بمساعدة القبائل العربية ، كما قامت فتن أيضا فى الاندلس والتى منها ثورة ابن مردينش الذى استطاع أبو يعقوب القضاء عليها عام ٥٦١ هـ / ١١٦٦ م . لكن أبى يعقوب كان دائما يشعر أن الخطر يأتى من قشتالة وليون والبرتغال وكان يدرك خطر تحالف هذه الدول مجتمعين ضده فكان عليه أن يقاتلهم فرادى وليس مجتمعين فبدأ بالبرتغال وتوجه إلى مدينة شنترين لمحاولة القضاء عليها لكن أبى يعقوب يوسف أصيب فى حصار هذه المدينة وتوفى من أثر اصابته ومات عام ٥٨٠ هـ / ١١٨٤ م وأخذت ضربات مسيحى الاندلس تتوالى على امارات المسلمين لاسيما أن القشتاليين استطاعوا الاستيلاء على فونكة بمساعـــدة ملك أرغون .

وخلفه ابنه يعقوب يوسف المنصور (٥٨٠ - ٥٩٥ هـ) وكان يوسف المنصور من القواد العسكريين الموحدين القلائل الذين استطاعوا أن يقودوا جيوشهم إلى النصر فقد كان رجلا حازما موهوبا فى الشئون العسكرية وكان قد بدأ فعلا فى تحصين البلدان الغربية الاندلسية التى كانت عرضة لغارات العدو واهتم بصفة خاصة بمدينة أشبيلية وإضافة إلى أن وفاة والده الخليفة أبى يعقوب بهذه الصورة المفاجئة كانت ضربة قاسية للموحدين فى المغرب والاندلس إذ استغل أعداء الدولة هذه الفرصة وبدأوا يسعون لتحقيق أطماعهم ومنهم بنو غانية حكام جزر البليار (يابسة، وميورقة ، ومنورقة) الذين استولوا على أجزاء من المغرب الأوسط والأدنى بمساعدة بعض القبائل العربية وقد أدى ذلك إلى أن سلطان الموحدين أصيب بنكسة شديدة فى المغرب والاندلس لكن سرعان ما حسم الموحدون خطر بنى غانية فكان رد الفعل عنيفا وسريعا إذ استطاع الخليفة المنصور سحق ثورتهم بعد إرسال العديد من الحملات إليهم ومعهم القبائل

العربية واستمرت هذه المطاردات سنوات طويلة . لكن بعد أن أتم المنصور تأمين خط الظهر وتوحيد الجهود الداخلية فانه بدأ ينظر إلى الاندلس لان الخطر الحقيقى يأتى إليه من هذه القبائل المسيحية التى تهدد الكيان الإسلامى فى الاندلس والمغرب . لذا اتجه بكل قواته وقواه نحو الاندلس وكان الموقف قد عاد إلى الحرج بعد أن ازداد الضغط النصرانى على الاندلس ولم يعد فى علاج ذلك إلا عمل حاسم لوقف تقدم هذه القوى المعادية للإسلام . وبدأ المنصور حركته الجهادية عام ٥٨٧ هـ / ١١٩١ م بمملكة البرتغال التى سبق أن استشهد فيها والده أبو يعقوب يوسف واستطاع فى عام ٥٨٧ هـ / ١١٩١ م الاستيلاء على مدينة شلب وأسر بعض السفن البرتغالية وبذلك أنهارت القوة البرتغالية فلم نعد نسمع بعد ذلك عن دخولهم فى حرب ضد المنصور وبعد أن أسكت المنصور قوة دفع البرتغال قرر أن يتجه إلى الجبهة القشتالية حيث شهد بداية عام ٥٩١ هـ / ١١٩٤ م اكتمال أهبة الاستعداد لغزوته الكبرى وتوافدت القوات إلى أشبيلية . وعندما علم ألفونسو الثامن ملك قشتالة نقض المصالحة التى كانت بينه وبين المنصور وتربص بالمسلمين فى الاندلس واستصرخ أوربا جميعها وبابا روما فوفدت عليه جيوش من فرنسا وألمانيا وهولندا والمدن الايطالية وغيرها من الممالك الأوربية يقودها فرسان ذو خبرة عسكرية وتقدمت الحشود الصليبية الأوربية الكبيرة إلى مكانها فى سهل فسيح حول حصن الأرك .

وبدأ القتال بتقدم فرسان مسيحى أسبانيا وأوربا إلى قلب القوات الإسلامية ونجحوا فى اختراق القلب ، لكن القوات الإسلامية قامت بالالتفاف حولها من جميع الجهات ووقع فرسان أوربا المسيحية بين شقى الرحى وحصرتهم القوات الإسلامية وفى ٩ شعبان عام ٥٩١ هـ / ١٨ يوليو ١١٩٥ م انجلى انتصار المسلمون بقيادة المنصور ولاذ ألفونسو الثامن بعدد قليل من فرسانه بالفرار نحو طليطلة وكان لهذه المعركة أثر بعيد يشبه أثر معركة الزلاقة فى عهد يوسف بن تاشفين . وبعد ذلك النصر ثبتت حدود الإسلام فى الاندلس على خط وادى آنة وأرسل المنصور فرقا من الجيش استعادت

الكثير من حصون غرب الاندلس وتوجه المنصور نحو طليطلة لكن الشتاء كان قد حل وحال دون التقدم للإستيلاء عليها واستطاع المنصور أن يهدم ويستولى على بعض الحصون التى كانت تشكل تهديدا على المسلمين . ومات المنصور فى ربيع الأول ٥٩٥ هـ/ ١١٩٩م وهو صاحب معركة الأرك ومهما يكن من أمر فإن المنصور استطاع أن يقوم بالأعباء الملقاة على عاتقه وأن يبسط نفوذ الدولة على الأراضى الواقعة من ليبيا شرقا إلى المحيط الأطلسى غربا ومن وادى بانة فى الاندلس شمالا إلى افريقية المدارية جنوبا .

وبوفاة المجاهد الكبير الخليفة المنصور تولى خلافة الموحدين ابنه الناصر (٥٩٥ – ٦١٠ هـ) وكانت بداية حكمه قد شهدت عودة بنى غانية إلى الثورة وشن الغارات على افريقية . لكن الناصر أدرك أن خطر بنى غانية يأتى من جزر البليار فصمم على احتلالها جميعها فقد شهد عام ٥٩٩ هـ / ١٢٠٣ م خروج الأساطيل الموحدية من جزيرة يابسة إحدى جزر البليار التى خضعت لسيطرة الموحدين قاصدا ميورقة فاستولى عليها ثم استولى على منورقة وبعام ٦٠٠ هـ / ١٢٠٣ م تم للموحدين اخضاع جميع جزر البليار لنفوذهم السياسى . وكان عليه أن يقضى على فلولهم فى افريقية فاستولى الموحدون على تونس والمهدى وفاس وتم القضاء شبه النهائى على فتنة بنى غانية وتولى محمد بن أبى حفص حكم تونس من قبل الموحدين .

لكن فى الجبهة الاندلسية فان ألفونسو الثامن لم ينس هزيمة الأرك فأخذ يستعد يستمد لجولة قادمة مع المسلمين بعد أن وحد الأسبان صفوفهم وتحالفت جميع ممالكهم واستنجدوا بملوك أوربا وبابا روما وأعلنوا الدعوة لرحرب صليبية فى أوربا وبارك البابا حركتهم وجاءت جيوش جرارة من ايطاليا وفرنسا وألمانيا .

وانتقل الناصر لدين الله إلى الاندلس فى ١٩ شعبان ٦٠٧ هـ / ١٢١١ م واستعد للغزو وكان ذلك بعد انتهاء هدنة مع ألفونسو الثامن تنتهى فى عام ٦٠٦ هـ /

١٢٠٩ م وأخذت الجيوش تتوافد على أشبيلية وفى أوائل عام ٦٠٨ هـ / ١٢١١ م تحرك إلى بلاد قشتالة واستولى على عدة حصون وقلاع وأسرع فى الاستيلاء على حوض الوادى الكبير وهو الباب المؤدى إلى قشتالة وذلك للحيلولة دون دخول النصارى إلى الاندلس بقوات كبيرة وفى نفس الوقت تحركت قوات إسبانيا وأوربا نحو هذا الموقع والتقى الجيشان بعد أن كان قد حدث انقسام فى الجيش الإسلامى واجتمعت قوات مسيحية لم تكن قد اجتمعت لقتال المسلمين من قبل وقد كان فيها ملوك قشتالة وليون ونافارا وأرجون ومعظم كبار فرسان إسبانيا وألمانيا وفرنسا والبرتغال والمدن الإيطالية وتمكنت هذه القوات من الاستيلاء على كل القوات التى صادفتها فى طريقها لكن أثناء معركة « تولوسا » التى تطلق عليها المصادر الإسلامية العقاب انسحبت القوات الأسبانية (الاندلسية) المسلمة انتقاما من قيام الناصر بقتل قادتهم الاندلسيين ومن هنا حلت الهزيمة بالجيش الموحدى وفرت القبائل البربرية وكانت آخر القوات التى انسحبت من المعركة قوات العرب الذين تلاحموا بالسيوف مع المسيحيين مدافعين عن الناصر لدين الله الذى استطاع الانسحاب وقضى على معظم الجيش الموحدى وعاد الناصر إلى مراكش حزينا واحتجب عن الناس ومات فى ١ شعبان ٦١٠ هـ / ٥ يناير ١٢١٣ م أى بعد سبعة شهور من هزيمة العقاب وبذلك انهار نفوذ الموحدين تماما فى الاندلس بعد هذه الكارثة . وكانت هذه الكارثة سببا فى تكالب امراء قتشالة وليون وأرجون بالاستيلاء على أراضى الاندلس وكان المسيحيون الأسبان سببا فى تعجل انتهاء الدولة الموحدية .

بعد هزيمة العقاب القاسية على المسلمين ووفاة الناصر تولى خلافة الموحدين من بعده ابنه يوسف الذى تلقب بالمنتصر وشهد عهده بداية الحروب الاهلية والمشاحنات الأسرية وخروج أقربائه عليه وبدأت المدن الاندلسية تتساقط فى أيد ملك قشتالة والبرتغال . وقامت الثورات الداخلية ضده ومحاولة احياء الخلافة الفاطمية فى المغرب من جديد بعد أن قضى عليها صلاح الدين الأيوبى فى مصر ودام حكمه (٦١٢ –

٦٢٠ هـ / ١٢١٥ – ١٢٢٤ م) ثمانى سنوات ولم يقم بأدنى عمل يذكر له طوال هذه السنوات .

وتولى بعده خلافة الموحدين عبد الواحد بن يوسف بن عبد المؤمن (٦٢٠ – ٦٢١ هـ / ١٢٢٤ م) ولم تدم فترة حكمه إلا عاما واحدا اتسمت بالفوضى وتفرق شمل الموحدين وظهر التصارع على السلطة بصورة واضحة فما كان من شيوخ الموحدين إلا أن استدعوا من الاندلس (أبو محمد عبد الله بن يعقوب بن المنصور) وتلقب بالعادل وحكم ثلاث سنوات (٦٢١ – ٦٢٤ هـ) وهاجمت بعض القبائل العاصمة مراكش . لكن الأمور أخذت تسير عن سيئ إلى أسوأ فما كان من شيوخ الموحدين إلا وولوا يحيى بن الناصر خلفا له (٦٣٤ – ٦٢٧ هـ) لكنه دخل فى صراع شديد مع الخليفة المأمون ابن المنصور الذى قدم من الاندلس ودخل العاصمة مراكش وانسحب يحيى وأنصاره بعد أن قام المأمون ببناء كنيسة فى العاصمة مراكش بجوار مسجد العاصمة لكن يحيى بن الناصر هاجم المدينة وهاجم الكنيسة وتوفى الخليفة المأمون وبايع شيوخ الموحدين ابنه الرشيد خلفا له وكان والده قد تولى الخلافة ثلاث سنوات فقط (٦٢٧ – ٦٣٠ هـ) وحكم الرشيد عشر سنوات (٦٣٠ – ٦٤٠ هـ) وفى عهده تساقطت المدن الإسلامية فى الاندلس كتساقط الأوراق فى الخريف وانهار خط الوادى الكبير وسقطت قرطبة وأشبيلية وبلنسية وجيان وجزر البليار وكانت تصفية مخزية وتلقب ملك قشتالة بالقديس المنتصر وصار للمسيحيين منفذ على جبل طارق وتوفى الرشيد وخلفه أخوه على السعد أبو الحسن (٦٤٠ – ٦٤٦هـ) وفى عهده بدأت قوة بنى مرين فى الظهور فى المغرب الأقصى وتحالف بنو حفص معهم ضد الموحدين ودخل العرب وحلفاؤهم العاصمة وقتلوا السعيد وتفرقت القوات الموحدية فقاماابن عمه أبو حفص بن عمر الذى تلقب بالمرتضى بالحكم (٦٤٦ – ٦٦٥ هـ)ودامت فترة حكمه تسعة عشر عاما وشهدت فترة حكمه صراعا شديدا مع بنى مرين وعرب المغرب الأقصى مما دفع الخليفة المرتضى إلى القبض على شيوخ القبائل

العربية خوفا من مساعدتهم ومساندة ابن عمه أبي دبوس لكنهم هاجموا مراكش وقبضوا عليه وقتله أبو دبوس وتولى حكم الموحدين وتلقب بالواثق بالله (٦٦٥ - ٦٦٨ هـ / ١٢٦٦ - ١٢٧٠ م) ولم يستطع هذا أن ينقذ الدولة من خطر بنى مرين الذين احتلوا العاصمة مراكش وبذلك سقطت الدولة فى عام ٦٧٠ هـ بعد أن بدأت حكمها الفعلى وسيطرتها على المغرب عام ٥٤٠ ومارست وجودها طوال مائة وخمسين عاما هجريا .

لكن إذا كانت الدولة الموحدية قد سقطت تحت حكم بنى مرين فإن أعمالها بعد سقوطها تشهد لها بالإنجاز العظيم فى مختلف المجالات فقد اهتموا ببناء الأسطول والمدن الساحلية وجاهدوا فى البحر ضد القوى المسيحية وضد بنى غانية واستولوا على جزر البليار من أيديهم وكان للأسطول الموحدى التفوق والانتصار خاصة فى غرب الاندلس ولعل أكبر دليل على سمعة الأسطول الموحدى طلب صلاح الدين الأيوبى مساعدة الأسطول الموحدى له فى حصار مدن الشام لصد الصليبيين عن بيت المقدس وتذكر بعض المصادر أن الخليفة المنصور أرسل لصلاح الدين مائة وثمانين سفينة حربية كذلك فان الأسطول هابة ملك البرتغال أو قشتالة وليون وحاصر سفن هذه البلاد داخل موانيها لكن معركة العقاب وضعت نهاية للأسطول الموحدى عام ٦٠٩ هـ/ ١٢١٢م.

وهكذا نرى كيف أن دولة الموحدين وهى فى عنفوان شبابها فى عصر عبد المؤمن بن على وابنه أبى يعقوب يوسف ثم أبى يوسف يعقوب المنصور صاحب معركة الأرك فان القوات البحرية كانت القوة الوحيدة فى غرب البحر المتوسط ولعبت دورا لايقل عن دور القوات البرية .

كذلك من ناحية المظاهر الحضارية والثقافية والمعمارية والهندسية فقد ترك الموحدون بصماتهم واضحة جلية فى شتى المجالات وتقدم المغرب بجميع أقسامه وبلاد الاندلس خطوات سريعة على درب الرقى والحضارى وانتشر اللسان العربى والقبائل

العربية فى شتى أنحاء المغرب وكانت هجرة القبائل العربية إلى بلاد المغرب الأقصى لها وقع كبير فى انتشار الثقافة العربية والحضارة الإسلامية . وقد اهتموا بالزراعة والصناعة والتجارة وسادت البلاد حالة من الأمن والرخاء والرفاهية لاسيما فى فترة حكم الخلفاء الثلاثة الأول التى حكم فيها عبد المؤمن وأبو يعقوب يوسف والمنصور .

وتقدم الطب والدراسات الطبية وانتشرت المستشفيات وكثرت المساجد والمدن الجديدة وظهر الفن المعمارى المغربى الاندلسى وبدأ طابع جديد فى هذا الميدان يظهر فى النشاطات المعمارية . ومارسوا التجارة مع بلدان العالم الخارجى مع المدن الايطالية والشرق الإسلامى ودول أوربا الغربية وسيطر الدينار الموحدى على الأسواق الإسلامية وبدأ ينافس الدينار الأيوبى فى وزنه . وبلغت الحضارة المغربية الاندلسية أقصى عصور ازدهارها وظهر فى عهدهم العديد من العلماء المفكرين أمثال ابن طفيل وابن الرشيد وابن العربى .

ولقد كان لدولة الموحدين وتقدمها وثروتها وأسطولها وجيشها مآثرها فى مختلف الميادين مما كان له أثر كبير فى تاريخ الإسلام والمسلمين فى المغرب العربى بأقسامه المختلفة والاندلس فقد صانوا الإسلام وحافظوا على تراثه وآخر وجودهم فى الاندلس سقوط المدن الإسلامية بها لعدة قرون فهم حماة الإسلام دعاة للعقيدة ولولا تحالف القوى الصليبية الأوربية ووقوفها خلف ملك قشتالة لما تحقق لهم نصر العقاب عام ٦٠٩ هـ / الذى عجل بالنهاية لهذه الدولة فى الاندلس وتقاسمت أملاكها ثلاث دول فى المغرب هى بنى حفص وبنى عبد الواد وبنى مرين وهذا ما يكون محور الدراسة فى الجزء الخامس من هذه الموسوعة .

المصادر والمراجع

١ – المصادر :

١ – ابن الآبار : أبو عبد الله محمد بن أبى بكر القضاعى : الحلة السيراء ، نشرة حسين مؤنس . القاهرة ١٩٦٣ .

٢ – أبو بكر الصنهاجي : أخبار المهدى بن تومرت وابتداء الدولة الموحدية . باريس ١٩٢٨ .

٣ – ابن الأثير : أبو الحسن الجزرى : الكامل فى التاريخ . عشرة أجزاء . القاهرة ، ١٣٠٣ هـ .

٤ – أحمد بابا التمبكتى : نيل الابتهاج بتطريز الديباج . القاهرة ، ١٢٣٩ .

٥ – الادريسى : أبو عبد الله السبتى : المغرب وأرض السودان ومصر والاندلس ، ليدن ، ١٨٦٦ م .

٦ – امارى ميخائيل : المكتبة العربية الصقلية . ليبزج ، ١٨٨٧ م .

٧ – البكرى أبو عبد الله المرسى : المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ، نشرة دى سلان . الجزائر ، ١٨٨٧ م .

٨ – ابن بطوطة : محمد الطنجى : تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأنصار . باريس ١٩٢٢ م .

٩ – التيجانى : أبو عبد الله محمد : جامع تواريخ فاس . بالرمو ، ١٨٧٨ م .

١٠ – التيجانى : أبو عبد الله محمد : ابن تومرت . المهدى أبو عبد الله محمد : الجزائر ، ١٩٠٧ م .

١١ – الجزنائى : أبو الحسن : زهرة الأسى فى بناء مدينة فاس . تلمسان ، ١٩٢٢ م .

١٢ – الحميرى : أبو عبد الله محمد : صفة جزيرة الاندلس . القاهرة ، ١٩٣٧م .
١٣ – الحميرى : الروض المعطار فى أخبار الأقطار . نشرة ليفى بروفسال . القاهرة ، ١٩٣٧ م .
١٤ – ابن خلدون العبر وديوان المبتدأ والخبر . القاهرة ، ١٢٨٤ هـ .
١٥ – الدباغ : عبد الرحمن الأنصارى : معالم الإيمان فى معرفة أهل القيروان . تونس ، ١٣٢ هـ .
١٦ – ابن أبى زرع : أبو الحسن : الانيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب ومدينة فاس . ١٤٨٣ م .
١٧ – شكيب أرسلان : تاريخ غزوات العرب فى فرنسا وايطاليا وسويسرا وجزائر البحر المتوسط . القاهرة ، ١٣٥٢ م .
١٨ – الزركشى : تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية . تونس ، ١٢٨٩ هـ .
١٩ – الشهرستانى : أبو الفتح : كتاب الملل والنحل . ليبزج . ١٩٢٣ م .
٢٠ – الضبى : أحمد بن عميرة : بغية الملتمس فى تاريخ رجال الاندلس مدريد، ١٨٨٤ م .
٢١ – ابن عذارى المراكشى : البيان المغرب . باريس ، ١٩٣٠ م .
٢٢ – أبو العرب : محمد بن تميم التميمى : طبقات علماء تونس ، الجزائر ، ١٩٢٤ م .
٢٣ – القلقشندى : صبح الاعشى فى صناعة الانشا . القاهرة ، ١٩١٧ م .
٢٤ – المالكى : أبو بكر عبد الله : رياض النفوس فى طبقات علماء القيروان وافريقية ، القاهرة ، ١٩٥١ م .

٢٥ – المراكشى (عبد الواحد) : المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ، القاهرة ، ١٩٤٢ م .

٢٦ – ابن أبى دينار، الرعينى القيروانى: المؤنس فى أخبار افريقية. تونس. د.ت.

٢٧ – الرفيق القيروانى : تاريخ افريقية والمغرب . تونس ، ١٩٦٨ م .

٢٨ – السلاوى : أبو العباس الناصرى : الاستقصا فى أخبار المغرب الأقصى ، ١٨٩٤ م .

٢٩ – ابن حوقل (النصيبى) : صورة الأرض . بيروت ، د. ت .

٣٠ – الاصطخرى (زبو اسحق محمد) : المسالك والممالك . القاهرة ، ١٩٦١ م .

٣١ – العمرى (شهاب فضل الله) مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار نشر حسن حسنى عبد الوهاب . تونس ، د. ت .

٣٢ – اليعقوبى (أحمد بن أبى يعقوب) : صفة المغرب نقلا عن كتاب البلدان . ليون ، ١٨٦٠ م .

٣٣ – الالوسى : بلوغ الأرب معرفة أحوال العرب ، القاهرة ، ١٩٢٤ م.

٣٤ – المالقى : أبو الحسن النباهى : المرقبة العليا فيمن يستحق الفتيا والقضاء نشرة ، ليفى بروفسال القاهرة ، ١٩٤٨ م .

٣٥ – المسعودى محمد الباجى : الخلاصة النقية فى أمراء افريقية ، تونس ، ١٣٣٣ م .

٣٦ – المقريزى : تقى الدين بن على : اتعاظ الحنفا بأخبار الائمة الفاطميين الخلفاء . نشرة جمال الدين الشيال . القاهرة ١٩٤٨ م .

٣٧ – ياقوت الحمدى : معجم البلدان فى معرفة أخبار المدن والقرى . القاهرة ، ١٢٣٣ م .

٣٨ – الونشريس : أحمد بن يحيى : المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء افريقية والاندلس فى المغرب وفاس . د. ت .

٣٩ – يوسف أشباح : تاريخ الاندلس فى عهد المرابطين والموحدين . ترجمة عبد الله عنان . القاهرة ، ١٩٤١ م.

٤٠ – الرباطى بو جندار : محمد مصطفى : مقدمة الفتح من تاريخ رباط الفتح: الرباط ، ١٩٢٦ م.

٢ – المراجع :

٤١ – ابراهيم أحمد العدوى : مصر الإسلامية . القاهرة ، ١٩٧٥ م .

٤٢ – ابراهيم أحمد العدوى : الأساطيل العربية فى البحر المتوسط . القاهرة ، ١٩٥٧ م .

٤٣ – ابراهيم على طرخان : المسلمون فى أوربا فى العصور الوسطى . القاهرة ، ١٩٦٦ م .

٤٤ – ابراهيم بيضون : الدولة العربية فى إسبانيا . بيروت ، ١٩٨٠ م .

٤٥ – ابراهيم أحمد العدوى : تاريخ العالم الإسلامى ، ١٩٨٤ م .

٤٦ – ابراهيم حركات : النظام السياسى والحربى فى عهد المرابطين . الدار البيضاء . د. ت .

٤٧ – أحمد شلبى : موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية . القاهرة ، ١٩٨٤ م .

٤٨ – أحمد أمين : فجر الإسلام . القاهرة ، ١٩٨٧ م .

٤٩ – أحمد صفر : مدينة المغرب العربى فى التاريخ . تونس ١٩٥٩ م .

٥٠ - أحمد الزاوى : تاريخ الفتح العربى فى ليبيا . القاهرة ، ١٩٥٤ م .

٥١ - احسان عباس : العرب فى صقلية . القاهرة ، ١٩٥٩ م .

٥٢ - احسان عباس : تاريخ ليبيا من الفتح العربى حتى مطلع القرن التاسع الهجرى . بيروت ، ١٩٦٧ م .

٥٣ - احسان عباس : عصر الطوائف والمرابطين . بيروت ، ١٩٦٢م .

٥٤ - احسان عباس : عصر سيادة قرطبة . بيروت ، ١٩٦٠ م .

٥٥ - أحمد توفيق المدنى : المسلمون فى جزيرة صقلية وجنوب ايطاليا . الجزائر، ١٩٥٦ م .

٥٦ - أحمد مختار العبادى : دراسات فى تاريخ المغرب والاندلس ، . الاسكندرية ، ١٩٦٨ م .

٥٧ - حسن ابراهيم حسن : انتشار الإسلام فى القارة الافريقية . القاهرة ، ١٩٦٤ م .

٥٨ - حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى . القاهرة ، ١٩٤٦ م .

٥٩ - حسن ابراهيم حسن : الفاطميون فى مصر وأعمالهم السياسية والدينية ، القاهرة ، ١٩٣٢ م .

٦٠ - حسن ابراهيم حسن : عبيد الله المهدى . إمام الشيعة ومؤسس الدولة الفاطمية فى بلاد المغرب . القاهرة ، ١٩٤٧ م .

٦١ - حسن ابراهيم حسن : المعز لدين الله إمام الشيعة الاسماعيلى ومؤسس الدولة الفاطمية فى مصر . القاهرة ، ١٩٤٨ م .

٦٢ - حسن أحمد محمود : الإسلام والثقافة العربية فى افريقيا . القاهرة ، ١٩٦٣ .

٦٣ - حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين . القاهرة ، ١٩٥٧ م .
٦٤ - حسن أحمد محمود : العالم الإسلامى فى العصر العباسى القاهرة د.ت.
٦٥ - حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب . القاهرة ، ١٩٤٧ م .
٦٦ - حسين مؤنس : فجر الاندلس . القاهرة ، ١٩٤٦ م .
٦٧ - حسين مؤنس : المسلمون فى حوض البحر المتوسط إلى الحروب الصليبية. القاهرة ، ١٩٥١ م .
٦٨ - حسين مؤنس : السيد القمبيطور وعلاقته بالمسلمين . القاهرة ، ١٩٥٠م.
٦٩ - حسين مؤنس : تاريخ المغرب والاندلس . القاهرة ، ١٩٨٠ م .
٧٠ - زاهر رياض : شمال افريقيا فى العصور الوسطى . القاهرة ، ١٩٨٥ م .
٧١ - زاهر رياض : الممالك الإسلامية فى غرب أفريقيا . القاهرة ، ١٩٦٨ م .
٧٢ - دوزى وينهرت : تاريخ مسلمى إسبانيا : ترجمة حسن حسنى عبد الوهاب . القاهرة ، ١٩٦٣ م .
٧٣ - رولاند ، أوليفر : جون فيج : موجز تاريخ افريقيا ، ترجمة محمد السيد غلاب . القاهرة ، ١٩٦٧ م .
٧٤ - الازدى ، الحميرى : الحافظ أبو نضر : جذوة المقتبس فى ذكر ولاة الاندلس . القاهرة ، ١٩٦٦ م .
٧٥ - الاندلسى ، ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب ، تحقيق شوقى ضيف ، القاهرة ، ١٩١٤ م .
٧٦ - سعيد عبد الفتاح عاشور : بحوث فى تاريخ الإسلام وحضارته . القاهرة ، ١٩٨٧ م .

٧٧ – سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى . الاسكندرية ، ١٩٦٤م.
٧٨ – سيدة اسماعيل كاشف : مصر فى عصر الاخشيديين ، القاهرة ، ١٩٥٠م .
٧٩ – روم لاندو : تاريخ المغرب فى العصر الحديث . ترجمة نقولا زيادة، بيروت، ١٩٦٣ م .
٨٠ – السيد عبد العزيز سالم : قرطبة حاضرة الخلافة الاندلسية . بيروت ، ١٩٧١ م .
٨١ – السيد عبد العزيز سالم : تاريخ البحرية الإسلامية فى المغرب والاندلس . بيروت ، ١٩٦٩ م .
٨٢ – السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير . القاهرة ، ١٩٦٨ م .
٨٣ – السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الاندلس . بيروت ، ١٩٦٢ م .
٨٤ – شكيب أرسلان : حاضر العالم الإسلامى . القاهرة ، ١٩٣٦ م .
٨٥ – شارل أندريه جوليان . تاريخ افريقيا ، ترجمة طلعت أباظة . القاهرة ، ١٩٦٨ م .
٨٦ – ارشباليد لويس : القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط ، ترجمة أحمد عيسى ، القاهرة ، ١٩٦٠ م .
٨٧ – صابر محمد دياب : سياسة الدولة الإسلامية فى حوض البحر المتوسط ، القاهرة ، ١٩٧٣ م .
٨٨ – الحبيب الجنحانى : القيروان عبر عصور ازدهار الحضارة الإسلامية فى المغرب العربى . تونس ، ١٩٦٨ م .

٨٩ – أرنولد توماس : الدعوة إلى الإسلام . ترجمة حسن ابراهيم حسن وآخرون. القاهرة ، ١٩٧٠ م .

٩٠ – عبد الفتاح مقلد الغنيمى : الإسلام والثقافة العربية فى أوربا . القاهرة ، ١٩٧٩ م .

٩١ – عبد العزيز بن عبد الله : معطيات الحضارة المغربية . المغرب ، ١٩٥٧ م.

٩٢ – عبد الرحمن الجيلالى : تاريخ الجزائر العام . القاهرة ، ١٩٥٥ م .

٩٣ – عمر فروخ : العرب والإسلام فى الحوض الغربى من البحر المتوسط ، بيروت ، ١٢٧٨ هـ .

٩٤ – عبد الوهاب بن منصور : قبائل العرب . الرباط ، ١٩٧٠ م .

٩٥ – عز الدين أحمد موسى : النشاط الاقتصادى فى المغرب الإسلامى . بيروت ، ١٩٨٣ م .

٩٦ – عز الدين أحمد موسى : تنظيمات الموحدين ونظمهم فى المغرب . بيروت، ١٩٦٩ م .

٩٧ – عزيز أحمد : تاريخ صقلية الإسلامية ، ترجمة ابن توفيق الطبى . طرابلس ، ١٩٧٠ م .

٩٨ – على عبد الله علام : الدعوة الموحدية بالمغرب . القاهرة ، ١٩٦٤ م .

٩٩ – على عبد الله علام : الدولة الموحدية بالمغرب . القاهرة ، ١٩٧١ .

١٠٠ – الحموى ، محمد ياسين : تاريخ الأسطول العربى . دمشق . ١٩٤٥ م.

١٠١ – محمد جمال الدين سرور : مصر فى عصر الدولة الفاطمية . القاهرة ، ١٩٦٠ م .

١٠٢ – محمد جمال الدين سرور : النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام والعراق . القاهرة ، ١٩٦٨ م .

١٠٣ – محمد عوض محمد: الشعوب والسلالات الافريقية. القاهرة، ١٩٦٥م.

١٠٤ – محمد مرسى الشيخ : دولة الفرنجة وعلاقاتها بالأمويين فى الاندلس . الاسكندرية ، ١٩٨١ م .

١٠٥ – محمود بن صالح : العرب والإسلام . القاهرة ، ١٩٨٤ م .

١٠٦ – محمد عبد الله عنان : نهاية الاندلس وتاريخ العرب المتنصرين . القاهرة، ١٩٦٦ م .

١٠٧ – محمد عبد الله عنان : عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والاندلس . القاهرة ، ١٩٦٤ م .

١٠٨ – محمد عبد الهادى شعيرة : المرابطون وتاريخهم السياسى . القاهرة ، ١٩٦٩ م .

١٠٩ – محمد الرشيد ملين : عصر المنصور الموحدى . بنغازى ، ١٩٧٠ م .

١١٠ – محمود على مكى : وثائق تاريخية جديدة . مدريد ، ١٩٦٠ م .

١١١ – مصطفى أبو ضيف أحمد : أثر العرب فى تاريخ المغرب . الدار البيضاء، ١٩٨٢ م .

١١٢ – مراجع عقيلة الغنانى : قيام دولة الموحدين . الرباط ، د. ت .

١١٣ – مورينو ماريتنو ماريو : المسلمون فى صقلية . بيروت ، ١٩٥٧ م .

١١٤ – لطفى عبد البديع : الإسلام فى أسبانيا . القاهرة ، ١٩٥٨ م .

١١٥ – ليفى بروفسال : الإسلام فى المغرب والاندلس . ترجمة عبد العزيز سالم، القاهرة ، ١٩٦٨ م .

١١٦ – ليفى بروفسال : حضارة العرب فى الاندلس . ترجمة ذوقان فرقوط . بيروت . د. ت .

١١٧ – محمد عبد الله عنان : دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح – المرابطى. القاهرة ، ١٩٦٢ م .

١١٨ – محمد حلمى محمد : الخلافة والدولة فى العصر العباسى . القاهرة ، ١٩٧٢ م .

١١٩ – عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر . القاهرة ، ١٩٥٩ م .

١٢٠ – عبد القادر الصحراوى : جولات فى تاريخ المغرب . الدار البيضاء ١٩٦١م .

٣ – الدوريات :

١٢١ – أحمد مختار العبادى : الصفحات الأولى من تاريخ المرابطين ، مجلة كلية الآداب – جامعة الاسكندرية ، ١٩٦٧ م .

١٢٢ – أحمد مختار العبادى : سياسة الفاطميين نحو المغرب والاندلس . معهد الدراسات الإسلامية ، مدريد ، ١٩٥٧ م .

١٢٣ – أحمد مختار العبادى : الموحدون والوحدة الإسلامية ، مجلة التربية الوطنية ، الرباط ، ١٩٦٢ م .

١٢٤ – حسين مؤنس : سبع وثائق جديدة عن دولة المرابطين وأيامهم فى الاندلس . معهد الدراسات الإسلامية ، مدريد ، ١٩٥٤ م .

١٢٥ – حسين مؤنس : الثغر الأعلى الاندلسى فى عصر المرابطين ، مجلة آداب القاهرة ، ١٩٥٤ .

١٢٦ – سعد زغلول عبد الحميد : العلاقة بين صلاح الدين الأيوبى ، وأبى يعقوب المنصور بن يوسف ، مجلة آداب الاسكندرية ، ١٩٥٣ م .

١٢٧ – محمد الفاسى : مدن المغرب فى القرن الأول كما وصفها صاحب السفرة ، مجلة المغرب ، ١٩٣٩ م .

١٢٨ – محمد المنونى : الإمبراطورية الموحدية فى دور الانحلال ، مجلة دعوة الحق ، الرباط ، ١٩٦٤ م .

١٢٩ – محمود على مكى : التشيع فى الاندلس معهد الدراسات الإسلامية . مدريد ، ١٩٥٤ م .

١٣٠ – عبد الحميد محمود الشرقاوى : الملاحة البحرية الاندلسية فى القرنين الثالث والرابع الهجريين ، ماجستير كلية الآداب – جامعة القاهرة ، ١٩٣٥ م .

المصادر الأجنبية

1 - Barth, H. : Travels in North and central Africa, London, 1858.

2 - Bel, A. : Ali Ben Youssef Encyc. of Islam.

3 - Deccnival, P. : Morrokoeh, Encyc. of Islam.

4 - Dozy, R. : Histoire des Musulmanes d'Espagne, Leyden, 1861.

5 - Gayangos, P. : History of the Mohammedan dynasties in Spain.

6 - Gold Ziher : Mohammed Ibn Toumart, " dans le Nord d'Afrique " Alger, 1903 .

7 - Julien, A : Histoire de l'Afrique du Nord, Paris, 1931.

8 - Marcais, G. : Les Arabes en Berberie du 9 au 14 siecle, Paris, 1913.

9 - Scott, s. P. : History of the Moorish empire in Europe, London, 1904.

10 - Terrasse, H. : Histoire du Maroc, Casablanca, 1964.

11 - Prescoh, W. : History of the reigon of Ferdinand and Isabella the Catholic, London, 1895.

12 - Levi Provencal, E. : Histoire de " Espogne Musulmane " . Paris, 1950.

13 - Hopkins, J.E. : Medieval Muslim government in Barbary, London, 1958.

14 - Golvin, L. : Le Magreb Central d'époque des Ziridés, Paris, 1957.

15 - Ali Fahmy : Muslim Sea Power in Eastern Mediterranean, 1957.

16 - Leory, O. : A short History of the Fatimid Khalfate.

17 - Gautier, E.F. : La passe d'Afrique du Nord, 1942.

18 - Gautier, E.F. : Islamisation de l'Afrique du Nord, Uaris, 1927.

19 - Brunschvig : La Berberie oriental sousles Hofsides. Paris, 1947.

20 - Gatein, S.D. : A Mediterranean Society, Los Anglos, 1957.

21 - Massignon, L. : Le Maroc dans le premiéres années du XVI siecles, Alger, 1906.

22 - Warmington, B. : The North African Provinces, Cambridge, 1954.

23 - Welsh, A. : Africa South the Shara, London, 1961.

24 - Newman, B. : Morocco to day, London, 1923.

25 - Yalaow : Les relations entre Fatimides de l'Afriquiyya et Omayyades, Madrid, 1937.

26 - Gaudel, : Les premiéres invasions des Arabes dans l'Afrique du Nord, 1900.

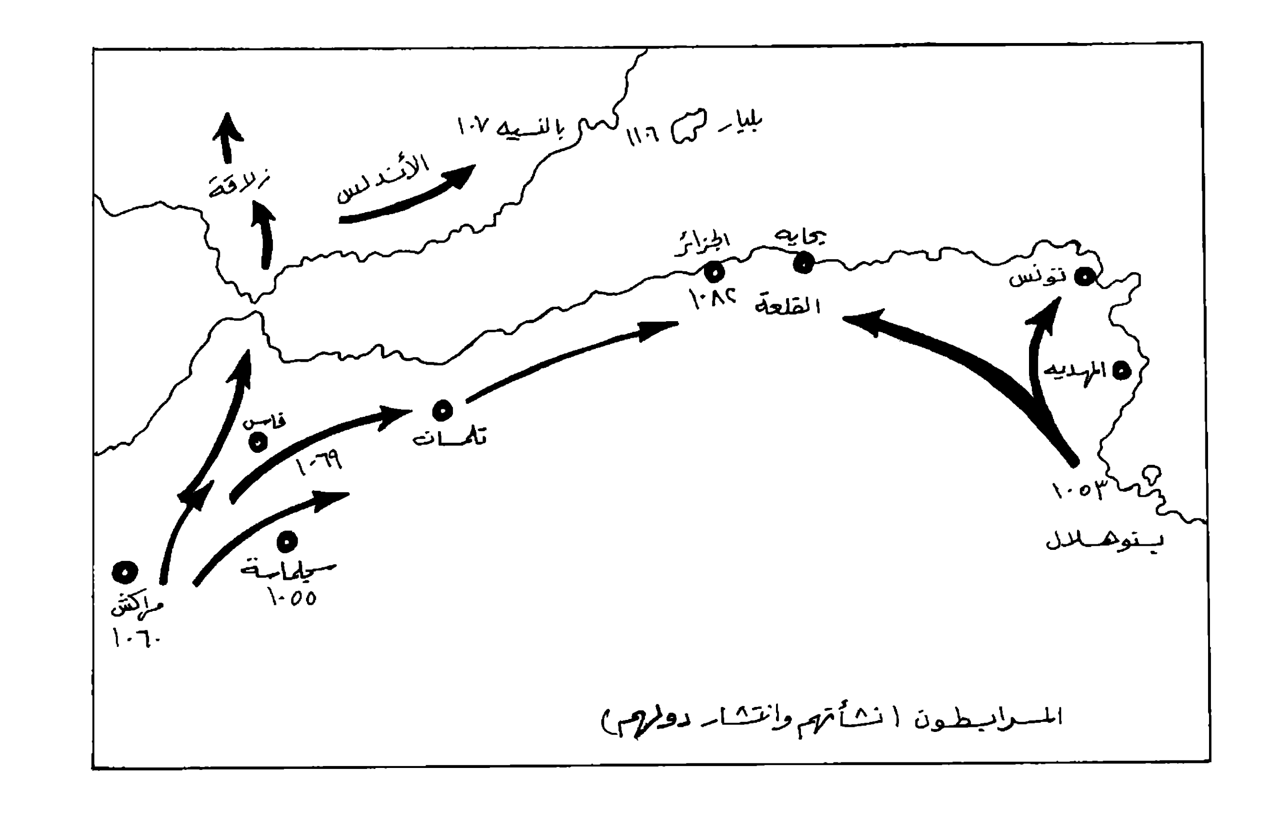
27 - Dachraoui, F. : Contribution d'histoire des Fatimidles en Afriquyya, 1961.

الفهـرس

تم بحمد الله

الأندلس
تونس
ستامة
المهدية
٩٢١
٩١٦
فاس
٩١٢
سجلماسة
٩٠٦
إلى مصر

الفاطميون (نشأتهم وانتشار نفوذهم)



المرابطون (نشأتهم وانتشار دولتهم)

قرطبة
غرناطة ١١٤٦
بجاية
تونس
المهدية ١١٥٠
القلعة
سطيف ١١٥٢
فاس
تلمسان ١١٤٥
مراكش ١١٤٦

الموحدون (نشأتهم وانتشار دعوتهم)

هذه الدراسة عن المغرب العربي نقدمها للقارئ العربي والمسلم ولكل الذين يهتمون بالتاريخ الإسلامي تتناول حقبة تاريخية على امتداد ١٤٠٠ سنة وصل فيها المد الإسلامي أبعاداً واسعة حتى يمكن القول أن الإسلام استطاع أن يكون قارة إسلامية شملت أجزاء متجاورة من آسيا وأفريقيا وأوروبا. وعلى هذا تكون هذه الدراسة عن جزء عزيز من عالمنا العربي والإسلامي والذي لعب دوراً في إثراء الحركة العربية الإسلامية حتى وقع على تلك الكتلة من القارة الإسلامية دور كبير في نشر الإسلام والعروبة في أرجاء واسعة من القارة الإفريقية لا سيما تلك الأقاليم التي تقع إلى الجنوب من المغرب العربي وكذلك في أوروبا حيث الأندلس وما جاورها من أقاليم.

مكتبة مدبولي

MADBOULI BOOKSHOP

٦ ميدان طلعت حرب - القاهرة - ت: ٧٥٦٤٢١

6 Talat Harb SQ. Tel.: 756421